

القرآن المجيد

تزيينه وأسلوبه وأثره وجمعه وتدوينه وترتيبه
وقرآته ورسمه وحكمه ومتشابهه وقصصه
وغيبياته وتعليقات على مناهج مفهيه
والطريقة المشلى لغضبه وففيه

تأليف
محمد غزوة دروزة

منشورات الكتبة العصرية

طيد - بيروت

٢٢٧٥١٥ - بيروت ص. ٨٢٥٥٠٠

محتويات الكتاب

الفصل الاول : القرآن أساوبه ووحيه واثره

القرآن والمسلمون - شخصية النبي - الدعوة القرآنية - أسلوب القرآن
القرآن والبيئة والسيره النبويه - الوحي الرباني والوحي القرآني - شهود
العيان لأعلام النبوة - اثر القرآن الروحي وبلاغته التنظيمية - اثر الدعوة
القرآنية في نجاح الدوحات الاسلاميه - تطور حيرة النبي والتنزيل
القرآني - القرآن والعرب في عهد النبي .

الفصل الثاني : جميع القواف وتدوينه وقوارانه ورسم اللصحف وتنظيماته

مجموعات من الراويات والأقوال في تدوين القرآن وحجه - تعليقات على
الروايات والأقوال وترجيح تدوين القرآن وتدوينه في عهد النبي
ومرجحات ذلك - أسماء السور - فصل السور بالجملة - السجرات -
كتابة ترتيب النزول وعدد الآيات - الشكل والنقط - علامات الوقف
والوصل - رسم المصحف المثاني - القراءات .

الفصل الثالث : اخطئة المثلي لفهم القرآن وتفسيره

القرآن والبيئة النبويه - القرآن والبيئة النبويه - اخطاء القرائية -
القرآن أسس ووسائل - القصص القرائية - الملائكة والجن في القرآن
مشاهد الكون وفواميسه في القرآن - الحياة الاخرية في القرآن -
ذات الله في القرآن - تحليل الفصول القرائية وسياقها - فهم القرآن
من القرآن .

الفصل الرابع : نظرات وتعليقات على كتب المفسرين ومناهجهم .

روايات اسباب النزول - روايات التفسير - تعليقات المفسرين على
القصص - تعليقات أفسرين على مشاهد الكون والملائكة والجن -
التشاد المذهبي في سياق التفسير - الولع بأسرار القرآن ورموزه ومنطوباته
الولع بالتفريع والاستطراد - روايات نزول القرآن حجة واحدة واثرها
روايات نزول القرآن بالامني واثرها - الخلاف على خلق القرآن واثره
الهي عن التفسير بالرأي واثره .

خاتمة افضل المناهج لتفسير القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتب هذا الكتاب في مدينة بourse أثناء هجري في الحرب الى تركيا
وبعد ان اتم الله علي نعمته فانتبهت من كتابة تفسير القرآن بكامله فيها .
وقد وجدت في مكتبات المدينة العديدة ما استغنت به من مراجع قيمة
في التفسير والحديث والكلام والقراءات وعلوم القرآن . وقد جاء
الكتاب ككتاب مستقل لما احتواه من بحوث عديدة كما جاء كمقدمة
للتفسير لما احتواه من شرح المنهج الذي مرت عليه فيه وبيان الطريقة
المثلى لفهم القرآن وخدمته وتفسيره .

ولقد عدت فقرات كتابا عديدة اخرى لاستيفاء الكلام في مواضع
الكتاب وثوبته ، وادخلت تنقيحات كثيرة على مسودة بourse فجاء
الكتاب على اسلوب و جديدين بحث في نطاقها مختلف مسائل القرآن
ووصلت بذلك الى نتائج هامة وجديدة ارجو ان يكون الله
قد هدا في فيها الى الحق والطواب ، وان اكون بذلك قد خدمت كتاب الله
المجيد فيما اخذت على نفسي من خدمة له . منذ اربع عشرة سنة استغرقت
اكثر اوقاتي . كما ارجوه ان يتم نعمته وتوفيقه بتتبع وطبع اجزاء
التفسير وهو ولي التوفيق ومنه نطلب العون والهدى .

الفضل الأول

بسم الله الرحمن الرحيم
القرآن وأسلوبه ووعبه وأثره

- ١ -

القرآن والمسلمون

ليس غريباً أن يكون القرآن شغل الناس في كل زمان ومكان طيلة القرون الثلاثة عشر السالفة وطيلة ما شاء أن يكون من أمد هذه الدنيا وأن يتنافس في الكتابة فيه الكتاب والعلماء والمصلحون والباحثون من مسلمين وغيرهم ، وإن يصدر فيه كل يوم كتاب .

فهو الكتاب المقدس للمسلمين المنتشرين في كل صقع من أصقاع الأرض والذين تمثل فيهم شتى أممها ، فيه أصول دينهم ومبادئ حياتهم ونبع المأمهم ونبراس أخلاقهم ونور هدايتهم في مختلف شؤونهم الدينية والدينية ، الروحية والمادية ، العامة والخاصة ، السياسية والقضائية والاجتماعية والشخصية والانسانية ، وفيه أقوى الحوافز إلى اسمى الآفاق وأبعد الاشواط الموصلة الى اعلى ما يمكن أن يكون من رفعة الذكر وعلو القدر وقوة التمكن والنصر ، وجعل متبعيه خير أمة أخرجت للناس إذا هم قاموا بأعباء ما حملهم إياه من تبعات ، وأدوا ما أوثقتوا عليه فيه للانسانية من أمانات : من دعوة إلى الخير والحق والهدى ، ومن

أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، ومن تواص بالصبر والحق والرحمة ،
ومن تناصر ضد البغي والاثم والعدوان ، ومن انصاف بكل صفات
الخير والعدل والبر والرحمة والاحسان والكرامة والعزة والصدق والوفاء
وكل خلق كريم ، ومن تحظير للفواحش والآثام والمنكرات ما ظهر منها
وما بطن ، وما صغر منها وما عظم . وصفه الله فيه بأنه يهدي للتي هي
أقوم ويشر المؤمنين الذين يصلون للصالحات بعظيم الاجر وأن فيه لهم
الشفاء والرحمة والهدى ، ووصفه نبيهم بهذا الوصف الشامل الرائع المأثور
عن طريق علي بن أبي طالب والمثبت في كثير من كتب الاثمة والثقة :
فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس
بالمزل ، من تركه فصدقه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو
حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذي لا تربغ
به الاهواء ولا تلتبس به الالسنه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي
عجائبه ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ،
ومن دعا اليه هدى إلى صراط مستقيم . فهم من أجل هذا مكلفون
بالاشتغال به دينياً فيها وتدبراً وتفسيراً واستنباطاً واستلهاماً واستيعاباً .

- ٢ -

للقرآن وشخصية النبي

وشخصية السيد الرسول عليه السلام الذي انزل عليه القرآن هي
الشخصية الوحيدة التي ليست محل شك وريب من الوجهة التاريخية وعند
مختلف الملل والنحل والاقوام من بين شخصيات الانبياء ، وفي حده
حادثة « نبوة النبي » المتصل بسر وحي الله ومر الوجود وواجب الوجود
والذي تواترت الاخبار عن تكرره في مختلف عصور التاريخ السالفة .

والقرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي ليس محل شك
 وريب من بين الكتب السابرة المتداولة في كونه متصلا بالنبي ، وفي
 حدوده منه بحروفه والفاظه وسوره يوحى من الله ، وقد تكرره فيه
 تقرير بشرية النبي وكونه في طبيعته البشرية كسائر البشر وكون قصارى
 مهمته دعوة الناس الى الله وحده ، واخراجهم من الظلمات الى النور
 باذن ربه ، والحث على مكارم الاخلاق ، والتعذير من الشر والاذى
 والفواحش ، وتبشير المستجيبين بالخير والنجاة وانذار المعرضين بالويل
 والحسران كما ترى في الآيات التالية التي هي قبض من قبض في هذا الباب :

١ - قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم واهي
 الي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ أنكم تشهدون أن مع الله آلهة
 أخرى قل لا أشهد قل إنما هو اله واحد وانني بريء مما تشركون .

الانعام ١٩

٢ - وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا
 خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا لهم العذاب
 بما كانوا يفسقون .

الانعام ٤٩

٣ - قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول
 اني ملك ان اتبع الا ما يوحى الي قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلا
 تتفكرون .

الانعام ٥٠

٤ - الر كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور
 باذن ربه الى صراط العزيز الحميد .

ابراهيم ١

٥ - قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الي أنما إلحكم اله واحد فمن كان
 يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا . الكهف ١١٠

وقد تكرر فيه تقرير كونه اعظم مظهر لنسبة النبي وأقوى آياتها ودلائلها كما ترى في نص الآيات التالية :

١- وهذا كتاب انزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . ان تقواوا انما انزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كننا عن دراستهم لغافلين . او تقولوا لو انا انزل علينا الكتاب لكنا اهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن اظلم ممن كذب بآيات الله وصدق عنها سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون .
الانعام ١٥٥ - ١٥٧

٢- ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون .
الاعراف ٥٢

٣- ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم . الحجر ٨٧

٤- وقالوا لولا انزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما انا نذير مبين . او لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون .

المنكحوت ٥٠ - ٥١

وقد تكرر فيه تأكيد اتصاله بوحى الله وصدوره عنه وعجز الناس عن الاتيان بمثله معلنا ذلك على ملا من خصومه الالءاء وجاحديه الالءاء كما ترى في الامثلة التالية بالاضافة الى الآيات السابقة .

١- وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فأتوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين .

البقرة ٢٣ - ٢٤

٢ - أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه
اختلافاً كبيراً . النساء ٨٢

٣ - لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنه بعلومه والملائكة يشهدون
وكفى بالله شهيداً . النساء ١٦٥

٤ - قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن
لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . الاسراء ٨٨

٥ - وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الامين على قلبك
لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين . الشعراء ١٩٢ - ١٩٥

وبالاضافة الى هذا فقد احتوى آيات كثيرة فيها اعلان باسناد الله
على صحة هذه التوكيدات والتقارير ؛ وتعظيم لجرم الافتراء على الله
كما ترى في الآيات التالية :

١ - وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولننذر أم القرى
ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون
ومن اظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي الي ولم يوح اليه شيء
ومن قال سأنزل مثله ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت
والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا انفسكم اليوم تجزون عذاب الهون
بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون .

الانعام ٩٢ - ٩٣

٢ - وإذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا إنما انت مفتور
بيل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق لم يشب الذين

آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين . ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر
لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين . الله الذين
لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم . إنما يفترى الكذب
الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون .

النحل ١٠١ - ١٠٥

٣ - أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك
ويعم الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور .

الشورى ٢٤

٤ - أم يقولون افتراء قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا
هو اعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيلي وبينكم وهو
الغفور الرحيم .

الاحقاف ٨

٥ - تنزيل من رب العالمين . ولو تقول علينا بعض الاقاويل .
لاخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من احد عنه
حاجزين . وانه لتذكرة للمتقين . .

الحاقة ٤٣ - ٤٨

ففي اسلوب هذه الايات وامثالها الكثيرة ما يبعث في نفس كل
منصف حسن النية مهما كانت نحلته وميلته اقوى معاني اليقين بصدقها ،
ويزيل منها اي معنى من معاني الشك والارتياب في عمق ايمان الرسول
عليه السلام بصحتها ، وفي استغراقه فيها استغراقا تاما لا يمكن أن
ينبعث الا من اقوى الايمان واليقين والصدق الصميم .

الدعوة القرآنية

واحتوى دعوة الناس كافة إلى عبادة الله وحده ، وعدم الخضوع لأي قوة من قوى الكون غيره وتنزيهه عن كل نقص وشائبة ، وإلى جماع مكارم الاخلاق والفضائل ، واسباب سعادة الدارين والتصديق بنبوة انبياء الله والكتب المنزلة عليهم وتقرير اتحاد المتبع والوجهة بين ما دعا اليه ودعوا اليه من غير تفريق بينهم ، وتقرير كون هذه الدعوة التي احتواها هي الدين الحق الذي ارتضاه الله للناس جميعا منذ بعث الله رسوله محمدا عليه السلام بالهدى ودين الحق الذي فيه اظهاره على الدين كله ، يقيم البشر في ظله دعائم مجتمعاتهم ، ويسيرون في مختلف شؤونهم وفق تعاليمه ومبادئه وتلقيناته القائمة على اسس الحق والعدل والمساواة والاحسان والتعاون ، ورفع الاصر والاعلال ، وحل الطيبات ونجريم الخبائث والفواحش والمنكرات ، وتوطيد السلم العام بين الناس كافة لإخوانا متحابين ، لا يظلم بعضهم بعضاً ، ولا يبغي بعضهم على بعض ، ولا تنبذ فيه طائفة ، ولا تحرم فيه فئة ولا تتعالى فيه طبقة على طبقة ، مع إيجاب التناصر على الباغي حتى يفيء الى حكم الله والحق ، ومع الدعوة إلى التمرد على كل ضار والاقبال على كل صالح بقطع النظر عن قدمه وجده ، ومع تقرير كونه الله إنما يريد للناس اليسر ولا يريد بهم العسر ولم يجعل عليهم في الدين حرجاً ، وبأسلوب قضي له بالخلود من حيث البرهنة على صدق الدعوة وأهدافها بتوجيه الخطاب للعقول والقلوب ، وإدارته حسب أفهام الناس ومداركهم في هذا النطاق وورن أن تجعل المعجزة الخارقة دعامة أساسية في ذلك لان مثل هذه

للدعوة في غنى عن المعجزة لاثبات حقها وصدقها ، ثم من حيث سعة الاتفاق والشمول والميزات التي لم تسبق ولم يلحق بها في شتى مناحي التشريع والتلقين ، والتوجيه إلى افضل المثل واقوم الطرق مع الانساق التام وحقائق الامور وطبائع الاشياء والنمشي مع كل ظرف ومكان والاستجابة الى كل شأن من شؤون الناس وحاجاتهم الروحية والمادية والعامية والخاصة ، وحسب اختلافهم وتفاوتهم في العقل والسعة والثقافة والاتقي

واحتوى كذلك حلولاً للمشاكل المعقدة التي كانت تعجل الناس شيعة واحزاباً ، وفرقا واضداداً ، وإهابة بالفلاة والمفرطين للارعواء عن غلوهم وإفراطهم ، وارشاداً للعائرين والمترددن للانتهاء من حيرتهم وترددهم بأسلوب وجه فيه الخطاب الى العقول والقلوب معاً فيه كل القوة وكل النفوذ وكل الاقناع لمن لم تخبث طويته ، ويجمل إله هواه ، ويتعمد العناد والمكابرة والاستكبار من قصد وتصميم ، ثم احتوى تنظيمًا للناسبات بين مختلف فئات الناس وخاصة بين المستجيبين للدعوة - المسلمين - وغيرهم على اساس المساواة والحرية والحق والعدل والتزام حدود ذلك بالتقابل ، وكف الاذى وعدم الصد والتعطيل والدس ، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن إلا الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، ومقابلة العدوان بمثله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله (١)

(١) ١- اقرأ مثلاً الآيات التالية في صدر تقرير كون الدعوة في غنى عن الخوارق :
الانعام ٤- ٢٠ و ١٠٩- ١١٧ و نوح ١٥- ٣٦ والزمر ٧- ٣٢ والإسراء ٨٩- ١٠٠ والانبيا ٢- ١٠ والفرقان ١٠٨- ١٠٩ والعنكبوت ٤٥- ٥٢

أسلوب القرآن

وقد جاء في نظمه وسوره وآياته وقصصه وعظاته وتلقيحاته وامثاله وخطابه وحججه وجداله أسلوبا ولغيا متميزا في ذلك كله بمخصوصيات جعلته فذاً بالنسبة لأسلوب الكتب السأوية السابقة ، وبالنسبة لما هو مألوف من أساليب النظم والسبك والخطاب ، ذا طابع خاص خالده مما لا يصح أن يقاس عليه أنواع الكلام وأساليب الكتب والتأليف وبما يصح أن يعد أسلوبا خاصا فيقال ان اللغة العربية نظم ونثر وقرآن كما قاله كبير من أدباء العربية الحديثين بقطع النظر عن الباعث عنده على هذا القول ، وبما يصح أن يكون معيناً لا ينضب في فنون النظم والسبك ومهمو الطبقة .

٢- اقرأ مثلا الآيات التالية في صدأ أهداف الدعوة ومبادئها ودعوة النبيين وحل المشاكل وتنظيم المسائل : البقرة ٨٣ - ٩٠ و ١٠١ و ١٣٦ - ١٣٩ و ١٧٧ و ٢١٣ و ٢٦١ - ٢٨٦ وآل عمران ٣٤ - ٦٤ و ١٠٤ و ١١٠ و ١٨٩ - ١٩٩ و ١٥٠ - ١٦٦ والنساء ١٠ - ٣٨ و ٩٠ - ١٣٥ و ١٦٣ - ١٧٩ والائمة ١ - ٥ و ٤٤ - ٥٠ و ٥٩ - ٨٦ والانعام ١٤٧ - ١٥٣ والاعراف ٢٩ - ١٣٣ و ١٥٦ ممت ١٥٨ والنحل ٩٠ - ١٢٥ و ١٢٨ والاسراء ٢٢ - ٣٩ ومريم ١٦ - ٣٧ والمؤمنون ١ - ١٠ والفرقان ٦٣ - ٧٦ والنبكوت ٤٥ - ٤٩ والشورى ١٣ - ١٥ و ٣٦ - ٤٣ والمنحة ١ - ١٢ والحشر ٧ - ١٠ والمجرات ١ - ١٨ فان الكتاب يضيق من استيعابها لكثرتها .

القوآن والبيئة والسيرة النبوية

وعلى اعتباره أصدق مدونة دونت في عهد النبي ، بل وأرشد مدونة من عهد النبي احتفظت بصورتها الأصلية دون تحوير وتعديل فقد جاء بما احتواء من معانٍ وإساليب وإصطلاحات ومفردات وتشبيهات واستعارات وفنون خطاب ولغة دليلاً قوياً رائعاً على ما وصل إليه العرب الذين نزل بلسانهم في عهد نزوله من الدرجة الرفيعة في سلم الفصاحة خاصة وما كانوا عليه من حضارة مادية وعقلية وثقافية بصورة عامة خلافاً لما حلا لبعضهم أن يرويه ويقولوه على ما ذكرناه في كتابنا عصر النبي (١) وعلى ما لبثنا عليه في مناسبات كثيرة من التفسير .

واحتوى بالإضافة إلى ذلك أولاً أصدق الصور وأوثقها لبيئة النبي وعصره من النواحي الاقتصادية والمعيشية والجغرافية ، وما كان عليه أهلها من تقاليد وظروف وعادات دينية واجتماعية وأخلاقية وعقلية وثقافية واقتصادية اتصلت بظروف البعثة والسيرة النبوية وتطوراتها أوثق اتصال ، وثانياً أصدق الصور وأوثقها للسيرة النبوية الشريفة في عهديها المكّي والمدني . وسواء في ذلك ما كان روحاني المظهر من حيث الصلاة بالله ووجهه وتلقينه وتوجيهه ومدده وتأييده وتعليقه وتأديبه وتشبيته ، أو ما كان متصلاً بالناس من حيث مواقفهم من النبي عليه السلام ودعوته مسلمين وكتّابيين ومشرّكين ، ومن حيث تأثرهم بهذه السيرة وهم شهود العيان لحادث « نبوة النبي » في شخص محمد عليه

(١) صدر عام ١٣٦٦ = ١٩٤٧

السلام ، ثم من حيث موقف النبي من الناس ومن حيث تطور موقفهم منه وموقفه منهم بتطور الدعوة واتساع نطاقها .

فالقرآن من أجل ذلك كله كان وسيظل موضوع نظر وتدبر واستلham واستنباط لدى الناس على مختلف الملل والنحل والاجناس بطبيعة الحال .

ونريد ان نستدرك بأننا لا نعي أن القرآن قد احتوي جميع صور السيرة النبوية والبيئة النبوية وأحداثها ، أو ان ما احتواه منها قد جاء قصداً لما بالذات . فهناك من دون ريب أحداث وصور كثيرة من البيئة والسيرة النبوية لم ترد في القرآن ، كما ان ما جاء منها فيه إنما جاء في الحقيقة عرضاً وبسبيل الدعوة والموعظة والتذكير والتشريع والامر والنهي ، بما اقتضته الحكمة ليكون مصدر إلهام وإعلاء وتوجيه ، ومرجع تشريع وتلقين للمسلمين في جميع العصور ، ولكن الذي نغنيه أن في القرآن من هذه الصور شيئاً كثيراً منه ما جاء بصراحة ووضوح ومنه ما جاء إشارة وتلميحا .

- ٦ -

الوحي الرباني والوحي القرآني

وصلة النبي عليه السلام بالوحي الرباني التي كان للقرآن مظهرها الرئيسي وان كانت وظلت في حقيقة كنهها سرا على غيره ، لانها متصلة بسر النبوة إذ أن القرآن احتوى آيات عديدة قد تساعد بعض الشيء على فهم مظاهرها ومداهما بقدر ما تسمح به اللغة البشرية وتتسع له أفهام البشر الذين يتخاطبون بها .

منها ما جاء في سورة التکویر :

« إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع
ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على
الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فأن تذهبون ١٩ - ٢٦ »
حيث ترد الآيات كما هو واضح على نسبة الجنون وحالة الشيطان
بالنبي التي نسبها الكفار إليه حينما أخذ يخبر بمحادث رؤياه ملك الله
وخطابه له ، وسماعه منه أولى آيات القرآن . ولعل هذه الآيات أقدم
آيات واردة في الموضوع بهذه الصراحة والصمیمية النافذة .

ومن هنا ما جاء في سورة النجم :

« والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن
الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى .
وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى .
فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفطارونه على
ما يرى ١ - ١٢ »

وهي كسابقتها مضمونة وتؤكد بصديق تقرير النبي عن صلته بالله
أو ملك الله ، وتزول وحي الله عليه . والآيتان الأخيرتان تشيران إلى
أن رؤية النبي لملك الله كانت بعين بصيرته وفزاده ، وتتضمنان حجة
قوية على انسداد مجال المماراة في هذه الرؤية الخاصة التي ليست قدراً
مشتركاً بين الناس . ولعل ما يصح التمثيل به - والله ووجهه ونبيه
المثل الأعلى - على سبيل التقريب لمفهوم الآيات ما يخطر ببال الإنسان
من خواطر أو ما يراه الراي في المنام ، فهذه وتلك إحساسات أو رؤى

خاصة ليست قدراً مشتركاً بين الراي أو الهاجس وغيره حتى تصح فيها الماراة والتكذيب كما تصح في تقرير رواية مشهد من شاهد الكون كالشمس والقمر والشجر وغيرها . فإذا قال أحد إنّه يرى القمر ولم يكن بأوغا أو يرى شجراً ولم يكن هناك شجر فالماراة واردة وصحيحة . ومنها ما جاء في سورة الشعراء :

« وإنّه لتنزّل رب العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » ١٩٢ - ١٩٥ ، والسياق الذي جاء بعدها يلهم أنها هي الاخرى بسبيل الرد على نسبة الكفار صلة النبي الى الشيطان دون الملائكة والتوكيد بأن القرآن وحي وباني حيث جاء بعد قليل :

١ - وما تنزل به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون ، ٢١٠ - ٢١١

٢ - هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع واكثرهم كاذبون ٢٢٢ - ٢٢٤ وفي الآيات الاولى ١٩٢ - ١٩٥ إشارة الى كيفية صلة وحي الله القرآني بالنبي وهي نزوله به على قلبه بما ينسق مع تقرير آيات النجم الاخيرة . ومنها ما جاء في سورة النحل :

« وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى دينهم يتوكلون . »

« إنا سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون . وإذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا إنا أنت مقتول أكثوم لا يعلمون قل نوله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وعدى وبشرى للمسلمين ٩٨ - ١٠٢ وهي مثل سابقاتها تؤكد صلة النبي بالله ووجهه

القرآني وتنفي صلة الشيطان المزعومة من الكفار من جهة وتطوي على
كيفية مقاربة لما جاء في الآيات السابقة من جهة أخرى
ومنها ما جاء في سورة البقرة :

« قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا
لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ٩٧ »

وقد جاءت الآية في سياق التنديد باليهود ومواقفهم وإعلانهم العداء
لجبريل عليه السلام ، وانطوت على كيفية بمائة للكيفية التي احتوتها
آيات الشعراء مع صراحة اسم ملك الله الذي كان اسمه معروفا في معرض
الوحي الرباني عند اليهود والنصارى والذي ذكر اسمه في احد الاناجيل
في معرض بشارة مريم وحملها بالسيد المسيح عليه السلام .

وفي سورة الشورى آيات فيها بيان كيفيات اتصال الوحي الرباني
بالبشر وبالنبي عليه السلام :

« وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب او
يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء انه عليّ حكيم » وكذلك اوحينا
اليك روحا من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن
جعلناه نورا ندي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط
مستقيم ٥١ - ٥٢

ومع ان الوحي الرباني اصطلاحا هو ملك الله الذي يتصل بالنبي
فان الآية الثانية ظلم انه أريد به المعنى القوي وهو القذف بالقلب
والروح على ما فسره العلماء بما هو مشتق مع مضمون الآية الاولى التي
احتوت إشارة إلى طريقتين أخريين كما هو ظاهر .

ومنها آيات في سورة القيامة :

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرآنه
قانع قرآنه ثم ان علينا بيانه ١٦ ١٩ »

وآية في سورة طه مقاربة لهذا المعنى :

« فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يلقى اليك

وحيه وقل ربي زدني علما ١١١ »

وآيات القيامة خاصة احتوت نبيا صريحا للنبي عن حركة آية كانت
ليبدو منه حينما كان ينزل عليه الوحي القرآني وفيها صورة عظيمة المدى
لصلة الشعور النبوي بالوحي الرباني ، حيث كان النبي يردد ما كان
يوحى اليه بلسانه بما شاء لالقاء الوحي القرآني في آن نزوله عليه حرصا
منه على ان لا يفلت منه آية أو كلمة أو حرف أو معنى بما كان يوحى
اليه به .

وفي سورتي النحل وغافر آيتان وإن كانتا ليستا في صدد صلة النبي
محمد عليه السلام بالوحي خاصة وشخصية فانهما في صدد معنى وهدي صلة
الله ووحيه بمن يختاره لرسالته من عباده :

١ - ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن
أتقوا أنه لا إله إلا أنا فاعبدون والنحل .

٢ - يُلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذروه يوم
التلاق .. غافر ١٥ ، والآية الثانية قد تلهم أن الروح فيها لا تعني
جبريل الذي فسرت به الكلمة في أكثر ما ورد في صدد الوحي الرباني
وإنما قد تعني تجلياً ربانياً يتصل بالشخص المختار . أما الآية الاولى فانهما

تلم ان هذا التعلي يحدث بمرافقة الملائكة واطلاقا . وفي سورة فاطر
آية تزيد هذا الاطلاق والشمول :

« الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رؤسلا أولي
أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء
قدير » (١١) .

ولقد وردت في صدور حلة النبي يوحى الله أحاديث عديدة توضح أحيانا
بعض ما احتوته الآيات من صور ولتتق أحيانا بعضها . منها حديث
البخاري المشهور عن عائشة رضي الله عنها في كيفية بدء الوحي :

« أول ما بدأ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم .
فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حُبب إليه الخلاء .
وكان يخلو بغار حراء فيتعنت فيه - وهو التمدد - الليالي ذوات العدد
قبل أن يترجأ إلى أهله ويتردد إلى ذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتردد
لثلاث . حتى جاءه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك فقال اقرأ .
قال ما أنا بقارئ . قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني
فقال اقرأ . فقلت ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني
الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ . فقلت ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة
ثم قال اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك
الأكرم . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل
على خديجة وأخبرها الخبر . لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة كلا
والله ما يحزبك أبدا . إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب
المعذوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة
حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة .

وكان امرؤ قد تنصّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب
من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيعياً كبيراً قد مر
فقلت له خديجة يا ابن عم اسمع ابن أخيك . فقال له ورقة يا ابن اخي
ماذا ترى . فأخبره رسول الله خبر ما رآه . فقال له ورقة هذا الناموس
الذي انزل الله على سيدنا موسى وباليثني فيها جذع . ليتني اكون حياً إذ
يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ار يخرجني هم
قال نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي . وإن يدركني
يومك انصرك نصرأ مؤزراً .

ومنها حديث رواه الطبري عن ابن زبير :

قال رسول الله فجاءني وأنا قائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال
اقرأ فقلت ماذا اقرأ . ففتني حتى ظننت انه الموت ثم ارسلني فقال اقرأ
فقلت ماذا اقرأ . وما أقول ذلك إلا افتداء من ان يعود إلي بمثل ما صنع
في . قال اقرأ باسم ربك الذي خلق إلى قوله علم الانسان ما لم يعلم .
قال فقرأته ثم انتهى ثم انصرف عني وهبت من نومي وكأنا كئيب في
قلبي كتابا . قال ولم يكن من خلق الله ابغض علي من شاعر او
مجنون . كنت لا اطيق ان انظر اليها . قال قلت ان الابدع يعني نفسه
لشاعر او مجنون . لا تحدث بها عني فريش ابدأ . لاعدن الى جاتني من
الجلب فلا طرحن نفسي منه فلا قتلها فلاستريحن . قال فخرجت اريد
ذلك حتى اذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول يا محمد
أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فرفعت رأسي الى السماء فاذا جبريل
في صورة رجل صاف قدميه في افق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله
وأنا جبريل . قال فوقفت انظر اليه وشغلني ذلك مما اردت فما اتقدم

وما اتأخر رجعت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا انظر في ناحية
منها إلا رأيت كذا. فما زلت واقفا ما تقدم امامي ولا أرجع ورائي
حتى بعث خديجة رسولها في طلبي حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا
واقف في مكاني . ثم انصرف عني وانصرفت راجعا الى اهلي .
ومنها احاديث اخرى وردت في البخاري ايضا :

١ - عن عائشة رضي الله عنها ان الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل
النبي صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله احيانا
يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه
ما قال . وحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول . قالت
عائشة (رض) ولقد رأيت به ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد
فيفصم عنه وإن جبينه ليقتصد عرقا .

٢ - اخبر صفوان بن يعلى ان يعلى كان يقول ليقني أرى رسول الله
(صلعم) حين ينزل عليه . قال فيينا النبي كان بالجمرة وعليه ثوب قد
أظلم معه فيه اناسا من الصعابة إذ جاءه اعرابي عليه جبة مُتَمَتَّخ
بالطيب فقال يا رسول الله كيف ترى في رجل بعمره في جبهته بعد ما
تضع بالطيب فاشار عمر الى يعلى بيده أن تعال فجاء يعلى فادخل رأسه
فاذا بالنبي (صلعم) يحمر الوجه يغط كذلك ساعة ثم مُرِّي عنه فقال أين
الذي يسألني عن العمرة آنفاً . فالتمس الرجل فأتني به فقال اما الطيب
الذي بك فاغسله ثلاث مرات واما الجبة فانزعها ثم اصنع في حمرتك كما
فصنع في حبيك .

٣ - اخبر زيد بن ثابت ان رسول الله (صلعم) املى عليه ولا يستوي

القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله، (فجاءه ابن أم مكتوم وهو يعلها قال يا رسول الله والله لو استطعت الجهاد لجاهدت وكانت أسمى فأنزل الله على رسوله وفخذه على فخذي فقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي ثم سري عنه فأنزل الله (غير أولي الضرر) .

٤ - عن عائشة قالت قال رسول الله (صلعم) يا عائشة هذا جبريل بقرئك السلام قالت وعليه السلام ورحمة الله قالت وهو يرى ما لا يرى ففي بعض النصوص القرآنية صراحة بتزول وحي الله بالقرآن على قلب النبي ، وفي بعضها ما يمكن أن يلهم أن الوحي تجل روحاني رباني ينزل على من يختاره الله من عباده لرسالته تارة متوافقا مع الملائكة وبمخصص مع جبريل وتارة بدون ذلك ، وفي بعضها إشارة إلى أن النبي كان يرى الملك الرباني بعين بصيرته وكان يسمع كلامه ويتلقى عنه أيضا . والأحاديث الواردة تفيد تارة نزول الوحي على قلب النبي ، وتارة رؤية النبي للملك الله وسماعه كلامه وتلقيه عنه كذلك .

وهذه وثائق وآثار عديدة أخرى تفيد أن الوحي كان ينزل على النبي وهو بين الناس أو هو في بيته فلا يشعر به غيره ، وكل ما يكون من مظهره أن يأخذه الجهد ويطرأ عليه شيء من الانفعال الروحاني ويتصبب عرقا ثم ينقسم عنه وقد وعى ما نزل عليه فيبادر إلى إبلاغه وإملائه في مجلسه الذي يكون فيه ، ويستأنف ما كان فيه من عمل أو حديث ، وتفيد كذلك أن النبي كان يشعر بأن الوحي الرباني الذي نزل عليه بمختلف الطرق هو شيء منفصل عن ذاته ، ولا تصح الماراة في ذلك لأنه الخبر الصادق بأمر لا يستطيع غيره أن يشعر به .

هذا ولقد أثر عن النبي النهي عن تدوين شيء غير القرآن عنه كما

تواترت الاخبار بأنه كان يأمر أحد كتابه بتدوين ما كان ينزل عليه من الوحي القرآني فوراً . فهذا وذاك متصلان بشعوره الخاص بالفرق بين ما كان ينزل عليه من وحي قرآني وبين كلامي العادي أو ما يجوز في نفسه من أفكار وخواطر أو ما يلهمه من الله إلهاما أو يوحى إليه إلهاماً من غير القرآن وبالحرص علي عدم الخلط بينها .

وبما يتصل بهذا الالهامات أو الإلهامات الربانية للنبي في صدور أعمال وتشريعات عديدة . ففزة بدر مثلاً أقدم عليها النبي نتيجة لهذه الالهامات ، وسورة الانفال إنما نزلت بعد وقوعها .

وفي هذه السورة آيات تحتوي ، اشارات الى وقوع تلك الالهامات قبل الخروج احدها في صدق القافلة وهي (وإذ يمدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم) واثنان منها في صدق المعركة وهما (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله الا بشري ولنطمئن به قلوبكم . . . ومع ذلك فإن النبي لم يبلغ هذه الالهامات على أنها وحي قرآني قبل الخروج أو قبل المعركة ، ولكنه صار سير المسلمين إلى الهدف بها ، ولم يبلغ الآيات نصاً على أنها كذلك . الا بعد الواقعة وحينما أوجيت اليه مع فصول أخرى من سورة الانفال على أنها كذلك . ومن هذا رحلة الحديدية وما كان من النبي فيها ورحلة خيبر وتشريع الفيم والحس والزكاة وحللة الجمعة وكيفيات وأوقات الصلوات الحس والوضوء والتنكيل ببني النضير وبني قريظة وغير وغيره مما يصعب حصره لكثرة حيث كان ذلك بالإلهام والالهام الرباني فلم يبلغ النبي ذلك كوحي قرآني وإنما صار وسير المسلمين عليه بقوة ولعله بكفه للمسلمين على أنه إلهام أو إلهام مطلق ولم يبلغ ما جاء

في القرآن في هذا الشأن بعد السير والتسيير والعمل إلا حينما أوحى إليه على أنه وحي قرآني .

وبما يزيد هذا وضوحاً ما يروى عن النبي من الأحاديث المعروفة بالأحاديث القدسية والتي تحتوي كلاماً ربانياً .

فليس من أحد يمكن أن يفهم منطقياً بين هذه الأحاديث وبين ما يوحى إلى النبي قرآناً .

ومحتوياتها مما يتصل بمحتويات القرآن وعظماً أو اندازاً أو تبشيراً أو اخباراً أو قصصاً .

ومع ذلك فقد فرق بينها وبين القرآن ولم يأمر النبي بتدوينها قرآناً .
وبما لا ريب فيه أن هذا التفريق يتصل بالصفة القرآنية التي كان يدركها النبي لما يوحى إليه به قرآناً .

ولعل في آيات سورة يونس هذه :

(وإذا تلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراككم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ١٥ - ١٦) .

ولبلا قويا على ما نقرره من ذلك الشعور كما أن فيها برهانا على أن النبي ما كان يفكر في أي شيء من دعوة الناس والاستعداد لها ، وكل ما كان من أمره أنه كان مستغرقاً في الله وآلائه وعظمته حتى صار مظهر رسالة الله والله اعلم حيث يجعل رسالته فأمر بها فصدع بأمره .
وبما يحذر التنبيه عليه :

اولا - إن في القرآن آيات عديدة تبدو أنها جاءت على لسان النبي أو على لسان الملائكة مباشرة أي غير مسبقة بأمر القول ولا معطوفة على آيات فيها ذلك . مثل :

١ - الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله انني لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير . هود ١-٤

٢ - وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيباً . مريم ٦٤

٣ - وما منا إلا له مقام معلوم . وإذا لنحن الصافون . وإذا لنحن المسبوحون . . الصافات ١٦٤ - ١٦٦

٤ - ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين . . الذاريات ٥٠-٥١

وثانياً - إن فيه آيات أخرى احتوت تنبيهاً على حركة شخصية وفورية من النبي عليه السلام وليست متصلة بما سبقها أو بما لحقها من الآيات سياقاً وموضوعاً وهي آيات سورة طه (١١١) والقيامة (١٦-١٩) التي نقلناها قبل قليل .

ومع ان المفسرين قالوا في حدد الآيات المذكورة في الفقرة الاولى وأمثالها إن هناك تقديراً وهو ان الله أمر النبي بأن يقول ما قال ، وان الله بلغ النبي ما قاله الملائكة ، وأن الآيات على هذا التقدير هي من الوحي الرباني القرآني فان في هذه الآيات وتلك ما يسبغ على المعنى الذي

نقرّده وضوحاً على ما هو المتبادر حيث بلغت قرآنه — مع ما جاءت عليه من صيغة واسلوب .

وعلى كل حال فالنصوص والآثار تسوغ القول ان صلة الوحي الرباني بالنبي هي صلة روحية خاصة به ، كان يشعر بها بالقوة التي اختصه الله بها دون ان يكون بإمكان غيره إدراكها ، غير ان اثرها قائم قياماً حاسماً لا سبيل الى الماراة فيه ، وان من الممكن ان يدرك بعض كيفيات — صورها من الآيات والاحاديث والابحاث التي اوردناها آنفاً .

ودرجانية صلة النبي عليه السلام بالوحي الرباني وخصوصية ذلك بادراك النبي عليه السلام قد تبدوان واضحتين ايضاً بما كان من تحدي الكفار للنبي باستنزال الملائكة بما حكمته آيات مكية عديدة مثل هذه :

١ - وقالوا لولا انزل عليه ملك ولو انزلنا ملكاً لفضي الامر ثم لا

الانعام ٨

ينظرون ..

٢ - فلعلك تارك بعض ما يوحي اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا انزل عليه كنز أو جاء معه ملك لآذنت نذير والله على كل شيء وكيل -

هود ١٢

٣ - وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين . ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا اذا منظرين ..

الحجر ٦ ٨

٤ - وقالوا مال هذا الرسول يا كل الطعام ويمشي في الأسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيراً .

الفرقان ٧

وجل هذه الآيات نزل في سياق الحجاج في صفة اتصال النبي بالوحي الرباني . فلو شئت حكمة الله ان تكون صلة النبي هذه مادية يمكن ان

يبدو كما غير النبي لكان الملك تراءى للكفار أو غيرهم في معرض الافعام والالزام أو التأييد .

هذا ، وننبه على ان علماء القرآن ومفسريه من اصحاب النبي وتابعيه ومن بعدهم أقوالا كثيرة في كيفية نزول القرآن ووجه من الناحية الشكلية والعملية مثل كيفية تلقي الملك القرآن عن الله ، ومثل نقله القرآن عن اللوح المحفوظ ، ومثل انزال القرآن جملة واحدة الى السماء الدنيا وانزاله منها منجما ، ومثل كيفية تلقي النبي القرآن عن الملك وقوله روحياً ليكون متناسباً مع الروح الملكية وقادراً على التلقي من الملك الخ لم نر ضرورة الى التطرق اليها في هذا المقام ، لأنها يبدو عليها آثار التكلف والتجوز التي تؤدي الى عدم الاطمئنان ، ولا سيما ان فيها تطرفاً لا يشفي غليلاً ولا طائلاً من ورائه الى السر الذي ظل على الرغم من ذلك كله محبوباً عن سائر الناس . على اننا سنعود الى طرق هذا الموضوع وما يتصل به في مقام اكثر مناسبة من هذا المقام .

شهود العيان لاعلام النبوة

واذا كانت صلة الوحي الرباني بالنبي على الوجه المشروح حقيقة لا يصح إيمان المسلم إلا بالايان بها فإن اي شخص منصف حسن النية مها كانت عقيدته لا يسعه إذا ما تمنع بالآيات والاحاديث ، إلا التصديق بصدق الشعور النبوي بها وبكون النبي إنما يصدر عن أمر راهن مها ظل مرأ ربابيا ونبويا فإنه لا يمكن الماراة فيه . على ان في شهود العيان دعامه حقيقية حاسمة في ما نعتقد أيضا . فقد شهد حادث نبوة النبي محمد (صلم) آلاف الناس منهم العرب ومنهم غير العرب ، ومنهم المشركون ومنهم الوثنيون ومنهم الكتابيون ، ومنهم المستقرون من هؤلاء في

مكة والمدينة ومنهم الوافدون خصيصاً على هاتين المدينتين للاستعلام والاطلاع على النبأ العظيم الذي بلغهم . ولقد آمن بنبوة النبي في بسوء الامر مئات منهم في مكة طوعا وشوقا ممن طابت انفسهم وحسنت نياتهم واثار الحق قلوبهم في وسط المعارضة الشديدة التي تولى كبرها زعماء أشداء ألداء لاسباب عديدة ذكرها القرآن ، وكان بين المؤمنين تلك الطبقة النيرة القوية في عقولها وشخصياتها واروماتها والتي لمع أفرادها لمعانا باهراً فيه الدلالة على هذه الزايا مثل ابي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وسعيد وطلحة والزبير وابي عبيدة وغيرهم وغيرهم رضوان الله عليهم ، ثم كان بينهم كثير من اهل الكتاب بسل وعلماهم مستقرين ووافدين ممن طابت طوياتهم وحسنت نياتهم وتجردوا من الهوى والغرض وأنقروا من المكابرة والعناد ولم يبالوا بما كان من قوة الزعماء الاعداء وتحوشهم واذاهم على ما احتوته الآيات القرآنية الملكية كما ترى في هذه الامثلة :

١ - الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي ازل معه اولئك هم المفلحون .
الاعراف ١٥٧

٢ - ألا إن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون .
يونس ٦٢ - ٦٣

٣ - والذين أتيناهم الكتاب يفرحون بما ازل اليك الرعد ٣٦
٤ - للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما

في الارض جميعا ومثله معه لاقتدوا به اولئك لهم سوء الحساب ومأواهم
جهنم وبئس المهاد . أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى
إنما يتذكر أولو الالباب

الرعد ١٨ - ١٩

٥ - والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبؤهم في الدنيا حسنة
ولاجر الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون
النحل ٤١ - ٤٢

٦ - قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا
يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد
ربنا لمفعولا ويخرون للاذقان يسيرون خشوعاً . الكهف ١٠٧ - ١٠٩
٧ - الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم
قالوا آمنا به انه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون
اجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون .
وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام
عليكم لا نبغي الجاهلين (١)

القصص ٥٢ - ٥٥

ثم آمن بها الرعيل الاول من اهل يثرب وكان من شأنهم ما كان
من نصر وتأيد وتفان في دين الله ونبيه وامن منهم فريق من علماء
اليهود وسط معارضة شديدة قادها بعض زعماء العرب مع زعماء اليهود
لاسباب عديدة وصفها القرآن وصفا مسهباً وهي متصلة ايضاً بنفس اسباب
معارضة زعماء مكة وآمن معهم وفود من علماء النصارى وفدوا على

١ هناك آيات كثيرة أخرى وصف رائع لتقوى وورع وعبادة وخشية المؤمنين
السابقين تدل على عمق الايمان والاستغراق فيمضي الهدى المكّي مثل الآيات التالية الرعد
٢٠ - ٢٢ والفرقان ٦٣ - ٧٦ والمؤمنون ١ - ٨ والذاريات ١٥ - ١٩ والمارج

٢٢ - ٣٥ الانسان ٥ - ٢٢

النبي في المدينة مستظلمين مستعلمين ايضا على ما احتوته الآيات القرآنية
المدينة كما ترى في الامثلة التالية :

١- ليسوا سواء من اهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل
وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون
عن المنكر ويسارعون في الخيرات واولئك من الصالحين ..

آل عمران ١١٣ - ١١٤

٢- وإن من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل
اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا واولئك لهم اجرهم عند
ربهم إن الله مريب الحساب

آل عمران ١٩٩

٣- لكن الواصفون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك
وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله
واليوم الآخر واولئك سنؤتيهم اجرا عظيما ..

النساء ١٦٢

٤- لتبعدن أشد الناس عداوة الذين آمنوا باليهود والذين آمنوا
ولتبعدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم
قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول
ترى اعينهم نقيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا
فاكتبنا مع الشاهدين ..

المائدة ٨٢-٨٣

٥- والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان
رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين
فيها ابدآ ذلك الفوز العظيم (١) ..

التوبة ١٠٠

(١) هناك آيات كثيرة اخرى تصف هذه ايمان المؤمنين الصادقين في الهدى المدلى
واستراقتهم في نصرة الله ودينه ودينه مثل البقرة ١-٥ و١٥٥-٢٠٧ وال عمران ١٥
١٧ و١٤٣ و١٣٦ و١٩٠-١٩٥ والمائدة ٤٥-٥٦ والتوبة ٧١ والاحزاب ٢٣ و٣٥
والفتح ٢٩ والحديد ١٨-١٩ والمزمل ٢٠ وهي مكة والخثر ٨-١٠

فالرعيّل الاول من المؤمنين العرب المشركين سابقا في مكة والمدينة الذين آمنوا رغبة وطوعاً واستهانوا بكل شيء في سبيل إيمانهم ، والكتباييون في مكة الذين آمنوا رغبة وطوعاً مع أنهم كانوا أكثر تعرضاً للاذى - وهذا وذاك في ظروف ضعف النبي المادي - وعلماء اليهود الذين آمنوا رغبة وطوعاً واستهانوا بكل شيء في سبيل إيمانهم ولم يبالوا بعداءة ومهم ، وعلماء النصارى الذين جاؤوا مستطلعين فآمنوا كذلك بالصفة الرائعة التي ذكرتها آيات المائدة ٨١-٨٦ ما كانوا ليؤمنوا لو لم يشهدوا من اعلام النبوة وصدق الدعوة النبوية وحلة النبي بالله ووحية ما لا يسع الطيب النفس المنجرد عن الغرض الا ذلك.

- ٧ -

اثر القرآن الروحي وبلاغته النظامية

وهنا محل لاستطراء وتنبيه ، فقد ذهب بعض الباحثين (١) استنتاجاً مما ذكره علماء المسلمون عن بلاغة اللغة القرآنية الى ان هذه البلاغة كانت هي المؤثر الاول في ايمان الذين آمنوا في نجاح الدعوة النبوية . ومنع كون اللغة القرآنية في الذروة العليا من البلاغة ليس محل شك فان في هذا الحصر شيئاً من الخطأ في ما نعتقد ، إذ يجب أن يضاف إلى ذلك روحانية القرآن وقوة نفوذه ، بل ان هذه وتلك يجب ان تكونا مقدمتين .

والحق إنها كانتا المؤثرتين في الدرجة الاولى بالإضافة إلى روحانية الدعوة النبوية وصدق لهجتها وشواهد اعلامها . ويبدو هذا واضحاً في

(١) فليب حتى واخرون من المشرقين

كون فريق للرعيلى الاول من المؤمنين فى مكة قد آمن فى وقت مبكر
جداً ، وقبل أن يكون نزل من القرآن جملة كبيرة ، فلا يصح أن يشك
فى أن إيمانهم إنما كان بما نفذ الى اعماقهم من روحانية الدعوة النبوية وصدق
لهجتها وبما شاهدوه من اعلام النبوة فى الدرجة الاولى

هذا من جهة ومن جهة اخرى فان الوصف الذى به وصف أثر القرآن فى
الذين أوتوا العلم فى آيات سورتي الاسراء ١٠٧ - ١٠٩ والقصص ٥٢
٥٣ المكتبتين لا يصح أن يكون وصف أثر فصاحة القرآن وبلاغته اللغوية فقط
بل ولا يصح أن يشك فى أنه وصف أثر روحانية القرآن وقوة
نفوذه بالاضافة الى روحانية الدعوة النبوية وشراعد اعلامه الصادقة فى
الدرجة الاولى ولا سيما إن المذكورين فى الآيات كتابيون ويحتمل أن
لا يكونوا عرباً او يمن يجيدون العربية ويتذوقون بلاغتها بقوة وإلى
أمثالهم على الأرجح نسب للكفار تعلم النسي كما جاء فى آية النحل ، ولقد
نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدن اليه اعجمي وهذا
لسان عربي مبين ١٠٣ حيث تقرر صراحة عجمة لسان بعض اهل العلم
والكتابيين الذين كانوا فى مكة . وهذا الذى نقوله فى صد المؤمنين
السابقين من العرب والكتابيين فى مكة ينسحب على من آمن بعدم فى
مكة ثم فى المدينة من الفريقين ايضا . والآيات التى نقلناها قبل قليل
وخاصة آيات المائدة بالنسبة لعلماء النصارى تحتوى برهاناً حاسماً فى هذا
الشان

وهناك ملاحظات مهمة فى هذا الصدد تدغم ما نحن بسبيل تقريره ،
وهي ان الذين آمنوا فى العهد المكى كانوا بضع مئات فى حين بقيت

الأكثوية العظمى من أهل مكة ثم سائر أهل المدن والبادي العربية
 حصانة عن الدعوة النبوية بل ومناوئة لها طيلة هذا العهد ، والنبي يتلو
 القرآن على كل من يلقاه من هؤلاء وأولئك في المواسم وغيرها ، وظل
 الأمر كذلك مع أن ثلثي القرآن قد نزل في هذا العهد وأن الأسلوب
 القرآني المكي هو أقوى وأنفذ من حيث النظم والانسداد والتبشير
 والتغيب والترهيب والحجاج والأفهام والالزام ، وليس ما يصح قوله
 في حال إن الذين آمنوا هم فقط الذين تذرّفوا بلاغة القرآن وتأثروا بها
 فقالب الزعماء والنبهاء والشعراء وذوي الشأن كانوا في صفوف الكفار
 ولقد ذكرت روايات السيرة (١) ما كان للقرآن من تأثير في بعض
 زعماء الكفار ونبهاهم في مكة ، وما كان منهم من اعتراف بسوء طبقتهم
 وبلاغته وحلاوته وقوة نفوذه ، ومع ذلك فقد ظلوا مناوئين للدعوة إلى
 النهاية استكباراً وعناداً وأنفة وعصبية وخوفاً على مراكزهم وزعامتهم
 إلى الفتح المكي أو بعبارة أخرى إلى أن هلك بعضهم وضمف شأن من
 بقي منهم وأمكن الله منهم

- ٨ -

أثر الدعوة القرآنية في نجاح الفتوحات الإسلامية

والمناسبة تجرنا إلى استطراد وتنبه آخر مهم كانت موضوعه أمس
 بالتاريخ فإن له مساهمة أيضاً بالبحث الذي استطرادنا إليه . فقد حلال بعض
 المستشرقين والباحثين (٢) أن يقولوا إن مساهمة من انتصار الجيوش
 الإسلامية في بلاد الشام ومصر والعراق إنما كان انتصاراً للعروبة لا

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ و ٢٦٦ و ٢٧١ - ٢٨٠ و ٢٨٦

(٢) بلب حن وكاتان

* المحمدية - الدعوة الاسلامية - أو إن العامل الاقتصادي في بلاد
 العرب والعامل السياسي في امبراطوريتي الفرس والرومان هما أبرز عوامله
 وان الذين أسلموا من أهل هذه البلاد إنما أسلم أكثرهم للتخلص من الجزية
 أو نتيجة للاضطهاد. فهذه الدعوى تدعونا هنا الى التنبيه فقط - لان المقام
 لا يتسع للاسهاب - على أن القائلين قد أغفلوا أو تجاهلوا عن قصد أو
 غير قصد أثر الدعوة المحمدية القرآنية العظيم في يقظة العرب الجديدة
 ونجمهم وموجتهم الكبرى في عهد الخلفاء الراشدين ، وكون قواد
 الحملات الاسلامية الاولى بنوع خاص وزعمائها ومشاهيرها كانوا من أصحاب
 النبي الذين رسخت فيهم مبادئ تلك الدعوة ، وكون هذه الحملات
 امتداداً لحركات التنكيل والتأديب الدفاعية التي بدأت في عهد النبي في
 نطاق تلك المبادئ ، وكون الشعار الذي حمله هؤلاء هو الدعوة الى
 الاسلام بالموعظة والحكمة والجزية على من أبى من الاعداء وخضع
 للسلطان الاسلامي حتى لا يُصدّ عن الدعوة ولا يُفتن المستجيبون اليها
 ويكون الدين كله لله ، والقتال لمن ظن على عدائه وصده إلى ان يتحقق
 ذلك القصد ، وما احتواه التاريخ الاسلامي من الصحف النورانية الواجبة
 عن التصرف الذي تصرفه هؤلاء القواد والزعماء الذين زودهم الخلفاء
 الراشدون بالاضافة الى ما رسخ فيهم من مبادئ القرآن من الوصايا
 بالرحمة والبر والراقة والوفاء ورعاية الذمة وترك المسالمين والهاديين
 وغير المحاربين والعجوز والنساء والرهبان وشأنهم بما هو مستمد كذلك
 من تلك المبادئ ومن السيرة النبوية الشريفة ، وكون الدين الاسلامي
 لم يكن غريباً أو منزعجاً في الاصل والجوهر عن الاديان السابوية التي كانت
 سائدة في هذه البلاد. فلكل من هذه الامور أثر قوي في ما تم للعرب المسلمين

من نصر وفتح ، وما تم للدين الاسلامي من إنتشار واقبال في أثناء الحملات الأولى وما تبعها من ظروف . واذا كان التاريخ يذكر بعض ثورات قامت في بعض الجهات ، وبعض نكسات حدثت أو بعض أحداث توفقت فيها تلك المبادئ فإن ذلك لا يبرر القول الذي قيل ، وما أريد توجيهه من غمز أو إستهانة بآثار الدعوة النبوية القرآنية . واذا كان قصد التخلّص من جزية خفيفة هي في الوقت ذاته بدل ضريبة الدم التي كان يؤدّيها المسلمون وبديل ما كان يبذله هؤلاء من حماية وذمة للدافعين سببا في اعتناق الاسلام فإنه يحمل نفسه معنى كبيراً ، وهو كون الدين الذي كان المرتدون عنه يدينون به لم يكن من الرسوخ والقوة في النفوس بحيث يكون أغلى من أن يباع بدينار أو دينارين أو أربعة دنانير في السنة يؤدّيها الرجل البالغ القادر حسب مقدورته ؛ لان الجزية لم تكن تؤخذ من النساء والأطفال والعجز . على أن من الحقائق التي لا تتحمل عاراً أن أكثر الذين اعتنقوا الاسلام من هؤلاء قد اعتنقوه عن قناعة ورغبة لانهم رأوه متطابقاً مع ما هو عليه دينهم من أسس ، ومع كثير من تقديرات كتبهم المقدسة ، ووجدوا فيه حلولاً لعقد عقائدية كانت تثير بينهم الحيرة والفتن الموهجاء وتجبر عليهم الاضطهادات . ولعل انحدار اكثرهم من الأرومات العربية الجنس التي سماها المستشرقون الحديثون بالساميين ، وانتساب كثير منهم للعروبة التي تركزت فيها هذه الأرومات قد ساعد على الانطباق والاندماج . على ان بقاء شراذم من النصارى واليهود والساميين والصبّة بعد الحملات الاسلامية الأولى ثم خلال ثلاثة عشر قرناً كان للسلطان فيها والكثرة للمسلمين ، بل كان هذا السلطان في بعضها قويا ليس في الميدان من يدانيه قوة وشمولاً أو يتعداه لدليل خالد رافع على ان الطوائف غير المسلمة لم

ترغم على الاسلام إجمالا ، وخاصة في عهد الحملات الاولى والظروف القربية منها ، وإن الذين اعتنقوه إنما اعتنقوه بطوعهم وقناعتهم ، وإن من بقي على دينه منهم قد تمتع بحريته وأنه في ظل هذا السلطان وفي ظل مبادئ القرآن الذي قام عليه بما لم يكن مثله في أي حركة دينية قبله وبعده عاضدتها القوة والغلب ، بل وما جاءت الوقائع والنصوص مؤيدة لعكسه على خط مستقيم . ومن الغريب أن يتجاهل المستشرقون المفروضون والمبشرون ذلك ويحاولوا أن يجعلوا الشذوذ في المسلمين وتاريخهم . وإنه لمن الحق والانصاف أن يلاحظ استناداً الى ذلك الدليل الحالد الرابع أنه قد يكون لما يمكن أن يكون وقع من نكسات أو تصرفات قاسية أسباب سياسية أو إدارية أو محلية كتمرد أو دس أو استفزاز أو إستجابة لدعاة سوء وشر أو لتحريكات خارجية مما سجل التاريخ بعض شواهد في سياق النكسات والتصرفات وما كان سبباً لابقاع مثلها في بعض طوائف المسلمين أنفسهم ايضاً (١)

ومن الغريب الباعث على الدهشة ايضاً ما يحاول لمبشري النصارى بل ولكتاب عرب (٢) منهم يودون أن يظهروا غير متعصبين تعصباً أهمي وغير مفرضين من تكرار القول بقوة تأثير النصارى في المسلمين وأثر النصرانية كدين في مدينة وحضارة بلاد الشام والعراق ومصر حتى بعد اعتناقهم الاسلام وتسلسله فيهم أجيالا عديدة ، وضمنهم مع ذلك أن يجعلوا للاسلام والمسلمين والمبادئ القرآنية أثراً ما في الحضارة التي حارت

(١) في كتاب تاريخ التبشير والدعوة الاسلامية لارنولد تورنر وشواهد كثيرة على ما جاء في هذا البحث ، ومثل هذه الشواهد مشوة في كتب التاريخ الاسلامي ايضاً
(٢) قبل حتي والاباء اليسوعيون في كتبهم العربية والافرنسية مثلا .

عليها هذه البلاد ، حتى بعد ان مضى على السلطان الاسلامي منها اجيال عديدة ، ثم من الاصرار على وصف رجل أو امرأة بأنه نصراني قديم أو انه يستمد مظهره ودوره وروحه وسلوكه ومدنيته من نصرانيته ولو انه صار مسلما راسخا وقضى في إسلامه أضعاف السنين التي قضاها نصرانيا وغدا كيانه قائما بالاسلام ، حتى ولو كان عربيا أعربيا من بني كلب أو تغلب ولا ندري لماذا لا يُعقل ان ينطبع هؤلاء بالطابع الاسلامي ويتأثروا به وانهم لا بد من ان يكونوا منطبعين درما بالطابع النصراني وطابعين به الاسلام ؛ ثم لا ندري لماذا يحاول اولئك الكتاب العرب خاصة تهوين هذا التراث العظيم والبناء الباذخ ، وهم يعرفون انهم إنما يحاولون عبثا لا جدوى فيه .

- ٩ -

خطور سيرة النبي والتزليل القرآني

والمناسبة تسمح كذلك بتنبية واستطراء آخر . فقد حلا المستشرقين والمبشرين ان يستعملوا تعبيراً عجيباً في معرض الاشارة الى تطور السيرة النبوية في العهد المدني فيقولون ان النبي في هذا العهد انقلب من نبي الى حاكم أو صار سلطاناً أكثر منه نبياً أو ما في معناه ، وقد اتخذ بعضهم بعض ما روت الروايات أو ما تبادر لهم انهم فهموه من عباراتها أو من عبارات القرآن في صدد بعض احداث السيرة النبوية الشخصية والعامة في العهد المذكور وسيلة لاطعن والغمز ، والقول ان النبي قد نقض المبادئ التي بشر بها ودعا اليها في مكة وخالفها .

اما ان السيرة النبوية في العهد المدني قد تطورت فهذا ما لا شك فيه وفي القرآن شواهد حاسمة عليه ؛ غير ان هذا لا يقتضي ان يكون النبي

قد انقلب إلى حاكم أو صار سلطاناً أكثر منه نبياً . لأن في القول تحكما
 في تعيين مدى « النبي » ومهمته لا يستند إلى دليل واضح ، كما أن القول
 إن النبي قد نقض المبادئ التي بشر بها في مكة وخالفها خطأ فاحش
 لا يستند إلى حق أو شبهة من حق . والقرآن هو الحكم الحاسم والقول
 الفاصل في هذا وذلك ، لأنه من جهة احتوى مبادئ وقواعد من شأنها
 تعيين مدى مهمة « النبي » ، ومن جهة احتوى صوراً للسيرة النبوية في
 مختلف ادوارها وعهدها . فعدم النفوذ إلى مدى الآيات والفصول القرآنية
 أو عدم الإحاطة بها لا يمكن أن يغير حقيقة ما احتواه من هذا وذلك
 بطبيعة الحال ، كما أنه إذا كان هناك روايات متعارضة مع هذه المحتويات
 فإنها تكون مدسوسة أو محرفة من دون ريب . والمهارة في ذلك مكبرة
 تنشأ عن الغرض وسوء النية والقصد حتماً .

ولقد عين القرآن المكي مهمة النبي الرسول وهي الدعوة إلى دين
 الله الحق وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وأمرهم بالمعروف
 ونهيهم عن المنكر وأحلال الطيبات وتحريم الحباث ، ورفع التكالييف
 الشديدة السابقة التي تقيد البشر وتغل أيديهم ونشاطهم ، وتبشير الذين
 يتبعونه ويطيعونه ويستجيبون إلى دعوته بسعادة الدنيا والآخرة ، وإنذار
 الضالين المتعرفين بشقاء الدنيا والآخرة ، وبيان الهدى من الضلال والحق
 من الباطل والحلال من الحرام ، ومحاربة الشرك بكل معانيه ، والا
 بمختلف المكارم الأخلاقية الشخصية والاجتماعية والإنسانية ، والا
 بمختلف الآثام والمنكرات الشخصية والاجتماعية والإنسانية .
 الحرية والمساواة والتسامح والتعاون والتواد والاخوة
 والإحسان ودفع البغي والعدوان ومقابلتها بالمثل

الناس حقوق بعضهم ، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة
إلا مع الظالمين ، وعلى أساس صلة النبي والقرآن بالوحي ، ثم على أساس
طبيعة النبي البشرية ، والاتساق مع العقل والمنطق والمصلحة وطبائع
الأمور وحقائق الأشياء . وقد وعده الله هو والمسلمين معه بالنصر وأمرهم
بالصبر إلى أن يأتي أمر الله فينصر رسوله والذين آمنوا وكان حقا عليه نصر
المؤمنين بما هو مشهور في مختلف الفصول والصور المكية .

فاذا انعم المرء النظر في القرآن المدني واخذه كجموعة يتم بعضها
بعضا فانه لا يجد مندوحة عن التسليم بأنه قد ظل في حدود ما رسمه القرآن
المكي لمهمة النبي والدعوة النبوية ومبادئها وأسسها وتوجيهاتها ، ويرى
للائل ذلك في صريح الآيات ومراميتها وتلقيقاتها وروحها ، فتواة كل ما
ورد فيه من تشريع وأوامر ونواه وتلقين وتوجيه اوجله موجودة في
القرآن المكي ، وليس بما يصح في عقل عاقل وانصاف منصف ان يكون
النبي الذي بلغ القرآن والذي قام الايمان بسبوته وتنزيله وطاعته والفناء
فيه من قبل المؤمنين على ما شاهدوه من اعلام نبوته وقوة روحانيته
وصدقه واستغراقه في مهمته العظمى وتحلقه بأخلاق القرآن قد خالف في
مختلف ادوار سيرته بأقواله او أفعاله او اوامره او نواهيه او توجيهاته
النصوص والتلقيقات والمبادئ القرآنية .

نقول هذا ونحن نعرف ان القائلين يذكرون فيما يذكرون على
سبيل التدليل ما كان من تبدل موقف القرآن والنبي من اليهود . قولا
وفعلا ، ومن الدعوة إلى قتال المشركين كافة ومطلقا وعدم قبول غير
الاسلام منهم ، ومن الامر بقتال الكتابيين عامة حتى يسلموا او يعطوا
الجزية ، وما وهموه من مناقضة بين هذا وبين الحرية الدينية التي قررها

سبيل
التدليل
ما كان
من تبدل
موقف
القرآن
والنبي
من اليهود
قولا
وفعلا
ومن
الدعوة
إلى قتال
المشركين
كافة
ومطلقا
وعدم
قبول
غير
الاسلام
منهم
ومن
الامر
بقتال
الكتابيين
عامة
حتى
يسلموا
او يعطوا
الجزية
وما
وهموه
من مناقضة
بين هذا
وبين
الحرية
الدينية
التي
قررها

القرآن المكي ، ومن افترون الدعوة إلى الجهاد بالافراء بالغنائم ، ومن ظهور النبي في مظهر ذي السلطان السيامي والحربي والقضائي والمالي والتشريعي ، وما وهوه من مناقضة بين هذا وبين مهمة « النبي » ، وما قرره القرآن المكي من انه لا يطلب اجرا وليس هو مسيطرا على الناس ولا جبارا ولا وكيلا ولا مستولا ، وليس هو الا نذيرا وبشيرا وداعيا الى الحق فمن امتدى فانما يمتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، ومن القائلين من ضاق افقه ونظره وخلط مع هذا زوجات النبي وحياته الخاصة ايضا .

غير ان انعام النظر مع الانصاف والاحاطة يظهر الحقيقة ساطعة وهي ان ما كان من تطور في السيرة النبوية المدنية وفي الرامي القرآنية المدنية ليس هو تطورا في معنى الانحراف عن الاصل المكي سيرة وقرآنا وانما هو في حدود هذا الاصل ونطاقه . فالقرآن المكي وان كان دعا الى ما دعا اليه وهم ، عن ما نهى عنه بأسلوب الحث والتعريض والترغيب والترهيب والتعسين والتفبيح والتقرير والتبليغ فانه انطوى على نواة الامر والنهي والتشريع ايضا كما نرى في الايات التالية مثلا :

١ - قل تعالوا ائله ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم وايام ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفسا الا وسعها واذا قاتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون .

الانعام ١٥١ - ١٥٢

٢ - قل انما حرم دمي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى
بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا
على الله ما لا تعلمون (١) . الاعراف ٣١

فاذا تطور تطور هذا الى اسلوب التشريع الحاسم في العهد المدني
فانه انما كان تطورا تطبيقيا ليس فيه شيء من الانحراف والغرابة ، كما
ان تمثل قوة التشريع والحكم والقضاء والقيادة والزعامة في شخص
النبي عليه السلام هو نتيجة طبيعية لهذا التطور التطبيقي ، وليس من
مسوغ للقول ان طبيعة مهمة النبوة لا تتعبد له .

وكل ما كان من تبدل في القرآن وموقف النبي إزاء اليهود والدعوة
الى قتال المشركين والامر بقتال الكتابيين لم يخرج في اصله عن المبادئ
القرآنية المكينة ، ويمجد الذي بنعم النظر في الفصول القرآنية المكينة
والمدينة دلائل حاسمة على ذلك . فالقرآن المكيني قرر الحرية الدينية
والدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكنه قرر كذلك
حق المسلمين في الدفاع والانتصار من البغي ، ووجب الوقوف من
الظالم موقف الشدة بالمقابلة كما ترى في هذه الايات :

« وما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وابقي للذين
آمنوا وعلى دينهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش
واذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة
وامرهم شورى بينهم وبما رزقناهم ينفقون . والذين اذا اصابهم البغي هم
يتنصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فاجره على الله . انه

(١) ومن هذا القليل آيات الاسراء ٣٢ - ٣٩

لا يحب الظالمين . ولن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيعون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب اليم .

الشورى ٣٤ - ٤١

والقرآن المدني . انما ثبت هذه التقارير في صيغة الامر والتشريع وحسب وامر بالتزام العدل التام مع الاعداء والوفاء بعهد المعاهدتين وبترك المسالمين والحياديين وشأنهم ، وبإل وبتشجيع البرهم والتواد معهم ، وبانكار كون الغنائم غاية من غايات الحرب الاسلامية ، وبالجنوح للسلام اذا جنح العدو لها كما ترى في الايات التالية التي هي قليل من كثير في هذا الباب :

١ - وقالوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . واقتلوا من حيث تقتضون واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلوا عند المسجد الحرام حتى يقتلواكم فيه فان قاتلواكم فاقتلواهم كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان الله غفور رحيم . وقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين . البقرة ١٨٩ - ١٩٢

٢ - الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق او جاؤكم حصرت صدورهم ان يقاتلواكم او يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلواكم فان اعتزلواكم فلم يقاتلواكم والبقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . النساء ٨٩

٣ - يا أيها الذين آمنوا إذا خربتم في سبيل الله فتيّنوا ولا تقولوا لمن
آلفي إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله
مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتيّنوا . ان الله كان
بما تعملون خبيرا النساء ٩٣

٤ - ولا يجرمكم شأن قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام ان
تعتمدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان
واقفوا الله ان الله شديد العقاب .. المائدة ٢

٥ - يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم
شأن قوم على ان لا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى واقفوا الله ان
الله خير بما تعملون .. المائدة ٨

٦ - وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع
العليم .. الانفال ٦١

٧ - الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا
عليكم احدا فآفوا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين . التوبة ٤
٨ - الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا
لهم ان الله يحب المتقين .. التوبة ٧

٩ - لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلواكم في الدين ولم يخرجوكم
من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما
ينهاكم الله عن الذين قاتلواكم في الدين وأخرجوكم من دياركم
وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون
المتعة ٨ - ٩

ولا يمكن في حال ان يكون النبي عليه السلام قد فاقض المبادئ

القرآنية التي بلغها ، وروايات السيرة الوثيقة تؤيد ان ما كان من قتال بين المسلمين والمشركين العرب وغيرهم في حياة النبي ائـا كان دفاعا وانتصارا من الظلم والعدوان وتوطيدا لحرية الدعوة الى الاسلام . وانه لم يكن بسبيل اكراه الناس على الاسلام او بده احد بالعدوان والاكراه ولا بقدرح في هذا ان يكون كثير من العرب قد اسلموا بعد ان قوي المسلمون وانتصروا على اعدائهم وفتح الله عليهم مما يمكن ان يكون طبيعيا لا شذوذ فيه طالما لم يكن فيه اجبار واكراه . ولعل ما كان بين النبي عليه السلام وبين فئات المشركين من معاهدات في مختلف ادوار العهد المدني اكبر دليل على ما نحن بسبيل تقريره . ولعل التمعن في نص سورة النصر يجلي هذه الحقيقة كل التجلية ؟ فان في تعبير ويدخلون في دين الله افواجا ، لوصفا رائعا للاقبال التطوعي على الاسلام مها كان ذلك نتيجة من نتائج الفتح والنصر والتغلب على الاعداء البغاة الصادين عن دين الله وخضد شوكتهم ، بل ان هذا يحمل على القول ان عدم اقبال الناس على الاسلام قد كان اثرا لنشاط هؤلاء الاعداء ومكرهم ومؤامراتهم وحسب . وهو ما تؤيده نصوص قرآنية عديدة ايضا كما ترى في الآيات التالية مثلا .

١ - اذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وراوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب . . البقرة ١٦٦

٢ - وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا . انا كنا

لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء . ابراهيم ٢١

٣ - وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار

اذ تأمرونا ان نكفر بالله ونجعل له انداداً . . . سبأ ٢٢

كذلك يجد الذي ينعم النظر في النصوص القرآنية ان قتال اهل الكتاب حتى يعطوا الجزية محدود بعد الذين لا يدنون بدين الحق ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ، وان هؤلاء ليسوا جميع اهل الكتاب وانما فريق منهم . ومعلل كذلك بان زعماء الدينيين كانوا يصدون عن سبيل الله لضمان منافعهم المادية كما ترى في الآيات التالية :

١- قولوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدنون دين الحق من الذين اتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .
النوبة ٢٩

٢- يا ايها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان لياكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله .
النوبة ٢٣

ثم يجد ان اليهود وغيرهم تمتعوا بكل حرية الجدل والحجاج والانكار والجمود بل بت الشكوك والريب في صدور المسلمين وغيرهم بل والوقوف موقف السفرية والتعدي مع احتفاظهم بدينهم وطقوسهم وعهودهم وان موقف العداء الحربي ضد العرب منهم انما كان مقابلة على ما بدا منهم من صد وأذى وطعن واخراج وقتنة وظلم ومؤامرة وبغى وإن هذا الموقف من اليهود لم يكن الا بعد أن بدا منهم الصد والطعن والاذى والغدر والنكث والتآمر مع الاعداء الخارجيين ومظاهرتهم في في الحرب بما جاء في القرآن قويا صريحاً واضحاً (١) وبالتالي ان ما كان

(١) في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة آيات وصول عديدة وطويلة لما كان لليهود من مواقف حباكية وتشكيلية وآمرية كما ان في سور الانفال والحشر والاحزاب آيات صريحة بمواقف النكث والعداء والحياة التي وقفوها واستحقوا عليها

من أحداث بين النبي واليهود لم يخرج عن نطاق المبادئ القرآنية المحبة والمندية . أما ما كان من غزوات مشارف الشام التي يقطنها نصارى العرب في زمن النبي كدومة الجندل وبني كلب ومؤتة وتبوك فالروايات كثيرة على أنها لم تقع الا مقابلة على عدوان هؤلاء على قوافل المسلمين ، والحملات التي جهزها أبو بكر ليست الا امتداداً لها وحركات حروب الردة .

والقول ان الجهاد افتقر بالاعرام بالغنائم مها كان فيه شيء من الحقيقة الا انه طبعي لا شذوذ فيه ما دام الجهاد دفاعياً وفي نطاق الانتصار من الظلم . على ان في اطلاق القول توسعاً لا يتطبق على نصوص القرآن فأكثر آيات الجهاد افتقرت ببيان واجب الجهاد وضرورته ونوابه عند الله والليل الذي افتقر بوعده الفتح والغنائم افتقر ايضا ببيان الواجب والضرورة وحسن الثواب عند الله ، وان من الحق ان يقرر ان ذلك على كل حال قد جاء في القرآن وظل ثانوياً ولم يكن رئيسياً اصلاً (١) وعلاوة على هذا فان الحث على الانفاق في سبيل الله قد شغل حيزاً غير يسير من القرآن وجاء بأساليب قوية نافذة .

التكثير مما يسترق هذه حيزاً واسعاً اقرأ مثلاً آيات البقرة ٤٠-٤٢ و٧٥ و٧٦ و١٠٦ و١٣٩ و١٤٧ وال عمران ٦٥-١٢٠ والنساء ٤٤-٥٦ و١٥٣-١٦٥ والمائدة ٤١-٤٢ و٥٧ و٧٦ و٧٧ والافات ٥٥-٦٣ والاحزاب ٢٦-٢٧ والحشر ١-٤ (١) اقرأ مثلاً الآيات التالية البقرة ١٥٤ الى ١٥٧ و١٩٠ الى ١٩٤ و٢١٦ الى ٢١٨ وال عمران ١٣٩ الى ٤٨ و ١٦٩ الى ١٧٩ و ١٩٥ والنساء ٧٢ الى ٧٦ و ٩٤ الى ١٠٠ والمائدة ٢٣ الى ٣٤ و ٥١ الى ٦٦ والافات ١ الى ٨ و ٣٨ الى ٤٧ و ٥٥ الى ٧١ والتهمة ١ الى ١٦ و ٢٠ الى ٢٢ و ٢٩ الى ٣٥ و ٨٩ الى ١٠٠ و ١١١ و ١١٨ و ١٣٢ والحج ٣٩ الى ٤١ والاحزاب ٢٢ الى ٢٧ و ٢٧ الى ١٤ والصف ١٠ الى ١٣

وهذا مما يكون قربة قوية على الهدف الذي استهدف بالجهاد وهو
توطيد الأمن وحرية الدعوة ودفع البغي والعدوان وإيجاب الاتفاق
عليه على المسلمين أكثر من اغرائهم بالمغانم من ورائه (١)
أما حياة النبي الشخصية وزواجه فأنها من جهة متسقة مع طبيعة
النبي البشرية التي قررهما القرآن ، ومن جهة فإن في الفصول القرآنية
ما يزيل ما وقع من الوهم في مشكلاتها وما يدل على الخطأ في فهمها
وردوايتها . وفي آيات تحيّر نساء النبي في سورة الاحزاب ٢٨-٣٤ ما
فيه كل الانساق مع عظمة خلق النبي واستغراقه في الله ومهنته العظمى
وما كان يختاره من شتاف العيش وضككه في حياته اللينة الخاصة . هذا
مع القول إن الاخذ والرد في هذه الناحية ليس الا ظاهرة من ظواهر
التسليم والهووى وضيق الافق والنظر والتعامي عن الجوهر والباب (٢)

- ٩ -

القرآن والعرب في عهد النبي

والناظر في القرآن يجد أن موضوع (القرآن) وصلته بالوحي الرباني
كان موضوعاً رئيسياً بل من أهم المواضيع الجدلية بين النبي وبين زعماء

(١) اقرأ النعل الرابع في سورة البقرة ٢٦٠ الى ٢٦٤ وكذلك آيات البقرة
١٩٥ و ٢٤٥ و ٢٥٤ والحديد ١٠ الى ١١ و ٢٨ و ٣٩

(٢) في مختلف فصول كتابنا بحيرة الرسول الذي صدر عام ١٣٦٨ - ١٩٤٨
شروح وبيانات وافية مؤيدة بالأحاديث القرآنية في مدد جمع ما تناوله هذا البحث وخاصة
في فصول اليهود والنصارى والجهاد والتشريع في الجزء الثاني

للكفار ونبهاهم ، وقد نسبوا الى النبي في سياق ذلك أنواع النسب فقالوا أنه شاعر وأنه كاهن وأنه ساحر وأنه كاذب وأنه مفتو وأنه يقتبس ما يتلوه من اساطير الاولين وكتبهم وقصصهم ، وأن هناك من يعلم ويساعده في ما ينظمه ويتلوه ، وأنه مسحور وأنه مجنون وأن الذين يؤمنون اليه به هم الشياطين والجن على ما كانوا يعتقدون ذلك في شأن السحرة والكهان والشعراء وتأمروا سرأوعنا على التشويش عليه واللغو عند تلاوته ، والاعراض والصد عن سماعه ، واستغلثوا بعض الظروف (١) في صدده فعملوا بعض ضعفاء الايمان على الارتداد الخ ، ويجد أن هذا الموضوع قد شغل حيزاً غير يسير من سورة القرآن وخاصة المكي منه (٢) ، وأن القرآن قد حكى عنهم ما قالوه وفعلوه بكل ما في ذلك من جرأة وصراحة وبذاءة وسوء أدب واتهام ومكابرة ، ورد عليهم وهدوياً قاطعة قوية عنيفة كانت تتلى عليهم على ملأ الناس وتقذف في وجوه الجاحدين والمعاندين والمكذبين والصادقين والمحاجين مسفرة تارة

-
- (١) اقرأ آيات النمل ٩٨-١١٠ وكتابنا سيرة الرسول ج ١ ص ٢٤١-٢٤٤
(٢) الآيات كثيرة جداً ومنبوذة في سور القرآن عامة المكي منها خاصة ومع ذلك فانها تشير الى بعضها للرجوع اليه والتمعن فيه : البقرة ٢١-٢٥ و ٤٠-٤٦ و ٨٩-٩١ والنساء ١٦٣-١٧٠ والاعلام ٦٨-٦٩ و ١٢٤ والافات ٣١-٣٢ ويونس ١٥-١٧ و ٣٦-٤٠ ويهود ١٣-١٤ والحجر ٦-١٥ والأجرء ٥٥-٤٨ و ٨٩-٩٣ والكهف ١-٦ والاياء ٢=١٠ والؤمئون ٦٦-٦٧ والفرقان ١-٦ و ٣٠-٣٤ والشعراء ١٩٢-٢٢٧ والنمل ٦١-٦٢ والنتكوت ٤٥-٥٢ والسجدة ١-٣ وسبأ ١-٩ وود ٣٥-٤٣ و ٤٨ والحج ٧٢-٧٨ وقاطر ٢٩-٤٣ ويس ١-١١ و ٦٩-٧٠ وفصحت ٢٦ و ٤٤ الى ٤٦

ومنددة تارة ومتحدية تارة ومبينة للأسباب الحقيقية التي تمنعهم من الإيمان والتصديق تارة كالاستكبار والتعاضم والاعتدال بالمال والجاه والعصية، وخشية فقدان المنافع والمصالح وعدوان الخارج وقطيعة الناس وانفصاض الجمهور عنهم الخ، ثم ظل النبي بتأييد الله ووحيه وقوته وثبته لا يزداد إلا استغراقاً في مهمته وفناء في ربه واستمراراً في الدعوة إليه راشقاً على قومه لينقذهم ثم لينقذ البشر جميعاً من الضلال ويخرجهم من الظلمات إلى النور، إلى أن يسر الله أمر الهجرة إلى المدينة المنورة وأيد نبيه بنصره وحقق له وعده فنصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب واهلك أكثر الزعماء الأقوياء المستكبرين الصادين الذين قادوا حملة المعارضة وتولوا كبرها، ودخل الناس في دين الله أفواجا وصارت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى. فالقرآن يمثل فيما يمثل هذه القوة الروحانية العظمى التي كانت وما زالت الحاسمة في الموقف والمثيرة للاعجاب والاعظام والاحلال.

ومن الجدير بالذكر أن كل ما يمكن أن يقوله كافر جاحد عنيد شديد العداء عن القرآن والنبي قد قاله كفار العرب في حضرته مباشرة، وبكل عناد وقوة ولجاجة، وإن النبي قد رد عليه بلسان القرآن بكل قوة وعنفة وقطيعة وإفهام وصدده صموداً رائعاً عظيماً. وكان ذلك على رأي ومسمع من مختلف الفئات ثم استمر في تبليغ الدعوة إلى الله ومكارم الأخلاق وأسباب سعادة الدارين، وفي كل هذا دليل قوي أخاذ على ما كان من عمق شعوره عليه السلام بصدق رسالته وصدق صلته

بالوحي الرباني وادراكه التام لمدى مهمة العظمى واستغرافه فيها .
وان المرء ليشعر بهذا شعوراً يملك عليه نفسه اذا كان حسن النية متجرداً
عن المرمى اذ يقرأ في القرآن آيات النساء ١٦٧ والانعام ٩٣ والشورى ٢١
والاحقاف ٨ والحاقة ٣٨ ٥٢ التي نقلناه قبل وقرأ منها آيات
يونس هذه :

« واذا اتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا انت بقراّن
غير هذا او بدله قل ما يكون لي ان ابده من تلقاء نفسي ان اتبع الا
ما يوحى الي اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله
ما تلوته عليكم ولا ادراككم به فقد لبثت فيكم عمراً مـمـن قبله أفلا
تعقلون . . ١٥ - ١٦

ومن العجيب ان يظل المفروضون من المبشرين والمستشرقين يأخذون
ويردون ويعيدون ويبدئون فيما لم يقصر به زعماء كفار العرب مع
النبي مباشرة ، وبعد ان احتوى القرآن ما احتواه في صدر ذلك من
آيات رائعة وردود قوية ولعد مفهم وصحيحة نافذة مستولية ، وان
يتمسكوا كما تمسك اولئك بالقشور دون اللباب وبالعرض دون الجوهر
وان لا يتروعا عن البذاءة والغشاة والصغار والمرء بالباطل وان لا
يكون تقدم الادب الانساني والحضارة الانسانية والتفكير الانساني
ذا اثر رادع في مكابرة المكابرين وممارسة المتأثرين وخروجهن فيها عن
نطاق الادب والحق والمنطق .

الفصل الثاني

جمع القرآن وأروفه وقراءاته ورسم المصحف وتجلياته

- ١ -

مجموعات من الروايات والاقوال في تدوين القرآن :

أما تدوين القرآن وجمعه وترتيبه فإن الناظر في كتب علماء القرآن ورواة الحديث عنهما يجد اقوالا وروايات كثيرة حول هذا الموضوع مختلفة اختلافا غير يسير ، ومتعارضة أحيانا .

فأولا : ان هناك اقوالا وروايات تفيد ان النبي عليه السلام توفي ولم يكن القرآن قد جمع في شيء ، وان جمعه وترتيبه انما جاء بعد وفاته وان ما كان يدون منه في حياته كان يدون على الاكثر على الوسائل البدائية مثل اضلاع النخيل ، ورقائق الحجارة واكتاف العظام وقطع الاديم والنسيج ، وان المدونات منه على هذه المواد لم تكن مضبوطة ولا مجموعة ، وكانت على الاكثر متفرقة عند المسلمين ، وان المعول في القرآن ، انما كان على القراء وصدور الرجال :

١ - فقد ورد حديث منسوب الى زيد بن ثابت برواية الزهري جاء فيه ان النبي قبض ولم يكن القرآن قد جمع بشيء . ولقد علق الخطابي على ما جاء في اتفاق السبوطي على هذا الحديث بقوله انما لم يجمع النبي القرآن لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه وآياته . فلما انقضى نزوله بوفاته أتم الله الحلفاء الراشدين ذلك بوفاء وعده الصادق بضمان

حفظه على هذه الامة فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر . ثم قال وأما ما أخرجه مسلم من حديث أبي مسلم « لا تكتبوا عني غير القرآن » فلا ينافي ذلك لأن الكلام في كتابة مخصوصة على صفة مخصوصة . وقد كان القرآن كله كتب في عهد رسول الله لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور .

٢ - وقد روى البخاري حديثا عن زيد بن ثابت هو جمع القرآن بعد وفاة النبي هذا نصه : قال زيد/ ارسل الي أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر إن عمر أتاني فقال إن القتل استعمر يوم اليمامة بقراء ، القرآن واني أخشى أن يستعمر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن واني أرى أن تأمر بجمع القرآن . فقلت لعمر كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله قال عمر هو والله خير . فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري بذلك ورأيت الذي رأى عمر . قال أبو بكر إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله فتتبع القرآن فأجمعه . فوالله لو كلفوني في نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي ما أمراني به من جمع القرآن . قلت فكيف تفعلات شيئا لم يفعله رسول الله . قال هو والله خير . فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح صدر أبي بكر وعمر . فتتبع القرآن أجمعه من العصب والقواف وضدور الرجال . ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره . فكانت المصحف عند أبي بكر ثم عند عمر ثم عند حفصة .

٣ - وقد روى ابن شهاب حديثا جاء فيه أن أبا بكر قال بعد أن تم جمع القرآن التمسوا له اسما فقال بعضهم السفر وقال بعضهم المصحف

فان الحبشة يسمونه المصحف . فسماه ابو بكر المصحف . وقد أورد المظفري رواية أخرى جاء فيها أن ابا بكر لما قال سموه قال بعضهم سموه إنجيلاً فكرهوه وقال بعضهم سموه السفر فكرهوه فقال ابن مسعود رأيت بالحبشة كتاباً يدعونه المصحف (١) فسموه به . هذا في حين ان هناك حديثاً بخارياً آخر في نفس السياق يذكر أن المجموعة كانت تسمى « المصحف » . وعلى كل حال فعديث نسبة المجموعة بالمصحف يفيد ان هذه النسبة التي استفاضت حتى صارت العام على مجموعة القرآن استعملت لأول مرة في جمع عهد أبي بكر .

٣ - وأخرج ابو داود حديثاً آخر جاء فيه ان عمر أعلن الناس من كان تلقى من رسول الله شيئاً من القرآن فليأت به وكانوا يكتبون ذلك في المصحف والالواح والعصب . وكان لا يقبل من أحد شيء حتى يشهد شاهدان .

٤ - وروى ابن شهاب حديثاً آخر جاء فيه : إنه لما أصيب المسلمون بالبيامة فزع ابو بكر وخاف ان يذهب من القرآن طائفة فأقبل الناس بما معهم حتى جمع على عهد أبي بكر في الودق . فكان ابو بكر أول من جمع القرآن .

(١) الأول بأنه اقترح ان تسمى المجموعة إنجيلاً محل نظر في ذاته لان اصحاب رسول الله يسمون ان هذه التسمية خاصة بكتاب عيسى والنصارى . ولقد قيل ان كلمة « المصحف » دخيلة ونحن نرمي ذلك غريباً لأن معنى هذا انها لم تكن معروفة الاصل والاشتقاق والمعنى عند العرب في حين ان الكلمة على ما هو الأرجح ان لم تزل على الجزم متصلة بكلمة صحف وصحيفة . وكلمة صحف وردت اكثر من مرة في القرآن حيث وردت في سور الاعلى والنجم وعيس والقيامة .

٥ - وروى الليث ابن سعد حديثاً جاء فيه ان عمر اتي بأبنة الرجم
خلفم يكتبها زيد لانه كان وحده .

٦ - وروى حمارة بن غزيرة حديثاً جاء فيه أث زيداً بن ثابت قال
أمرني أبو بكر فكتبته في قطع الاديم والعصب . فلما هلك أبو بكر وكان
عمر ، كتبت ذلك في صحيفة واحدة .

٧ - وروى عكرمة ان علياً بن ابي طالب قعد في بيته بعد بيعة
أبي بكر فقبل لابي بكر كره بيعتك . فأرسل اليه فقال اكرهت بيعتي .
قال لا والله قال ما أقعدك عني . قال رأيت كتاب الله يزداد فيه فحدثت
نفسي ان لا البس ردائي إلا للصلاة حتى أجمعه . قال له أبو بكر نعم ما رأيت .
٨ - واخرج ابن سيرين حديثاً جاء فيه ان علياً لما مات النبي قال
آليت ان لا اخذ علي ردائي حتى أجمع القرآن . فجمعوه وانه كتب في
مصحفه الناسخ والمنسوخ .

٩ - واخرج أبو داود حديثاً عن علي جاء فيه اعظم للناس في
المصاحف اجرا أبو بكر رحمة الله على أبي بكر . هو اول من جمع
كتاب الله .

١٠ - وأورد ابن اشته في كتاب المصاحف حديثاً جاء فيه ان أول
من جمع مصحفاً بعد وفاة النبي هو سالم مولى حذيفة .

١١ - وأورد السيوطي في الاتقان ان ابن فارس وهو من علماء القرآن
قال ان تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالثنتين قد تولاه الصحابة .

١٢ - وقال الحاكم ان جمع القرآن الثالث هو ترتيب السور وقد تم
ذلك في زمن عثمان .

ثانياً : إن هناك روايات كثيرة عن وجود اختلاف في ترتيب مصاحف بعض الصحابة وعن كلمات زائدة كتبت في بعض المصاحف ولم تكتب في المصحف المتداول وعن آيات كانت تقرأ ولم تكتب كذلك هي هذا المصحف مما يفيد أن النبي توفي ولم يكن القرآن قد جمع ورتب ايضاً .

١ - فمن الروايات التي اوردها السيوطي نقلاً عن كتب علماء القرآن والمصاحف انه كان لكل من ابي بن كعب وعبد الله مسعود ومعاوية وعالمان في القرآن (١) مصحف وأن ترتيب سور كل منها مغاير لترتيب الآخر من جهة ومغاير لترتيب سور المصحف العثماني المتداول من جهة أخرى ، وأن في احدهما زيادة وفي احدهما نقصاً وأن المصحفين ظلا موجودين يقرآن إلى ما بعد عثمان بمدة طويلة . وقد نقل السيوطي كلا من الترتيبين عن كتاب المصاحف لابن اشته ، وفي مصحف أبي سورتان صغيرتان زائدتان عن سور المصحف واحدة اسمها سورة الحقد وهذا نصها : « اللهم إياك نعبد . ولك نصلي ونسجد . وإليك نسعى ونغمد نخشى عذابك . ونرجو رحمتك . ان عذابك بالكفار ملحق » . والثانية اسمها سورة الخلع وهذا نصها : « اللهم انا نستعينك ونستغفرك ونتني عليك الخير ولا نكفرك . ونخلع ونترك من يفجرك » . وقد اخرج الطبراني بسند صحيح عن أبي اسحاق على ما ذكره السيوطي ان امية بن خالد ام الناس في خراسان قرأ بسورتي الحقد والخلع . وهذا

(١) في حديث عن عبد الله بن جابر اورده السيوطي انه سمع النبي يقول خذوا القرآن من اربعة عبد الله بن مسعود وماذا وسالم والى . وهناك احاديث أخرى في هذا المعنى فيها بعض الخلاف ولكن اسمي عبد الله والى موجودان فيها .

كان بعد عثمان مدة طويلة . وبما أورده السيوطي أن سوري القيل وقريش في مصحف أبي سورة واحدة ، وأن سوري الضحى والانشراح في مصاحف بعض الصحابة سورة واحدة كذلك . أما مصحف ابن مسعود فليس فيه على ما رواه أولئك الرواة سور الفاتحة والمعوذتين ، ومن المروي كذلك أنه كان يحك المعوذتين ويقول إنها ليستا من كتاب الله

٢ - وروى عبد الله بن زبير النافقي أن عبد الملك بن مروان قال له لقد علمت ما حملك على حب أبي تراب (١) إلا أنك أعراني جاف . فقال له والله لقد جمعت القرآن (٢) من قبل أن يجتمع أبواك . ولقد علمني منه علي بن أبي طالب سورتين عليهما إماما رسول الله ما علمتها أنت ولا أبوك وهما سورتا الخلع والحقد .

٣ - وروى البيهقي أن عمر بن الخطاب قنت بعد الركوع فقال بسم الله الرحمن الرحيم ثم سرد سوري الحقد والخلع . واستدل على أنها سورتان من تقديم البسمة عليهما .

٤ - وأورد السيوطي حديثاً عن عائشة برواية عروة بن الزبير جاء فيه أن سورة الأحزاب كانت تقرأ في زمن النبي مثني آية . فلما كتب عثمان المصاحف لم تقدر منها إلا ما هو الآن .

٥ - وأورد كذلك حديثاً عن أبي بن كعب أنه سأل رزاً بن حبيش كم تعد سورة الأحزاب قال اثنين وسبعين أو ثلاثاً وسبعين . قال إن كانت لتعدل سورة البقرة وإن كنا لنقرأ فيها آية الرجم قال : إذا

(١) كان النبي قال لعلي مرة أبا تراب من قيل المدابة على ما روي لصار خصوصه يمشوه بهذا اللقب على سبيل التمس .

(٢) كانوا يمتنون بجمع القرآن حفظه فيها أحياء

وفي الشيخ والشيخة فارجهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم
٦ - وأورد عن امامة بن سهل قالت لقد أقرأنا رسول الله آية الرجم

الشيخ والشيخة فارجهما البتة بما قضيا من المدة .

٧ - وأورد حديثاً رواه مسلم عن ابن عباس جاء فيه ان عمر بن الخطاب خطب الناس قائلاً لقد خشيت ان يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة انزلها الله . ان الله بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها وعقلناها ورجم رسول الله فرجنا معه ألا وان الرجم حق على من زنى وقد احصن اذا قامت البيعة او كان الحمل او الاعتراف
٨ - وروي عن الليث بن سعد ان عمر أتى بآية الرجم فلم يكتبها زيد لانه كان وحده .

٩ - وروي عن حميدة بنت ابي اويس قالت قرأ علي ابي وهو ابن ثمانين في مصحف عائشة (ان الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً وعلى الذين يصلون في الصفوف الاولى) وذلك قبل ان يغير عثمان المصاحف .

١٠ - وروي عن ابي بن كعب . باخراج الحاكم ان رسول الله قال لي ان الله امرني ان اقرأ عليك القرآن فقرأ ولم يكن الذين كفروا الي آخر السورة . ومن جملة ما قرأ « لو ان ابن آدم سأل واديا من مال فأعطيه سأله ثانياً وان سأل ثانياً فأعطيه سأله ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب . وان ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية . ومن يعمل خيراً فلن يكفره »

١١ - وروى عن ابي واقد الليثي ان رسول الله كان اذا اوحى اليه بشيء أتيناها فعلنا ما اوحى اليه قال فبحثت ذات يوم فقال ان الله يقول « انا انزلنا المال لاقام الصلاة وإيتاء الزكاة » ولو ان لابن آدم واحدا لاحب ان يكون اليه الثاني ولو كان اليه الثاني لاحب ان يكون الثالث . ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب . ويتوب الله على من تاب .

١٢ - وروى عن عدي بن عدي عن عمر قال : كنا نقرأ « ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم » ثم قال لزيد بن ثابت أكذاك قال نعم .

١٣ - وروى عن ابي سفيان الكلاعي ان مسleme بن مخلد الانصاري قال لهم ذات يوم اخبروني بآيتين في القرآن لم يكتبتا في المصحف فلم يخبروه وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك فقال ابن مسleme هما « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم الا أبشروا أنتم المفلحون » والذين آوؤهم ونصروهم وجاهدوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم أولئك لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون .

١٤ - وروى المسور بن محزمة ان عبد الرحمن بن عرف قال ألم نجد في ما أنزل علينا « جاهدوا كما جاهدتم اول مرة » فاننا لا نجدها . قال اسقطت فيما أسقط من القرآن .

١٥ - وروى عن ابن عمر : لا يقولن احدكم اخذت للقرآن كله وما يدربه ما كله قد ذهب منه قرآن كثير . ولكن ليقبل قد اخذت منه ما ظهر .

١٦ - وروي عن ابي موسى الاشعري: كنا نقرأ سورة نسيها باحدى المسحات بما نسيناها غير اني حفظت منها ، يا ايها الذين آمنوا لا تقولوا ما لا نفعلون . فتكتب لكم شهادة في اعناقكم فتستلون عنها يوم القيامة .

١٧ - وازود محمد صبيح في كتاب القرآن (ص ١٦٤) رواية لم يورد مصدرها عن سورة اسمها سورة النورين يزعم بعض المستشرقين ان عثمان اسقطها من مصحفه وانها مثبتة في مصحف علي بن ابي طالب وهذا نصها :

يا ايها الذين آمنوا آمنوا بالنورين . اتولها يتلون عليكم آياتي ويحذرانكم عذاب يوم عظيم . نوران بعضها من بعض وأنا السميع العليم ان الذين يوفون بعهدي ورسوله في آيات لهم جنات النعيم . والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدوا الرسول عليه يقدفون في الجحيم ظلموا انفسهم وعصوا ولي الرسول أو ائتاك يسقون من حميم . ان الله الذي نور السموات والارض بما شاء واصطفى من الملائكة والرسل وجعل من المؤمنين أولئك من خلقه يفعل الله ما يشاء . لا آله إلا هو الرحمن الرحيم . قد مكر الذين من قبلهم برساهم فاخذتهم بكري ان أخذي شديد أليم . يا ايها الرسول بلغ انذارى فسوف يعلمون . مثل الذين يوفون بعهدي في جزيتهم جنات النعيم . وان علياً لمن المتقين . ولقد ارسلنا موسى وهرون بما استخلف فبقوا هرون فصبر جميل قاصبر فسوف يبكون . ولقد آتيناك الحكم كالذين من قبلك من المرسلين وجعلنا لك منهم وصيا لعلمهم يرجعون . ان علياً قاتنا بالليل ساجداً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين ظلموا وهم بعد ابي يعلمون »

١٨ - وقد ورد في موطأ الامام مالك عن ابي يونس مولى عائشة
 قال امرني عائشة ان اكتب لها مصحفاً ثم قالت اذا بلغت هذه الآية
 فاذا في حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى . فلما بلغها اذنتها
 فاملت علي . حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وملة العصر . ثم
 قالت سمعتها من رسول الله . وفي الموطأ حديث عن عمر بن رافع ان
 حفصة امرته ان يكتب لها مصحفاً ثم يتم الحديث بنفس الصيغة
 السابقة حرفياً .

١٩ - وروى عن ابن عباس أنه كان يقرأ آية الكهف هكذا : وكان
 وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصاً ، وآية البقرة هكذا : لا جناح
 عليكم ان تنكحوا فئلاً من ربكم في المواسم ، وروى عن ابن الزبير أنه
 كان يقرأ آية آل عمران هكذا : ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير
 ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما احصاهم
 وروى عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأ آية آل عمران هكذا :
 وجنتكم بآية من ربكم فانفقوا الله من اجل ما جنتكم به . ويقرأ آية
 النساء هكذا : فما استمتعتم به منهن الى اجل مسمى فأتوهن اجورهن
 ويقرأ آية الاحزاب هكذا : والني اولى المؤمنين من انفسهم وهو اب لهم ،
 ويقرأ آية المجادلة هكذا : ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم
 ولا خمسة الا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم
 اذا أخذوا بالتصاخي .

٢٠ - إن هناك روايات عديدة تفيد أن بعض الصحابة كانوا يقرأون
 كلمات بدل كلمات مثل « ايمانها » بدلا من « ابدتها » في آية السرقة في
 سورة المائدة و « لا تجزي نسمة عن نسمة » بدلا من « لا تجزي نفس عن

نفس ، في آية سورة البقرة و « صفراء لذة للشاربين » بدلا من « بيضاء لذة للشاربين » في آية سورة الصافات و « إدراش وإدراشين » بدلا من الياس والياسين ، في آية سورة الصافات و « جاءت سكرة الحق بالموت بدلا من « جاءت سكرة الموت بالحق » في آية سورة ق و « صراط من انعمت عليهم » بدلا من صراط الذين انعمت عليهم ، في سورة الفاتحة و « الحمي القيام » بدلا من « الحمي القيوم » في آية سورة آل عمران و « للذين يقسمون » بدلا من « للذين يؤلون » في سورة البقرة و « مثقال غلة » بدلا من « مثقال ذرة » في سورة النساء و « اركمي واسجدي في الساجدين » بدلا من « واسجدي واركعي مع الراسخين » في سورة آل عمران و « تروءوا وخير الزاد التقوى » بدلا من « تروءوا فان خير الزاد التقوى » في سورة البقرة و « أنموا الحج والعمرة الى البيت » بدلا من « وأنموا الحج والعمرة لله » في سورة البقرة و « شاورهم في بعض الامر » بدلا من « و شاورهم في الامر » في سورة آل عمران النخ .

٢١ - ويصح ان تورد احاديث نسخ المصاحف في عهد عثمان في هذا الباب . لان فيها ما يفيد ان المسلمين كانوا يختلفون في قراءة القرآن حتى افزع اختلافهم عثمان وغيره من كبار الصحابة وبالتالي يفيد ان القرآن لم يكن في كتابته ومصاحفه وصحفه المتداولة وفي قراءته محرراً بحيث يؤمن معه ذلك الخلاف :

١ - فقد اورد البخاري حديثا عن انس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي اهل الشام في فتح ارمينية وأذربيجان فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال لعثمان أدرك الامة قبل ان يختلفوا

اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل الى حفصة ان ارسلي اليها الصحف
 نسخها في المصاحف ثم تردها اليك . فأرسلت بها حفصة الى عثمان فأمر
 زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث
 ابن هشام فنسخوها في المصاحف . وقال عثمان للرجل القرشيين الثلاثة إذا
 اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش
 فانه انما نزل بلسانهم . ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف رد
 عثمان الصحف الى حفصة وبعث إلى كل اقل بمصحف مما نسخوا وأمر بما
 سواه من القرآن في كل صحيفة او مصحف أن يحرق . قال ابن هشام
 وأخبرني خارجة بن زيد سمع زيداً بن ثابت قال فقدت آية من الأحزاب
 حين نسخنا المصحف فذكرت اسم رسول الله يقرأ بها فالتسناها فوجدناها
 مع خزيمه بن ثابت الانصاري من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا
 الله عليه . . . فالحقناها في سورتها في المصحف .

٢ - وقد روي حديث آخر عن انس بن مالك ايضاً جاء فيه ان
 الناس اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل العلمان والمعلمون
 فبلغ ذلك عثمان فقال عندي تكذيبون وتلحنون به فمن نأى عني كان اشد
 تكديباً ولحنأ . يا اصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس اماماً فاجتمعوا
 فكتبوا فكانوا إذا اختلفوا وتدارأوا في آية قالوا هذه اقرأها رسول الله
 فلانا فيرسل اليه وهو على رأس ثلاث من المدينة فيقال له كيف اقرأ
 لرسول الله آية كذا فيقول كذا وقد تركوا لها مكاناً .

٣ - وقد اخرج ابو داود حديثاً وحف بأنه يسند صحيح عن سويد
 بن غفلة قال . قال لي علي لا تقولوا في عثمان الا خيراً فوالله ما فعل الذي
 فعل في المصاحف إلا على ملأ منا . قال ما تقولون في هذه القراءة فقد

بلغني ان بعضهم يقول إن قراءتي خير من قراءتك وهذا يكاد يكون كفرآ . قلنا ما ترى . قال أرى أن يجمع الناس على مصنف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف . قلنا فتعم ما رأيت .

٤ - وأخرج أبو داود حديثا جاء فيه لما أراد عثمان ابن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلا من قريش والانصار فبعثوا الى الربعة التي في بيت عمر فجيء بها .

- ٣ -

ثالثا : إلى جانب تلك الاحاديث والاقوال والروايات يوجد احاديث وروايات وأقوال يستفاد منها أن القرآن كان يدون وترتب آياته وسوره في حياة النبي عليه السلام وبأمره ، وأن ترتيب المصحف العثماني متصل بعهد النبي وثبوته :

١ - فقد أخرج الحاكم عن زيد بن ثابت حديثا وصف بأنه بسند صحيح على شرط الشيخين جاء فيه : كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاق . وقد علق البيهقي على ذلك كما جاء في الانتقان بقوله يشبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي . ويصح ان يستفاد من الحديث انه كان يكتب ما ينزل به الوحي في رقاق منفردة ثم تنقل هذه الرقاق الى صحف معدة كالسجل فتلحق فصولها ببعضها وفق ما كان يشير به النبي .

٢ - وقد أخرج الامام احمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم حديثا عن ابن عباس جاء فيه قلت لعثمان ما حملكم ان عدتم الى الانتقال وهي من المثاني والى براءة وهي من

المئين (١) ففرنتم بينها ولم تكتبوا بينها سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتوها في السبع الطوال فقال عثمان كان رسول الله تنزل عليه السور ذات العدد (٢) فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب له فيقول ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا (٣) ، وكانت الانتقال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قضيتها شبيهة بقضيتها فظننت انها منها وقبض رسول الله ولم يبين لنا انها منها فمن أجل ذلك قرنت بينها ولم اكتب بينها سطر بسم الله ووضعتهما في السبع الطوال . وهذا يفيد ان الانتقال في زمن النبي كانت تدون قبل براءة مباشرة ولم يكن بينها فاصل او بسملة فتركنا على ذلك وهو الترتيب المتداول .

٣ - واخرج الامام مسلم حديثا عن عمر قال ما سألت النبي عن شيء اكثر مما سأله عن الكلاله حتى طعن في صدري بأصبعه وقال تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء . وهذا يفيد أن سورة النساء كانت مرتبة على ما هو عليه في المصحف المتداول في حياة النبي . ولو لم يكن ترتيبها بتوقيف النبي وإشارته لوضعت الآية المذكورة في مكان اكثر مناسبة من السورة .

٤ - واخرج الامام البخاري حديثا عن عبد الله بن الزبير جاء فيه قلت لعثمان والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا ، قد نسقتمنا

(١) الثاني هي السور المتوسطة التي تكون آياتها اقل من مئة والمئين هي السور التي كانت آياتها مئة آية او اكثر قليلا .

(٢) السور الطويلة او المتوسطة التي كانت تنزل فصولا متفرقة .

(٣) هذا تعبير كان يستعمل في عهد النبي للدلالة على شصية السورة او اسمها .

الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها . قال يا ابن أخي لا غير شيئا من مكانه . الآية النسخة في سورة البقرة وهي الآية (٢٣٤) متقدمة في الترتيب على الآية المنسوخة في نفس السورة وهي (٢٤٠) . وجواب عثمان يفيد أن الترتيب إنما كان بإشارة النبي فلم ير تغيير شيء من مكانه .

٥ - وأخرج الامام أحمد حديثا بإسناد وصف أنه حسن عن عثمان ابن أبي العاص قال كنت جالسا عند رسول الله إذ شخص ببصره ثم حوّه ثم قال اتاني جبريل فأمرني أن اضع هذه الآية في هذا الموضع من هذه السورة ، ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى إلى آخرها وهذا يفيد أن النبي كان يأمر بوحى الله بترتيب آيات السور وان الترتيب المتداول هو مستند الى ذلك .

٦ - وروى البخاري حديثا عن زيد بن ثابت ان رسول الله املى عليه « لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله » . فجاء ابن ام كلثوم وهو عليها عليه فقال يا رسول الله والله لو استطعت الجهاد لمجاهدت وكان اعمى فأنزل الله على رسوله وفخذه على فخذه فنقلت عليه حتى خاف ان ترض فخذه ثم مرى عنه فأملى عليه « غير أولي الضرر » وهذا يفيد ان النبي كان يستدعي احد كتاب الوحي حين نزول القرآن عليه فيملى عليه ما ينزل عليه فوراً .

٧ - وروى البخاري أيضا حديثا قريبا من هذا عن البراء لما نزلت آية « لا يستوي القاعدون » قال النبي ادعوا زيداً فجاء ومعه الدواة والوح او الكتف فقال اكتب « لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله » وخلف النبي ابن ام كلثوم الاعمى فقال يا رسول الله انا ضير فنزلت « غير أولي الضرر » .

٨ - وحديث زيد بن ثابت الذي رواه عن جمع القرآن في عهد أبي بكر والذي نقلناه في المجموعة الاولى يفيد ان آيات السور كانت معروفة الترتيب في حياة النبي حيث ذكر افتقاده آخر آيتين في سورة براءة ووضعها في مكانها حين وجودهما . وترتيبهما هو وفاق ترتيب المصحف المتداول . وحديث البخاري عن نسخ المصاحف في عهد عثمان والذي نقلناه في المجموعة الثانية يفيد نفس الشيء حيث يذكر افتقاده الاحزاب ووضعها في مكانها المعروف في حياة النبي والذي هو وفاق المصحف المتداول ايضا .

٩ - وروى البخاري عن ابن عباس ان آخر آية نزلت آية الرابا وروى النسائي عن ابن عباس ايضا ان آخر آية نزلت « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله » وخرج ابن شهاب عن سعيد بن المسيب ان احدث القرآن عمدا بالعرش آية الدين . وقد لا يكون تناقض بين الروايات لان هذه الآيات في سلسلة واحدة . وجميعها موضوعة في سورة البقرة بأمر النبي وترتيبه وجاء في جمع التبيان للطوسي ان ابي بن كعب وسعيد بن جبير والحسن بن قتادة رووا ان الايتين الاخيرين من سورة التوبة هما آخر ما نزل من القرآن . وهذا يفيد ان آيات السور كانت معروفة الترتيب في حياة النبي وبأمره كذلك .

١٠ - وروى علي بن ابراهيم عن ابي بكر الحضرمي عن ابي عبد الله جعفر بن محمد « الامام جعفر الصادق » ان رسول الله قال لعلي يا علي ان القرآن خلف فراشي في المصحف والحبر والقراطيس فاجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة ، فانطلق علي فجمعهم في ثوب اصفر ثم ختم عليه . وهذا يفيد ان القرآن كان يدون على وسائل الكتابة

المعروفة وكان مدوناً كذلك في حياة النبي وكان النبي يعني بحفظه في بيته .
١١ - وقد روى علماء الحديث حديثاً ورد في أكثر من كتاب من كتب الحديث المشهورة جاء فيه « لا تكتبوا في غير القرآن » حيث يفيد أن الصحابة كانوا يدونون في حياة النبي ما يسمعون من النبي من القرآن .

١٢ - وقد أخرج أبو داود حديثاً جاء فيه ان عمر أعلن الناس من كان تلقى عن رسول الله شيئاً من القرآن فليأت به وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والالواح والعصب . وهذا يفيد ما أفاده الحديث السابق .

١٣ - وروى وائسلة عن النبي قال أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ومكان الزبور المثني ومكان الانجيل المثاني وفضلت بالمفصل (١) وهذا يفيد ان ترتيب سور القرآن حسب المصحف المتداول الطوال أولاً فالمتون ثانياً فالمثاني ثالثاً فالمفصل رابعاً من ترتيب النبي وعهده .

١٤ - وروى البخاري حديثاً عن ابن مسعود ان النبي قال ان بني اسرائيل (٢) والكهف ومريم وطه والانبياء هن من العتاق الاول وهن من ثلاثي . وهذه السور متسلسلة الترتيب في المصحف المتداول وفاق الترتيب الوارد في الحديث .

(١) المفصل هي السور القصيرة وسميت كذلك لكثرتها وكثرة الفصل بينها . وهناك احاديث فيها بعض الخلاف في تعيين سور كل مجموعة من مجموعات السور الأربع . هناك حديث عن ابن عباس ان السبع الطوال هي البقرة وال عمران والنساء والمائدة والاحقاف والاعراف . قال الراوي وذكر السابعة فسميتها . وعن مجاهد وسعيد انها يوسف وهن الحاكم انها الكهف . والمفصل يبدأ في رواية البخاري بالآية . وهناك قول انه يبدأ بالصفات وقول انه يبدأ بسورة ق وقول انه يبدأ بمجرات وقول انه يبدأ بتبارك وقول انه يبدأ بالفتح وقول انه يبدأ بالضحى . . . (٢) اسم اخر لسورة الاسراء .

١٥ - وأخرج الامام أحمد وأبو داود حديثاً عن أبي أوسى وكان قدم على النبي في وفد جاء فيه : قال لنا رسول الله قراء عليّ حزب من القرآن فأردت ان لا أخرج حتى أفضيه . فسألنا أصحاب رسول الله كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا نحزبه ثلاث سور وخمسون سور وسبع سور ونسبع سور وإحدى عشرة سورة وثلاث عشرة سورة . وحزب المفصل من سورة ق حتى نختم . وعدد السور من البقرة إلى الحجرات تسع وأربعون ومجموع عدد السور المحزبة هو تسعة وأربعون . والحديث يفيد ان سور القرآن كانت مرتبة وفاق ترتيب سور المصحف المتداول منذ حياة النبي .

١٦ - وروى حذيفة عن النبي حديثاً جاء فيه انه قرأ سور البقرة وآل عمران والنساء واحدة بعد أخرى . وهذا يفيد ان السور الثلاث كانت مرتبة في حياة النبي وفاق ترتيبها في المصحف المتداول .

١٧ - وروى البخاري حديثاً عن فاطمة ان النبي أمر اليها بأن جبريل يعارضه بالقرآن كل سنة وانه عارضه في العام الذي توفي فيه مرتين وقال لها ولا أراه إلا حضر آجلي . وروى البخاري حديثاً آخر عن أبي هريرة جاء فيه : كان القرآن يعرض على النبي كل عام مرة فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه . وقال البغوي في شرح السنة (١) ان زيدا ابن ثابت شهد العرضة الاخيرة التي بين فيها ما نسخ وما بقي وكتبها لرسول الله وقرأها عليه وكان يقرئ الناس بها حتى مات . ولذلك اعتمدته أبو بكر وعمر في جمعه وولاه عثمان كتب المصاحف . وهذا يفيد أن

النبي كان يستعرض القرآن جميعه في رمضان وانه استعرضه مرتين في رمضان الاخير وان المصحف الذي كتبه زيد في عهد أبي بكر لما كان وفقاً لذلك نصاً وترتيباً .

١٨ - وروى النسائي عن عبد الله بن عمر حديثاً جاء فيه : جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة فبلغ النبي فقال اقرأه في شهر . وقد روي عن بن عمر انه قال : قال لي رسول الله اقرأ القرآن في شهر قلت إني أجد قوة . قال اقرأه في عشر . قلت إني أجد قوة . قال اقرأه في سبع ولا ترد . وقد روي عن ابن مسعود حديث جاء فيه : لا تقرأوا القرآن في أقل من ثلاث ، وروى عن سعيد بن المنذر حديث جاء فيه قلت يا رسول الله أقرأ القرآن في ثلاث قال نعم إن استطعت . وروى عن فليس بن صعصعة حديث جاء فيه : قلت يا رسول الله في كم اقرأ القرآن قال في خمسة عشر قلت إني أجدني أقوى من ذلك قال اقرأه في جمعة . وهناك روايات قد ذكر أسماء صحابه عديدين كانوا يحفظون القرآن جميعه مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الله بن مسعود ومعاذ وسالم وأبي الدرداء وزيد بن ثابت وطلحة وسعد وحذيفة وأبي هريرة وعائشة وحفصة وأم سلمة وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وسعيد بن المنذر وقيس بن صعصعة . ولا شك في ان هذه الأسماء ليست كل الأسماء وإنما هي التي نقلتها الروايات . وقد جاء في البخاري في حديث شهداء بئر معونة . ان بعض العرب جاؤوا يطلبون مدداً من النبي فأرسل معهم سبعين من الانصار ممن كانوا يسمون القراء في زمنهم . وفي حديث جمع القرآن في عهد أبي بكر إشارة الى القتل الذي استحر بالقراء والخشية من موتهم في المواطن الاخرى . فهذه الاحاديث

والروايات تفيد أولاً ان القرآن كان محفوظاً في الصدور ومدونة في الصحف في ترتيب ثابت آيات في سور وسور في تسلسل لان حفظ القرآن لا يمكن ان يتيسر إلا بذلك ، وتفيد ثانياً انه كان من الصحابة من يواظب على تلاوته تعبداً وتفقها ، وتفيد ثالثاً ان طبقة القراء والحفاظ كانت كثيرة العدد في حياة النبي .

١٩ - واخرج الحاكم عن عبد الله بن قسطنطين انه قرأ ختمة على عبد الله بن كثير وهذا إمام من أئمة القراء وهو تابعي فلما بلغ الضحى قال كبر حتى تختم واخبره انه قرأ على مجاهد فأمره بذلك وان مجاهداً اخبره انه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك وان ابن عباس اخبره انه قرأ على أبي فامر به بذلك ، وان أبيا اخبر ابن عباس انه قرأ على النبي فامر به بذلك . وقد روي عن الامام الشافعي انه قال اذا تركت التكبير فقد تركت سنة من سنن نبيك . وهذا وذاك يفيد ان القرآن كان مرتب السور في حياة النبي وفاق ترتيب المصحف المتداول .

٢٠ - وروى ابو منصور الأرجاني في كتاب فضائل القرآن ان النبي كان يقول عند ختم القرآن اللهم ارحمني بالقرآن واجعله لي إماماً ونوراً وهدى ورحمة . اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت وارزقني تلاوته أثناء الليل والنهار واجعله حجة لي يا رب العالمين . وهذا يفيد ما تفيدته الاحاديث السابقة آنفاً .

٢١ - وفي مسند الامام أحمد حديث عن عبد الله بن مسعود جاء فيه انه سمع من ثم رسول الله بضعاً وسبعين سورة . وهذا يفيد ان ما يقرب من ثلثي سور القرآن كان معروف الشخصية تام الترتيب في اياته منذ حياة النبي عليه السلام .

٢٢ - وفي حديث بخاري ان ابن عباس قال انه جمع الحكم في عهد رسول الله فسأله الراوي عن الحكم فقال الفصل . وكان ابن عباس صبياً في حياة النبي كما هو معروف . وهذا يفيد ان السور كانت مرتبة وفاق ترتيبها المتداول الطوال فالمثوث فالمتاني فالفصل ، وان للقران كان يحفظ على ما اعتيد حفظه الى اليوم الأقصر اولاً . .

٢٣ - واخرج الحاكم حديثاً عن ابن عباس وصف بانه صحيح انه قال كان النبي اذا جاءه جبريل فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم علم انها سورة وورده حديث اخر عن ابن عباس جاء فيه كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم . واخرج البيهقي عن ابن مسعود انه قال كنا لا نعلم فصلاً بين سورتين حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم . وهذا يفيد ان شخصيات السور او بالاحرى ترتيب الآيات سوراً تامة كان معروفاً في حياة النبي .

٢٤ - وقد ذكر السيوطي اقوالاً لبعض علماء القران تفيد انهم كانوا يعتقدون بصحة ما احتوته الاحاديث والروايات في هذه المجموعة من تقارير بوجه الاجمال . فقد اثر عن الحارث المحاسبي في كتاب فهم السنن قوله ان كتابة القران ليست محدثة فان النبي كان يأمر بكتابه . وقال ابو بكر الأنباري ان انساق السور كانت اساق الآيات والحروف كله عن النبي فمن قدم سورة أو اخرها فقد افسد نظم القران . وقال الامام مالك برواية ابن وهب إنما ألف القران على ما كانوا يسمعون من النبي . وقال البيهقي كان القران على عهد رسول الله مرتباً سورة واياته على هذا الترتيب وقال البغوي في شرح السنة ان الصحابة قد جمعوا بين الدفتين القران الذي انزله الله على رسوله من غير ان زادوا وقصوا منه شيئاً خوف ذهاب

بعضه بذهاب حفاظه فكتبوه كما سمعوه من رسول الله من غير ان قدموا شيئاً او اخره او وضعوا ترتيباً لم يأخذوه عن رسول الله وكان رسول الله يلقي اصحابه ويعلمهم ما نزل عليه على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل عليه السلام على ذلك . وقال ابن الحصار ان ترتيب السور في وضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي فكان رسول الله يقول ضعوا آية كذا في موضع كذا . وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله وبما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف .

٢٥ - وقال ابو بكر الباقلاني (١) والذي نذهب اليه ان جميع القرآن الذي انزل الله وامر بإثباته ورسمه ولم ينسخه ولم يرفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي بين الدفتين الذي حواه مصحف عثمان ، وان ترتيبه ونظمه كلاهما ثابت على ما نظمه الله سبحانه ورتبه عليه رسوله من أي وسور لم يقدّم من ذلك مؤخر ولا أقر منه مقدّم وان الامة ضبطت عن النبي ترتيب أي كل سورة ومواضعها كما ضبطت عنه نفس القراءة وذات التلاوة .

٢٦ - وقال العالم المذكور في كتابه الانتصار : لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين وإنما قصد جمعه على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي والفاء ما ليس كذلك واخذهم بمصحف واحد مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعده .

٢٧ - وقال ابن الجوزي وإنما لم يجمع رسول الله لانه كان بمعرض ان ينسخ منه او يزداد عليه فلو جمعه كان الذي عنده نقص ينكر على من

(١) الكلمات الحسان

عنده زيادة . فلما امن هذا الامر بموته جمعه ابو بكر . ولم يصنع عثمان في القرآن شيئاً . وانما اخذ الصحف التي وضعت عند حفصة واسر زيداً بن ثابت وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن الحارث بن هشام وسعيد بن العاص واني ابن كعب في اثني عشر رجلاً من قريش والانصار فكتب منها مصاحف وسيرها للامصار .

- ٤ -

تعليقات على الروايات والاقوال وترجيح تدوين وتوحيب القرآن
في عهد النبي وموجعات ذلك

ومن الحق ان نقول ان في المجموعات الثلاث التي أوردناها ما ليس موثقاً بالاسناد القوية ، وما يتحمل النظر والتوقف ، ومنها ما يتعارض بعض ما جاء في مجموعة منه مع بعض ما جاء في نفس المجموعة ، ومنها ما يصطبغ بصبغة الاهواء الحزبية الاولى أو فيه رائحتها ، ومنها ما يبدو عليه قرائن قصد التوفيق او التلفيق ؛ غير ان من الحق ان يقال ان المجموعة الثالثة اكثر ثبوتاً في الاجمال من جهة واكثر اتساقاً مع طبائع الامور والظروف من جهة اخرى .

فالقران اعظم مظاهر النبوة ومعجزتها الخالدة ، وكان مدار الاحتجاج والدعوة مع العرب والكتابين الذين كانت لهم كتبهم المتداولة في ابدعهم وقد تكرر في القران كثيراً الاشارة الى كتب الكتابين من جهة وذكر الكتاب بمعنى القران كثيراً من جهة اخرى ؛ فلا يعقل في حال ان يحل النبي عليه السلام تدوين ما كان ينزل عليه من الوحي القراني ، والعناية بهذا التدوين عناية فائقة ، والحرص على حفظ المدونات حرصاً شديداً بل والمعقول ان يكون ذلك من امهات مشاغل النبي المستمرة ايضاً

وهذا يجعلنا نعتقد ان ما روي من ان القرآن كان يدون على قطع عظيمة الحجم ثقيلة الوزن صعبة الحمل والحفظ والترتيب كأضلاع النخيل واكتاف العظام ورفاق الجعارة والحشب لا يمكن ان يكون هو الواقع على إطلاقه ، كما ان هذا القول بطرده في ما يمكن ان يستتبع ذلك من فقدان أو نقص وسائل الكتابة اللينة المعروفة في ذلك العصر في البلاد المجاورة كالقراطس والورق والحري والقماش والرقوق الناعمة المسواة . ولقد قيل فيما قيل ان نطاق القراءة والكتابة كان ضيقاً جداً في مكة والمدينة بما يمكن ان يظن ان هذا متصل بالنقطة الاولى أو من أسبابها . وهذا ايضا لا يمكن التسليم بصحته على إطلاقه كذلك .

ونحن لا نرسل هذا النفي جزافاً . فالثابت علمياً وبصورة لا تقبل المراء ان الخط العربي الذي كان مستعملاً في بيئة النبي وعصره يمتد وجوده الى عشرات السنين قبل بعثته كما انه متطور عن اشكال لخطوط اخرى كان يستعملها عرب الشام واليمن ، وكذلك فان من الثابت علمياً ان ذلك الخط كان منتشراً بمقياس غير ضيق في بلاد الشام واليمن والحجاز والعراق حتى كان يشمل بدو هذه البلاد ولو بمقياس ضيق . وما جاء في بعض الكتب العربية عن نشأة الخط العربي ووصوله الى الحجاز وضيق انتشاره فيه ضيقاً شديداً هو تخليط لا يتحمل نقداً (١)

والبيئة الحجازية الى هذا وخاصة مكة والمدينة كانت بيئة تجارية متصلة بالبلاد المجاورة التي كانت تتمتع بحظ غير يسير من الحضارة والثقافة

(١) اقرأ مثلا العهد الفريد ج ٣ ص ٢٠٢ . وثمة على ان المستشرق الطلياني كاپاني في كتابه تاريخ الاسلام خلاصاً لما في نشأة الخط العربي وانتشاره مستنداً الى دراسات ومكتشفات واتار حاسمة .

وكانت فيها جاليات كتابية نصرانية ويهودية نازحة من تلك البلاد وكانت تتداول الكتب الدينية وغير الدينية قراءة وكتابة . فلا يعقل ان يظل العرب اهل هذه البيئة غافلين عن اقتباس وسيلة من أشد الوسائل ضرورة الى الاشتغال التجارية ومن اعظم مظاهر الحضارة التي اقتبسوا منها من البلاد المجاورة الشيء الكثير (١) .

وهناك رواية مشهورة وهي ان اسرى قريش الفقراء في رقعة بدر الذين لم يستطيعوا ان يدفعوا فدية نقدية كلفوا بتعليم بعض اطفال المسلمين في المدينة القراءة والكتابة ، فاذا كان فقراء اهل مكة يقرأون ويكتبون فأولى ان يكون كذلك أغنياؤها وتجارها ونباؤها وان تكون القراءة والكتابة بما هو مألوف ومنشور بنطاق غير ضيق .

ويضاف الى هذا ما هو اقوى دلالة وهو محتويات القرآن . ففيه آيات كثيرة جداً احتوت تنويرها بالعلم والقراءة والكتابة وحضت عليها وحضت خاصة على تدوين المعاملات التجارية نقداً وديناً وصغيرة وكبيرة كما ان فيه آيات عديدة حكمت اقوال المشركون المكيين تدل على اتساع نطاق القراءة والكتابة والمعرفة بوجه عام عندهم (٢)

وبينة هذه حلالتها بالبيئات المجاورة المتقدمة التي تتيسر فيها وسائل الكتابه والقراءة المألوفة على تنوعها ، وفيها كثيرون من اهل هذه البيئات يقرأون ويكتبون ويتداولون الكتب ، وحركتها التجارية قوية واسعة ، وقد احتوى القرآن من أوصاف حياتها ومعايشها وحضارتها ووسائلها ما فيه الدلالة الوافية على انها هي ايضا كانت على درجة غير

(١) و (٢) اقرأ فصل الحياة العلمية في كتابنا عصر النبي وبعثه قبل البتة ففيه بحث منهج موثق في هذا الامر

يسيرة من الحفارة ووسائلها ، والكتابة والقراءة فيها منتشرتان بقياس
غير ضيق لا يعقل في حال ان لا يكون فيها وسائل مدنية للكتابة وان
لا يوجد ما بدون عليه القرآن الا الواح العظام ورقائق الحجارة واضلاع
النخيل وقطع الحشب . هذا بالإضافة الى أن القرآن قد احتوى كلمة
القرطاس أكثر من مرة ، ما يصح ان يكون دليلاً على أنه كان معروفاً
ومألوفاً كوسيلة للتدوين والكتابة بل ان هذه الكلمة مفردة وجمعاً قد
جاءت في سورة الانعام في سياق الكلام عن كتب الله كما ترى :

- ١ - ولو تولنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم .. الانعام ٧
- ٢ - قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى تبعملونه
- قرطاس تبديونها وتحفون كثيراً . . الانعام ٩١

فهذا النص القرآني يلهم أن الكتابة على القرطاس وكون الكتب
مؤلفة من قرطاس هو الشيء المألوف الذي لم يكن لينصوّر غيره .
كذلك فإن القرآن احتوى كلمة (الصف) ، أكثر من مرة في معرض
الإشارة الى القرآن والكتب السماوية كما ترى :

- ١ - في صف مكرمة . مرفوعة مطهرة .. عبس ١٣-١٤
- ٢ - ان هذا الذي الصف الاول صف ابراهيم وموسى . . الاعلى
- ١٨ - ١٩

٣ - بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صففاً منشرة . القيامة ٥٢
ولم يذكر احد ان كلمة الصحيفة كانت تطلق على تلك الوسائل البدائية
وانما كانت تطلق على ما كان معروفاً من وسائل الكتابة التي تحمل بسهولة
وتطوى بسهولة ويجمع بعضها الى بعض بسهولة ولعل في آية القيامة قرينة
على ان الصف كانت تنشر وتطوى ، وهو

ما لا يمكن ان يتصف به الا وسائل الكتابة اللينة كالقماش وورق القماش وورق
الحرير والرقوق الناعمة المسواة الخ . ولعل في آية سورة الانبياء هذه يوم
نظوي السماء كطي السجل للكتب . ١٠٤ ، قرينة او بالاحرى دليلا
على ان طي الورق او ما كان يقوم مقامه من وسائل الكتابة اللينة
ليكون سجلا للكتابة والتدوين كان مألوفاً شائعاً . وهذا لن يكون
الا حيث تكون الكتب والقراطيس والوسائل الكتابية اللينة الاخرى .
وبما يمكن ايراده لتقوية هذه الملهمات والقرائن هذه الآيات :

١ - إن هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما
كنتم تعملون . . . الجاثية ٢٩

٢ - أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا
نقرؤه . . . الامراء ٩٣

حيث تغاطب الاولى الناس - وعشر كومة من اول من خطبوا -
بما لا يعقل إلا ان يكون من مألوفاتهم من الكتابة واستنساخ الكتب
وحيث نحكي الثانية قول مشركي مكة بما يعبر عن مفهوم الكتاب
المكتوب المقروء المألوف والمنشر بينهم .

ولقد كثرت كافتنا الاشارات القرآنية الى كتب الكتائين وكتابتها
وتعليمها ودراستها ، وجل الكتائين الذين كانوا في الحجاز جاليات فاذة
من البلاد المجاورة التي كانت وسائل الكتابة اللينة فيها معروفة ميسورة
فلا يعقل ان تكون كتبهم هذه مكتوبة على تلك الوسائل البدائية
التيبة الضخمة ، ولا يعقل الا ان يكون النبي قد اهتم لتدوين القرآن
معجزته الكبرى على نسق ما دونت عليه كتب الكتائين . ولقد احتوت
المجموعات الثلاث روايات عديدة تفيد ان الورق والقراطيس بما استعمل

في كتابة القرآن في عهد النبي وفي عهد أبي بكر بما هو منسق مع الظروف ولا يكاد يتحمل شكاً في صحته بقطع النظر عن وثوق الروايات من الوجهة التعديلية والتجريبية . ونشير بنوع خاص الى ما كان في ايدي المسلمين من صحف ومصاحف ورقاع خاصة أمر عثمان باحراقها بعد ما فرغ من نسخ المصاحف الموحدة ليزول اهم سبب من اسباب الخلاف في القراءة بما ذكره حديث البخاري والاحراق خاصة لا يتوارد معه إلا الورق والقرطاس والرقوق بما يدل على ان التدوين على هذه الوسائل كان هو المؤلف السائغ .

على اننا لا نريد ان ننفي بالمرة ما ورد في الاحاديث العديدة عن كتابة القرآن على الألواح والاكتاف والرفائق والاديم فان من الممكن ان يكون لها اصل صحيح أيضاً ، ولكن على غير الصورة أو المقصد الذي عبرت عنه الروايات أو تركته غامضاً .

فمن المحتمل أن يكون النبي اذا استدعي أحد كتابه لاملأ ما يكون نزل عليه من وحي فوراً ان لا يكون متيسراً الا شيء من هذه الوسائل البدائية فيكتب الكاتب عليها ما يملئه النبي مؤقتاً ويثاب ينقله الى مكانه من سجلات القرآن ، مما عبر عنه زيد بن ثابت في الحديث الذي نقلناه في المجموعة الثالثة في قوله كنا نؤلف القرآن من الرقاع في عهد رسول الله . ومن المحتمل كذلك ان اصحاب رسول الله من اهل المدن أو البادية قد كانوا يكتبون بعض الفصول القرآنية التي يتلقونها عن النبي على قطعة من تلك القطع للتبرك والحفظ والنقل على اعتبار انها ابقى على الزمن واقل تعرضاً للفناء والتزيق على نحو ما اعتاد المسلمون ان يفعلوه من قديم الاجيال في كتابة الألواح مع بعض التعديل . فلما دعي المسلمون

الى الاتيان بما عندهم من قرآن بقصد زيادة الاستبصار واللبط والتعريف
والمعارضة أتوا فيما أتوا به بهذه القطع فحفظت الروايات هذه
الصورة ونقلتها .

هذا من جهة التدوين: وما نقلناه يصح إيرادُه بتمامه على ترتيب القرآن
آيات في سور وسوراً في تسلسل أيضاً . فالنبي الذي لا شك في أن القرآن
كان من أهم مشاغله لا يمكن أن يكون قد أهمل ترتيبه وترك مدوناته
مشوشة فوضى لا يعرف لها أول من آخر سواء في التدوين أو في القراءة
والتعليم : ولا بد من أن يكون قد عني بترتيبه نفس العناية الفائقة التي
كانت منه بتدوينه وحفظ مدوناته

ولقد قال بعض علماء القرآن كما جاء في كلام الخطابي الذي أوردناه
في المجموعة الأولى أن استمرار الوحي في حياة النبي كان سبباً في عدم
ترتيبه . والذي يتبادر لنا أن هذا لا يوجب عدم ترتيب القرآن آيات
في سور وسوراً في تسلسل : فإن من السائع جداً أن يكون الترتيب
النهائي قد تم في أخريات حياة النبي ، وبعد نزول سورة النصر التي أذنت
بفتح الله ونصره ودخول الناس في دينه أفواجا ، وبالتالي أذنت بانتهاء
مهمة النبي . وقد احتوت أحاديث معارضة النبي للقرآن في رمضان
الآخر مرتين وكتابته من قبل زيد ما يستأنس به على ذلك : كما أن
من السائع جداً أن يصح احتمال إضافة ما يمكن أن يكون نزل بعد هذا
الترتيب من آيات الى مواضع مناسبة لما في السور .

وفي الأحاديث التي نقلناها في المجموعة الثالثة ما يستأنس به على وقوع
شيء من هذا فعلاً : فلما تحقق النبي عليه السلام بالرفيق الأعلى صار ما

كان ثابتاً من القرآن هو القرآن النام ، وصار من واجب خليفة النبي
الاول وكبار اصحابه الاهتمام لضبطه وجمعه كاملاً ، وتحرير نسخة
تكون اماماً كاملاً محفوظاً عند امام المسلمين وخليفة نبيهم وتكون
مرجعا عند الخلاف وضماناً من الطواريء والضبايح : وانتقال النسخة
التي كتبت في عهد أبي بكر الى عهدة عمر بن الخطاب الخليفة الثاني
وحفظها عند حفصة حينما اغتيل والدها عمر من القران القوية
على ذلك .

ولسنا نرى أن ما نقرره يمكن ان ينقض ايضاً بما جاء في حديث زيد
ابن ثابت من انه تتبع القرآن فجمعه من العسب والقفاف وصدور الرجال
ولا يفنده افتقاد آخر آيتي سورة التوبة وعدم وجودهما الا عند أبي حذيفة
ولا بما جاء في حديث مصاحف عثمان من افتقاد زيد آية الاحزاب وعدم
وجودها الا عند حذيفة أو بما جاء في حديث آخر أن الناس دعوا الى
الاثنيان بما عندهم ولم يكن يقبل من احد شبه الا بشهادتين ، فهذا كله
لا يقتضي أن لا يكون للقرآن مدونات مرتبة محفوظة في بيت النبي بما
ألقي من الرقاع ومدونات مرتبة محفوظة كذلك عند كبار اصحاب
وصول الله وقراءتهم ، بل يصح - ونحن نجزم بذلك - ان يكون هذا
كله من قبيل الاحتياط والحرص الشديد على الضبط والتحرير . ولقد كان
من المحتمل ان يختلط الامر على بعض الصحابة في بعض الآيات ، وان
يكون بعضهم ما يزال يحفظ آيات قد نسخت أو يحتفظ برقاها بما هو طبيعي
كما أن من المحتمل ان يكون مما استهدف معارضة مدونات القرآن المختلفة
عند مختلف القراء مع بعضها لاتقان الضبط والتحرير ، فكان هذا
التشدد والحرص العظيان المتناسبان مع موضوع تفوق خطورته أي

موضوع آخر ، واللذان يصحان ان يكونا مثلاً رائعا للتدقيق والفحص
والتحري العلمي .

ومن النقاط المهمة الجديرة بالتنبيه في هذا المقام أنه لم يرد أي حديث
منسوب الى النبي عليه السلام او اصحابه المعروفين يمكن ان يفيد أن
القرآن لم يكن مرتب الآيات والسور ومعروف الترتيب في حياة النبي ،
وكل ما جاء في هذا الباب تعليقات وتخمينات متأخرة . وحديثنا البخاري
في كتابة المصحف في عهد أبي بكر ونسخه في عهد عثمان وهما المعول
الاقوى والاشهر قد خلوا من اي اشارة ذاتي لك ، بل فيهما على ما اوردهما
في المجموعة الثالثة ما يؤيد كون آيات القرآن معروفة الترتيب منذ حياة
النبي ، وتنبيه بنوع خاص على أن حديث نسخ المصحف في عهد عثمان
حريص جداً بأن ما كان ليس جمعا او تدوينا جديدا كما توهمه الحاكم على
ما اوردهما في المجموعة الاولى وانما هو نسخ طبق الاصل عن مصحف
أبي بكر ، وبأن القصد منه ضبط كتابة الفاظ القرآن من حيث الاملاء
وتوحيدها حتى لا يكون محل للاختلاف في قراءتها ، حيث كانت
المصاحف والمصحف التي في ايدي الناس مكتوبة بخطوط متنوعة من
المعقول جداً ان تكون متخالفة الاملاء والنسخ ، وهو ما أدى الى الخلاف
والفرع منه فعلا .

وما دام القرآن قد جمع وضبط وحرر في عهد أبي بكر على ملا من
الصعابة وخاصة كبارهم ، وفي وقت يكاد يكون فوراً بعد وفاة النبي ،
وعلى هذا الوجه من الحرص والتحري الشديدين دون ان يكون أي
إشارة إلى قصد ترتيب الآيات او السور فانه يصح ان يقال يجزم إن دفني
المصحف الذي حرر قد احتوتا كل ما ثبت عند كبار الصعابة وقراءهم

وحفاظهم بل وكل من شهد العمل منهم أنه القرآن الذي مات النبي عنه وهو ثابت لم ينسخ بترتيبه المعروف في حياته . وما دام النسخ الذي جرى في عهد عثمان إنما كان عن هذا المصحف وكان هذا أيضا على ملأ من الصحابة والقراء والحفاظ وبمعرفة علماء القرآن منهم ، ولم يكن الباعث عليه إلا إيجاد امام يضبط فيه الاملاء والقراءة ويجمع به الناس على رسم واحد ، وما دامت المصاحف المتداولة في ايدي المسلمين هي طبق هذا المصحف الامام كما هو ثابت بالتواتر الفعلي الذي لم ينقطع والذي هو يقيني - باستثناء بعض التنظيمات الشكلية على ما سوف نذكره بعد - فهي بطبيعة الحال طبق مصحف ابي بكر من حيث الالفاظ والايات والسور وترتيبها ، وبالتالي طبق ما مات النبي عنه من قرآن ثابت بترتيبه وتسلسله .

واذا كان من المحتمل أن لا تكون احدى نسخ مصاحف عثمان الاصلية موجودة اليوم - مع ما يقال عن وجود بعضها قولا غير مؤيد بشاهد ووصف عياشي موثوقين - فان هذا لا ينقض ما نقوله من التواتر الفعلي . ولقد ذكر علماء قديمون أنهم شاهدوا بعض هذه النسخ ، وقرروا أن المصاحف المتداولة هي صورة تامة عنها رسما وترتيبا . ومن أقدم من ذكر ذلك أبو القاسم عبيد الله بن سلام من علماء القرن الهجري الثاني الموثوقين ومحدثيهم . وتقرير هذا العالم يهدم كل قول حول التشكيك في مصحف عثمان وكون المصحف المتداول هو صورة تامة صحيحة عنه ، وحول رواية أن المصحف المتداول إنما هو مصحف الحجاج وجمعه وترتيبه إذا كان يراد بذلك جمعا وترتيبا جديدين ، وان الحجاج قد جمع المصاحف المتداولة ومصاحف عثمان وأبادهما . ولعل الرواية محرفة عن

حادثة غناية الحجاج بأعجام القرآن أو نقطه ، ما صار نساخ المصاحف بعدها يأخذون به . فقد انتشر المسلمون في عهد الحجاج اكثر من ذي قبل في انحاء الارض ، وانتشرت نسخ القرآن العثمانية كذلك ، فلم يكن في إمكان الحجاج جمع المصاحف المتداولة وابادتها البتة ، ولم يقل أحد انه رأى مصحفا للحجاج فيه تغاير ما مع المصحف العثماني في نصه وترتيبه ، ولو كان وقع شيء من هذا لاهتم له اعداء الامويين والحجاج الذين بذلوا كل جهد في تشويه سيرتهم وتسويهم سمعتهم بالحق وبالباطل وتعقب كل عمل أو بادرة منهم ، ولرأينا في رأس المطاعن التي يطعنونهم بها . وقد قال أحد اعلام علماء الشيعة ومشهورهم وكبار مفسريهم الامام الشيخ محمد بن الحسن الطوسي صاحب تفسير التبيان ومن رجال القرنين الرابع والخامس الهجريين في مقدمة تفسيره بصدده الكلام في زيادة القرآن المتداول ونقصه ، وأما الكلام في زيادته ونقصانه فيما لا يليق به ايضا لان الزيادة فيه مجمع على بطلانه والنقصان منه فالظاهر ايضا من مذهب المسلمين خلافه وهو الالبق بالصحيح من مذهبنا ، وهو الذي نصره المرتضى رحمة الله عليه ، والظاهر في الروايات .

والروايات التي رويت من جهة الخاصة والعامة بنقصان آيات منه او نقلها من موضع الى موضع فطريقها الاحاد التي لا توجب علما ولا عملا . والاولى الاعراض عنها وترك التشاغل بها .

ولو صحت لما كان ذلك طعنا على ما هو موجود بين الدفتين اذ كان ذلك معلوما صحته لا يعترضه أحد من الامة ولا يدفعه .

ومع كل هذا فما روي ان الحجاج لما صحح اثني عشرة كلمة في

مصنف عثمان هي هذه : « لم يتسن » حيث جعلها « لم يتسنه » (١) و « شريعة » حيث جعلها « شرعة » (٢) و « ينشركم » حيث جعلها « يسيركم » (٣) و « آتيكم » حيث جعلها « أتبشكم » (٤) و « معايشهم » حيث جعلها « معيشتهم » (٥) و « غير يأسن » حيث جعلها « غير آسن » (٦) و « اتقوا » حيث جعلها « وانفقوا » (٧) و « سيقولون لله » حيث جعلها « سيقولون الله » (٨) و « بظنين » حيث جعلها « بضنين » (٩) ونقل كلمة « المرجومين » و « المخرجين » في آيتي الشعراء ١١٦ و ١٦٧ كلا منهما مكان الاخرى فصارث المرجومين في قصة نوح والمخرجين في قصة لوط وانه لم يصنع ما صنعه الا بعد اجتهاد وبحث مع القراء والفقهاء المعاصرين له وبعد اجماعهم على أن جميع ذلك من تحريف الكتاب والناسخين الذين لم يريدوا تغييرا أو تبديلا وانما حدث بعض ما حدث لجهلهم باصول الكتابة وقواعد الاملاء والبعض الآخر خطأ الكاتب في سماع ما يملئ عليه او التباسه في ما يتلى عليه (١٠).

هذا في حين ان هناك رواية (١١) تفيد ان بعض ما صححه الحجاج انما صححه عثمان نفسه مثل لم يتسن حيث جعلها لم يتسنه .

وبكلمة اخرى إن الحجاج لم يكتب مصحفا جديدا ولم يضع ترتيبا جديدا ، وان تسمية « مصحف الحجاج » ليست في محلها حتى لو صحت

-
- (١) البقرة ٢٥٩ (٢) المائدة ٤٨ (٣) يونس ٧٢ (٤) يوسف ٤٥
(٥) الزخرف ٣٢ (٦) محمد ١٥ (٧) الحديد ٧ (٨) المؤمنون ٨٧
و ٨٩ (٩) التکویر ٧٤ (١٠) الفرقان لابن الخطيب ٥٠ - ٥٢
(١) الفرقان ايضا ٤٠

رواية تصحيحه لبعض كلمات وحروف رأى فيها مع القراء والعلماء تحريفاً من النسخ : هذا بقطع النظر عن ضعف رواية مصنف الحجاج وعدم ثباتها وعدم تعليق الشيعيين عليها تعليقا جالبا للنظر على طريقتهم في التعليقات وخاصة إذا ما كان الأمر متصلا بالأمويين ورجالهم وفيه مجال لقول أو غمز أو تعليق

- ٦ -

وعلى هذا كله فكل ما يتعارض مع النتائج التي قررناها من الروايات هو موضع نظر وتوقف أو محمل تحريج . وفي الحق إننا إذا نظرنا في الروايات المناقضة لهذه النتائج نجد ما كلها أو جلها غير وارد في كتب الحديث الصحيحة . وكثير منها لم يذكر له اسناد متسلسلة معدلة، وفيها من التناقض والتغاير ما يحمل على الشك في صحة روايتها أو متونها .

فحديث زيد عن تأليف القرآن من الرقاق أقوى سنداً وأكثر اتساقاً مع المنطق من حديثه الذي جاء فيه أن النبي قبض ولم يكن القرآن قد جمع في شيء ، حتى إذا صح فيجب حمله على جمع القرآن في مصحف واحد كما علق على ذلك الخطابي على ما ذكرناه سابقاً . وهذا المعنى هو ما يجب تحريج ما جاء في حديث جمع القرآن في عهد أبي بكر به من المراجعة بين أبي بكر وعمر ثم بين أبي بكر وزيد .

وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود من كبار الصحابة وعلماء القرآن الاعلام ، فلا يعقل أن يكون جمع القرآن وتحريره وضبطه في عهد أبي بكر ثم نسخه في عهد عثمان قد تم دون اشتراكهم أو علمهم ، ولا يعقل

أن يرمى بأقوالهم عرض الحائط في زيادة أو نقص في الآيات والكلمات
 والسور لو كان لهم في ذلك رأي وقول حقا ، ولا يعقل أن يكونا قد
 انفردا دون سائر الصحابة في العلم بزيادة أو نقص في القرآن أو أن
 تكون شهادتهما قد ردت أو أن يكونا قد عجزا عن إثبات قولهم .
 وإذا سلمنا بهذا جدلا مع ذلك فالمعقول أن ما يكونان قد ذكراه لم
 يثبت عند ملأ الصحابة فلم يؤخذ به . وما دام الامر قد تم على ما ثبت
 عند ملأ الصحابة واجمعوا عليه فلا يعقل أن يكونا قد اصرأ على مخالفة
 اجماع الصحابة وكبارهم وخلفاء رسول الله فاحتفظا بصحفيهما وزوائدهما
 ونواقصهما وتغايرهما للترتيب الثابت وأن لا يكونا قد أطاعا خليفة
 رسول الله فأحرقا ما عندهما كما أحرق الناس ما عندهم . وهذا ما يجعلنا
 نشك في بقاء مصحفين لهما مخالفين لمصحف عثمان وسمما وتوتيبا وعدد سور
 وكلمات حتى وصل علم ذلك أو عيانه الى وقت متأخر . ونرجع ان لم
 نقل نعتقد أن كل هذا مخترع فيما بعد بقصد التشويش والتشكيك من
 أعداء الاسلام وان في بعضه أثرا للعزبية السياسية . وقد قال بعض علماء
 اعلام أقوالا وجيبة في هذا الباب : فقال النووي ان المسلمين أجمعوا
 على ان المعوذتين والفاتحة من القرآن وأن من جحد منها شيئا كفر وما
 نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح . وقال الرازي الاغلب ان نقل
 هذا عن ابن مسعود باطل لان النقل المتواتر حاصل في عصر الصحابة أنها
 من القرآن فانكار ذلك يوجب الكفر . وان قلنا ليس التواتر حاصلا في
 ذلك الزمن . فلزم ان القرآن ليس بمتواتر في الاصل وهذا خلاف الاجماع
 وقال ابن حزم هذا كذب على ابن مسعود وموضوع ، وانما صح عنه

قراءة عاصم عن زر عنه وفيها الموهذان والفاطحة .

والسورتان المسهات بالخلف والخلع هما دعاء قنوت ورواية مر لها صريحة بأنه انما قنت بهما بعد قيامه من الركوع . فمن المحتمل حتي في حالة صحة القول بها من أبي - وهو ما نشك فيه - أن يكون أبي قد وهم ثم رجع عن ذلك حينما ثبت عند الملائكة لبيستا قرآنا فظل أثر القول قائما متداولاً

وعبر القوي الشديد في إيمانه ومركزه بين الصحابة والذي دعا الى ضبط القرآن وتحريمه وحفظه أجل من أن ترد له شهادة بشأن آية الرجم وأقوى من أن يسكت على عدم إثبات آية يعتقد أن النبي مات وهي قرآن لم تنسخ . ولذلك فإن رواية رد آية الرجم منه لانه أتى بها وحده بما يتحمل كل الشك ولا سيما ان هناك رواية تقول إنه قبل من أبي خزيمة آيتا سورة التوبة الاخيرتين بشهادته وحده . ومثل هذا غرابة وموضع شك شديد رواية أنه ظل يعتقد أنها قرآن بعد أن صارت الخلافة اليه ، يضاف الى هذا ان تعدد روايات آية الرجم وتباين صيغتها بما يشير الشك فيها ، وانه ليس من المعقول أن ينفرد عمر أو صحابي أو صحابياني في علم قرآنية هذه الآية التي تحتوي تشريعا خطيرا دون سائر الناس أو أن يتواطأ هذا الملا على عدم اثباتها . وكل ما يمكن فرضه أنها كانت آية فنسخت في حياة النبي .

ومثل هذا القول يصح في ما ورد عن عائشة سواء في صدد كلمة « صلاة العصر » او في صدد آيات سورة الاحزاب . فانها أجل من أن ترفض شهادتها او تسكت عن عدم إثبات آية أو كلمة او آيات تعتقد أنها قرآن باق بعد النبي . واذا كان ورود حديثها عن صلاة العصر في

الموطأ بما يقويه فينبغي أن يلاحظ أن في الموطأ حديثاً مثله حرفياً عن حفصة . وأن هذا التشابه مما يبيح على الحيرة والتوقف . وهذا بالإضافة الى احتمال أن تكون الجملة تفسيرية أو أن تكون نسخت ولم يثبت بقاؤها عند ملاء الصعابة . ومن غير المعقول أن تخالف عائشة الإجماع فتبقي أو تكتب في مصنفها ما لم يثبت في المصنف الامام .

وهذا القول يصح بتمامه كذلك بالنسبة للروايات المروية عن الكلمات الزائدة في بعض الآيات أو الكلمات المبدلة المعزوة الى بعض الصعابة بقطع النظر عن احتمال الغلط والدس وقصد التشويه والنشويش وعن عدم استناد الروايات الى اسناد موثقة .

ورواية مصنف علي ومخالفته لترتيب المصنف المتداول موضع شك كبير ايضاً . فانه لم يرد أي رواية صحيحة تفيد أن احداً اطلع على هذا المصنف أو رآه متداولاً . وقد روى عن ابن سيرين وهو تابعي انه تخبرني هذا المصنف في كل طرف في المدينة فلم يقع عليه ، ولو كان صحيحاً لعض عليه الشيعة بالتواجد كما عضوا على أوهي ما ورد في صده مخالفة أبي بكر وعمر وعثمان ، ولم يرو عنهم شيء من هذا . وفي المجموعتين الأولى والثانية روايات عن ثناء علي على أبي بكر وعثمان على ما قاما به من عمل عظيم في صده جمع القرآن وتحريره ونسخ مصاحفه .

فليس والحالة هذه أي مسوغ للشك في كون المصنف المتداول قد احتوى جميع القرآن الذي مات النبي عنه وهو قرآن ثابت نصاً وترتيباً بسبب أي رواية من الروايات المائلة بما قد لا نكون اطلعنا عليها ، ونعتقد أن أي رواية من مثل ذلك لن تكون إلا مخترعة أو مدسوسة بقصد حبي أو ناتجة عن لبس وخطأ على أقل تقدير . فإن بما لا يصح أن يشك

فيه أن أصحاب رسول الله قد حرصوا كل الحرص واهتموا أشد الاهتمام
 للقيام على أمر تحريره وضبطه على أحسن وجه وأقومه ، وانهم تضامنوا
 في ذلك كل التضامن حتى كان مصحف أبي بكر الامام المتطابق لما مات
 النبي عنه نصاً وترتيباً ، وانهم كانوا مسوقين في حرصهم واهتمامهم بسائق
 ديني ملك عليهم مشاعرهم وهبة وهيبة وتقديساً وتعظيماً يبدور واضحاً لكل
 من دقق في ما ورد عن أصحاب رسول الله وأولي الشأن فيهم من ثناء
 وتنويه في القرآن ومن ثناء وتنويه من النبي ومن وصف شدة فناءهم —م
 واستغراقهم في النبي، وعمق إيمانهم بنبوته وبصلة القرآن . بالوحي القرآني
 فالعمل لم يكن عملاً شخصياً أو سياسياً بل عمل متصل بأقوى عهد الدين وأعظم
 مظاهر النبوة وأكبر تراث خلفه النبي فيهم ، فمن المعقول الحق أن
 يكون حرصهم على استقصائه وتحريره وضبطه أشد حرص وأقومه وأتمه .
 وننبه على أننا استعملنا تعبير « جميع ما مات النبي عنه وهو قرآن »
 ولم نستعمل تعبير « جميع القرآن الذي نزل على النبي » قصداً لآل في
 القرآن نصوصاً صريحة مكينة ومدنية مثل :

- ١ - ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها «البقرة ١٠٦»
 - ٢ - وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل « النحل ١٠١ »
- تفيد أنه وقع بعض التبديل والنسخ في بعض آيات القرآن في عهدي
 النبي المكي والمدني بوحي الله بما هو مؤيد بأحاديث عديدة مثل حديث
 مروى عن أبي موسى الأشعري جاء فيه «نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت»
 ومثل حديث أخرجه الطبراني عن ابن عمر جاء فيه ان النبي أقرأ وجليته
 سورة فكانوا يقرآن بها فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرفه

فأصبحا غاديين على رسول الله فذكرا له ذلك فقال إنما مما نسخ فاهلوا
عنها ، ومثل حديث رواه البخاري عن انس انه نزل في قصة اصحاب
بئر معونة قرآن قرأناه ثم رفع الخ

- ٧ -

ولقد ادرنا الكلام في الفقر السابقة في نطاق الروايات المروية المتعارضة
- والتعليقات الواردة عليها ، وما يتسق مع طبائع الامور والظروف
وما لا يتسق. ونقول الآن ان في القرآن ملهات تؤيد النتائج التي قررناها،
وتوثق الروايات التي تستند اليها ، وتدل او تقوم قرينة على ان القرآن
كان بدون بانتظام ويحفظ بانتظام وان آياته قد رتب في السور وسوره
قد رتب في تسلسل في حياة النبي عليه السلام - بعد جديدا في هذا
الباب لم نطلع على مثله .

فأولا ان في بعض السور آيات احتوت قرائن قوية على ان ما كان
ينزل من القرآن كان بدون حال نزوله وأن مدوناته كانت تحفظ وتتل
على ملا الناس :

١ - ففي سورة القيامة الآيات التالية :

« لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه
فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ١٦ - ١٩ فهذه الآيات جاءت معترضة بين
آيات متعل قبلها بما بعدها اتصال موضوع وخطاب ونظم ، في حين انه
غير متصل هذه الآيات موضوعا ولا خطابيا ولا نظما كما يبدو حين قراة

وقد روي بناسبتها حديث يستفاد منه انها نزلت على النبي لانه كان حينما يتلقى وحي القرآن يحرك شفثيه بما ينزل على قلبه خشية نسيانه . ووجود هذه الآيات في موضعها يلهم بقوة انها اوجبت الى النبي في اثناء نزول الآيات التي قبلها والتي بعدها . ولا يصح فرض غير هذا فيما نعتقد لفهم حكمة وجودها في السياق ، ولا مناص من فرض ثان مع الفرض اولال وهو أن النبي أمر بتدوين آيات السورة فور وحيها ، وأملى على الكاتب هذه الآيات في سياق آيات السورة لانها اوجبت اليه مع آيات السورة ، مع انها كانت خطابا خاصاً له وبقصد تعليمه كيفية تلقي الوحي فدونت كما جاءت . وفي هذه الآيات في موضعها ملهيات اخرى عظيمة الخطورة ايضا في حدد القرآن ، فهي تقف امام اي شك حتى من اشد الناس تشككاً بان ما كان يبلغه النبي من آيات القرآن انما كان وحياً يشعر به في اعماق نفسه ويدركه ويستمتع اليه باذن بصيرته ويعيه بقلبه ، وهي تبين مقدار عظيم حرصه على ان لا يفلت منه اي كلمة او حرف أو معنى مما كان يوحى اليه به قرآناً فكان يسارع الى تدوينه واملائه حتى يبلغه تماماً كاملاً لا تبدل فيه ولا زيادة ولا نقصاً ولا تقدماً ولا تأخيراً .

(١) لا اسم يوم القيامة . ولا اقم بالنفس اللوامة . ايجب الانسان ان لن نجعل عظامه . بلي فادري على ان لسوى بناله . بل يريد الانسان ليفجر امامه . يسأل ايان يوم القيامة . فاذا برق البصر . وخف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الانسان يومئذ اى الممر . كلا لاوذر . الى ربك يومئذ المستقر . ينأ الانسان يومئذ بما قسم وآخر . بل الانسان على نادء بصيرة . ولو الى ماذير . لا تحرك به لئلاك لتسجل به . ان علينا جمعه وقرائه . فاذا قرأناه فانبع فراه . ثم ان علينا يياه . كلا بل تجون لاجل . وتلدون الآخرة وجوه يومئذ فاضرة . الى ربها ناظرة الخ ...

وهي تقرر معنى من معاني العصمة النبوية في حده ما يبلغه النبي من وحي القرآن الرباني في توكيدها بان الله سيثبت في قلبه ما يلقي عليه ويجعله يحيط به ويلهمه فهمه وبيانه ، فالنبي بهذا قد عصم من الخط والنسيان والخطأ والتقديم والتأخير والزيادة والنقص في القرآن ، فكل ما بلغه من آيات القرآن هو وحي رباني ، وقد بلغ كل ما أوحى اليه به بتمامه وحرفيته . ولعلها تقوم قرينة على ان لا محل ولا معنى للقول إن القرآن نزل على النبي بالمعنى لا باللفظ ايضا . واذا لاحظنا ان ضمير الآيات هو ضمير المتكلم وان القرآن كلام الله واوامره امكنا ان نقول إن في الآيات دلالة على ان القرآن كان وحيا ربانياً مباشراً ينقذف في قلب النبي فيعيه ويبلغه ، او على الأقل إن هذه الطريقة من الطرق التي كان يوحى الله الى النبي بما يشاء ان يوحى اليه به وهذا القول يتسق مع طرائق اتصال الله بانبيائه على ما جاء في آيات سورة الشورى (٥١ ٥٢) التي شرحناها في بحث سابق . كذلك فان هذه الآيات تفيد أن ما كان يوحى به الى النبي عليه السلام كان النبي يبادر الى الامر بتدوينه وتسجيله حتى ولو كان موضوعه خاصا به وبصدده تعليله تلقى الوحي واستيعابه ، وان النبي قد جرى على هذا منذ أوائل نبوته لان هذه السورة من أوائل القرآن نزولا . وهذا المعنى عظيم من وجهة عصمة النبي في تبليغ كل ما كان ينزل على قلبه من وحي الله بما في ذلك من خطرات النفس وأسلوب تلقي القرآن والتصرف الشخصي او الحركة الشخصية اللاشعورية ، وهو مؤيد بآيات عديدة علقنا عليها في مناسباتنا من التفسير الكامل الذي كتبناه .

٢ - في سورة طه آية فيها مشهد مماثل لهذا المشهد في معناه وظروفه

وهي هذه :

« فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك

١١٥

وحيه وقل رب زدني علما ...

وكل ما قلناه بشأن الآيات السابقة يصح بشأن هذه الآية .

٣ - في سورة الشعراء سلسلة طويلة من قصص الانبياء ، وكل من هود وصالح ولوط وصفوا بصفة اخيهم إلا شعيباً فان هذه الصفة لم تلحق به في حين انها الحقت به في فصول سور اخرى (١) . فهذا يلهم بقوة ان الفصول القرآنية دونت كما انزلت على قلب النبي ولم يكن فيها وصف الاخ لحكمة يعلمها منزل الوحي . ومع ان بعض العلماء قالوا ان مدين التي وصف شعيب في سياق قصتها باخيهم في سور الاعراف وهود والعنكبوت هي غير اصحاب الابكة الذين ذكرت قصتهم سورة الشعراء فان بعضهم قال انهم واحد . ويلاحظ اولاً بأن الكلام عن اصحاب الابكة مماثل للكلام عن اصحاب مدين وثانياً انه لم يجمع في آية واحدة بين الفريقين (١) . وهاتان الملاحظتان تسوغان الترجيح ان لم نقل الجزم بانها واحد وتجمعلان ما استدللنا عليه في هذه التبعة في محله .

٤ - ومن هذا الباب الآية التي ذكر فيها اسماعيل واليسع وذوالكفل في سورة ص (٤٨) فكل الانبياء الذين ذكروا في الايات المتقدمة اي داود وسليمان وايوب وابراهيم واسحق ويعقوب وصفوا بعباد الله وعباد الله إلا الانبياء الثلاثة الذين ذكروا في الآية (٤٨) فهذا يلهم بقوة ايضاً ان

(١) اقرأ ايات الاعراف ٨٥-٩٣ وهود ٨٤-٩٥ والعنكبوت ٣٦-٣٧ مثلاً

(١) اقرأ مثلاً ايات سورة ق ١٣-١٤ وص ١٢-١٣ والتوبة ٧٠ والمج

الفصول دونت فوراً كما أنزلت على قلب النبي ولم يكن فيها وصف عبادنا للأنبياء الثلاثة لحكمة يعلمها منزل الوحي كذلك .

٥ - ويسلك في هذا الباب ايضاً آيات متشابهة الالفاظ فيها تقديم أو تأخير كلمة فحسب مثل آية المؤمنين (٨٣) « لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل » في حين ان آية بمانله في سورة النمل (٨٦) « قد تقدمت فيها كلمة « هذا » كما ترى فيها اقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل » حيث يصح ما قيل في الفقرتين السابقتين فيها ويستدل منها على الاملاء والتدوين الفوريين .

٦ - وفي سورة النحل موضوع طريف في صدد ما نحن بسبيل تقريره . فقد اقتضت الحكمة الربانية تبديل آية مكان آية فاستغل المشركون الحادث استغلالاً عظيماً حتى كان من نتيجة ذلك ان ارتد بعض ضعفاء الايمان في مكة كما يستلهم من آيات السورة هذه :

« فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى دينهم يتوكلون . انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون . واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتول اكثرم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى المسلمين . ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذين يلعنون اليه اعجبي وهذا لسان عربي مبين . ان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولم عدا أليم . انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون . من كفر بالله من بعد ايمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن

من شرح بالكفر صدر أفعليم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استعجبوا الحياة الدنيا على الآخرة وإن الله لا يهدي القوم الكافرين ..

٩٨ - ١٠٨

فهذا الحادث يلهم ان آيات القرآن كانت مدونة فأمر النبي بوضع آية مكان آية وفقاً لما أوحى إليه فكان ما كان من موقف الكفار ، وبسوغ القول ان القرآن لا بد من انه كان مدوناً يتلى حتى يكون مجال لهذا الموقف .

فهذه عدة أمثلة متصلة بعدة سور مكية متفاوتة في فترات نزولها حتى ليصح ان يقال ان منها ما نزل أوائل هـد مكة ومنها ما نزل بعدها بقليل ومنها ما نزل في أواسطه تحتوي دلائل على ان القرآن كان بدون حال نزوله ويتلى وينشر بين الناس ويسمعه المشركون كما يتداوله المسلمون ايضاً .

٧ - ان القرآن المكّي احتوى آيات كثيرة تصف القرآن بالكتاب - وهذه الكلمة تأتي بمعنى المكتوب ايضاً - ومنها ما يجمع بين الكلمتين معاً « الكتاب والقرآن » (١) اي الكتاب المقروء المكتوب (٢) ، وتنوّه بخطورته وتشير إليه كأعظم مظهر وآية للنبي والنبوة وتذكر (١) مثل الرتللك آيات الكتاب وقرآن مبین . . الحجر ١ «و» طس تلك آيات القرآن وكتاب مبین والنمل «١»

(٢) يرجح بعض علماء اللغة ان كلمة القرآن مصدر من مصادر «قرأ» ونحن نعتقد انها متصلة بجذر «قرأ» على كل حال وقد قال بعض المشرقيين انها دخيلة عبرانية . ولا نرى لهذا مبرراً لان جذر قرأ أصلي في اللغة العربية : على ان ما لا شك فيه ان الكلمة بصيغتها كانت مستعملة قبل نزول القرآن وليس من الضروري ان تكون دخيلة عبرانية مبررة اذا لا حفظنا خاصة ان العربية والعبرانية تمانان الى اصل واحد وان كثيراً من الجذور فيها متحد

انه انزل ليتلى على الناس ، وان فيه متنوع الامثال ليتدبروا آياته
 ويعقلوها ، وانه انزل على النبي ليبين لهم ما انزل اليهم من ربهم ويوضح
 لهم ما اختلفوا فيه . كما يستفاد منها ان القرآن نفسه كان موضوع جدل
 رئيسي بل اهم موضوع جدل بين النبي والمشركون في مكة (٣) . فكل هذا
 يلهم انه كان يدون وتلى مدونات على الناس مسلمين ومشركون كما يلهم ان
 المسلمين ايضا كانوا يدونونه ليتدبروا ويتذكروا ويتعلموا ويتفقهوا فيه .

٨ - في سورة الفرقان آية تلفت النظر وهي : « وقالوا أساطير
 الاولين اكتبها (٤) فهي تلى عليه بكرة واصيلا .. » فهذه الآية تلهم
 ان القول ليس بما يرمى جزافا وانما هو مستند الى مشاهدة بان آيات
 القرآن وسوره كانت تدون وتلى على الناس في صحف فكان المشركون
 يصفونها بهذه الصفة ، ويريدون بذلك ان النبي كان يستكتبها عن كتب
 الاولين واساطيرهم .

٩ - في سورة الواقعة الآيات التالية : « انه لقرآن كريم . في
 كتاب مكنون . لا يمسه الا المطهرون .. ٧٧ - ٧٩ » وفي سورة عبس
 الآيات التالية : « في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة .
 كرام برة . ١٣ - ١٦ » فهذه الآيات وتلك وان كانت تشير الى صلة
 القرآن باللائكة وطهارة أصله ومصدره وكرامته فان روح عباراتها
 تلهم ايضا بقوة ان القرآن صار مكتوبا في صحف وصار لهذه الصحف
 واجب التكريم فلا يمسه الا المطهرون . وهذا ما كان يجري فعلا كما
 جاء في الروايات الوثيقة وخاصة في رواية اسلام عمر وصحيفة للقران

(٣) هذه الايات كثيرة جداً ومنه في مختلف السور المكية مما يجعلنا في غنى عن
 التمثيل لها (٤) تالي بمعنى استكتبها كما ذكر الزمخشري في الكشاف

التي كانت في يد أخته ورفضها تسليمها إليه إلا بعد أن يتطهر (١) وأصل
التقليد الاسلامي الفقهي بعدم جواز مس المصحف إلا على طهارة هو من
هذا الباب .

١٠ - في سورة الحجر هذه الآية « إنا نحن نزلنا الذكر (٢) وإنا
له لحافظون . ٩ » فهذه الآية إن احتوت وعد الله بحفظ القرآن فإنها
احتوت تلقينا توجبها للنبي بتدوينه وحفظه أيضا .

١١ - لقد كثرت في القرآن المكي توريد ذكر أهل الكتاب وكتبهم ،
وتقرير معنى التطابق بين القرآن وبين هذه الكتب ؛ والاستشهاد بأهل
الكتاب على صحته ووضوح مواقفهم حينما كانت تتلى عليهم آيات القرآن .
وطبيعي أن النبي كان يعرف أن الكتب السماوية متداولة في أيدي اليهود
والنصارى ومكتوبة في صحف وقراطيس ، ومجموعة في أسفار وأوسجلات ،
فهما لا ريب فيه أن الآيات التي احتوت ذلك قد احتوت تلقينا توجبها
لنبي والمسلمين بأن يدونوا الفصول القرآنية ويجمعوها في أسفار وسجلات .
أسوة بتلك الكتب التي نزل القرآن مصدقا لها ومتطابقا في أسسه وروحه
ومصدره معها ، ولا يعقل إلا أن يكون النبي والمسلمون قد اعتنوا كل
العناية بهذه النقطة .

- ٨ -

وقائلا : إن في القرآن المكي ملهات عديدة لترتيب الآيات في السور
وتأليف السور في حياة النبي عليه السلام .

١ - فقد تكررت فيه كلمة «سورة» وخاصة في معرض تحدي المشركين

(١) ابن هشام ج ٢ ص (٢) يعني القرآن

وجاءت مرة بتعديهم بالآتيان بسور ومرة بعشر سور كما ترى في آيتي
يونس وهود هاتين :

١ - أم يقولون افتراء قل فأتوا بسورة مثله . . ٣٨ يونس

٢ - أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . ١٣ هود .

وعبارة الآيات لا تدع مجالاً للشك في أن مدلول السورة هو مجموعة
مستقلة من الآيات أو الفصول القرآنية ، ولا تدع مجالاً للشك كذلك في
ان مجموعات القرآن حينما نزلت هذه الآيات - وترتيب السورتين يلهم انها
ما نزل في اواسط العهد المكي - كانت سوراً مستقلة تامة حتى يصح
التعدي والتشثيل . وطبيعي ان هذا الأسلوب قد ظل للعمل به مستمراً .

٢ - إن السور المكية المسجعة او الموزونة أو المقفاة (١) خمس
وستون سورة بما فيها الرحمن والانسان والزلزلة التي ترجع مكيتهما والتي
ذكرت مكيتهما روايات عديدة في حين أن بعض الروايات قال انها مدنية
منها اربع وخمسون قصيدة هي الفاتحة والناس والفلق والاخلاص واني
لهب والكافرون والكوثر والماعون وقريش والفيل والهمزة والعصر
والتكاثر والقارعة والزلزلة والعاديات والقدر والعلق والتين والانشراح
والضحى والليل والشمس والبلد والفجر والفاشية والأعلى والطارق
والبروج والانشقاق والمطففون والانفطار والتكوير وعيس والنازعات

(١) الفرق فيما اعتقد هو ان الاصل في المسجوع وحدة القافية دون التزام التوازن
وان الاصل في الموزون هو التوازن دون التزام وحدة القافية . ومن الممكن ان
يكون المسجوع موزوناً ايضاً . وفي القرآن نماذج لكل ذلك . وهناك سور احتوت
نصلاً متنوعة في الوزن والقافية ايضاً . وفي كتابنا عصر النبي وستة قبل البعثة عرض
وبحث في هذا الباب في فصل اللغة القرآنية .

والنبا والمرسلات والانسان والقيامة والمدثر والمزمل والجن ونوح
 والماعز والحاقة والقلم والملك والواقعة والرحمن والقمر والنجم والطور
 والذاريات وق ، ووحدة الموضوع في هذه السور بارزة بوضوح تاماً .
 فالغرض الصحيح الذي نعتقد انه لا يصح غيره هو أنها نزل كل منها دفعة
 واحدة وكسبت شخصيتها كسور مستقلة . وإذا كانت من الممكن أن
 يكون استثناء فهو قليل بالنسبة الى هذا العدد الكبير من جهة ، وهو في
 الوقت نفسه ليس استثناء ينقض هذا الغرض شي جوهري من جهة اخرى .
 وقد احتطنا بهذا الاستدراك من اجل ما روي من ان آيات العلق الاولى
 هي اول ما نزل وأنها نزلت منفردة بما يبرره مضمون آيات السورة ، ومن
 اجل ما روي من مثل ذلك بالنسبة الى آيات سور المزمل والمدثر والقلم
 الاولى بما يبرره كذلك مضمون آيات السور (١) ثم من اجل ما روي
 من ان الآية الاخيرة من سورة المزمل مدنية وليست مكية بما يبرره
 مضمونها ايضا .

٣ - ان التدقيق في فصول بقية السور المسجعة او الموزونة المتوسطة
 الى سور ص والصافات وبس وفاطر والشعراء والفرقان وطه ومريم
 والكهف والاسراء والحجر يظهر تلاحق فصولها وانسجامها بالاضافة الى
 تسجييعها وتوازنها . وهذا وذاك يلهمان او يحملان على التوجيع بأنها هي
 الاخرى نزلت دفعة واحدة أو فصولا متتابعة بدون اعتراض بفصول
 من سور اخرى الى ان تم كل منها واكتسبت شخصيته كسور مستقلة .

٤ - ان السور المكية غير المسجعة وغير الموزونة ست وعشرون ،
 وهي الاحقاف والجنانية والدخان والزخرف والشوري وفصلت وغافر

(١) في بحث اوليات الوحي في الجزء الاول من كتابنا سيرة الرسول يان واف لذلك ،

والزمر وسبأ والسجدة ولقمان والروم والعنكبوت والقصاص والنمل
والمؤمنون والحج (١) والانبياء والنحل وإبراهيم والرعد (٢) ويوسف
وهود ويونس والاعراف والانعام . ووصفنا آياتها بغير المسجوعة وغير
الموزونة هو من وجه عام ، وقد احتوى بعضها فصولا مسجوعة او موزونة
ايضا . ومن هذه السور تسع ضاربة الى القصر اكثر منها الى التوسط
وهي الاحقاف والجاثية والدخان والزخرف والشورى وفصلت وسبأ
والسجدة ولقمان وبقاياها متوسط وقريب من الطويل وطويل . ومع أنها
غير مسجوعة وغير موزونة الايات كما قلنا فان خواتم آياتها مركزة .
والذي يعنى فيها يجدر تلاحقا في السياق وترايطا في الفصول ، ويجداكثرها
ذا وحدة موضوعية ايضا . وكل هذا يلهم أن الضاربات الى القصر منها
قد نزلت دفعة واحدة وان ما يمتثل ان لا يكون نزل دفعة واحدة من
باقي السور قد نزل فصولا متتابعة من دون اعتراض بفصول من سور
أخرى . الى ان تم كل منها واكتسب شخصيته المستقلة .

وما جاء في الرقيم ٣ و ٤ يمكن توثيقه بمميزات القرآن المكي والعهد
المكي . فان هذا العهد كان عهد دعوة ، وأحداثه متشابهة من حيث
كونها مواقف دعوة وحض وإنذار وتبشير وتذكير ووعظ
من جانب النبي ، ومواقف انكار وعناد ومكابرة وجدل وتحد وأذى من
جانب الكفار . والقرآن المكي قد دار جميعه على هذه المواقف المتشابهة
فطبيعة هذا العهد لا تقتضي كما يبدو مستقيا نزول فصل من سورة ثم تعقبه

(١) ادخلنا الحج لترجيحنا ان جل آياتها مكى وبعض الروايات تذكرها في عداد
السور المدنية .
(٢) بعض الروايات تذكر سورة الرعد في عداد المدنية
وبعضها تذكرها في عداد المكيات واسلوها ومضمونها يعلنان على ترجيح مكيتها

يفصل من سورة أخرى وقبل ان تتم فصول السورة السابقة . وتلاحق فصول السور المكية المتوسطة والطويلة وانسجامها بل ووحدة الموضوع فيها بوجه الاجمال مما يقوم دليلا قويا على ذلك .

هـ - ان سبعا وعشرين سورة من السور المكية المتنوعة تبتدىء بحروف متقطعة وهي القلم ورق والاحقاف والجاتية والدخان والزخرف والشورى وفصلت وغافر وص ويس والسجدة ولقيان والروم والعنكبوت والقصص والنمل والشعراء وطه ومريم والحجر وابراهيم والرعد ويوسف وهود ويونس والاعراف ، وسبع عشرة منها وجلها من القصار تبتدىء بالاقسام وهي العصر والاعاديات والتين والضحى والليل والشمس والفجر والبدر والطارق والبروج والنازعات والمرسلات والقيامة والنجم والطور والذاريات والافات وتسما وهي متنوعة ايضا تبتدىء بالثناء والحمد والتسبيح وهي الفاتحة والاعلى والملك وطار وسبأ والفرقان والكهف والاسراء والانعام ، وتسما أخرى كلها من القصار تبتدىء بالاستفهام وهي الماعون والقليل والانشراح والقارعة والغاشية والنبأ والانسان والماعارج والحاقة وتسما أخرى من الفهار كذلك تبتدىء بخطاب النبي نداء أو أمر أو هي الناس والفلق والاحلاص والكافرون والكوثر والعلق والمدثر والمزمل والجن ، وأربعا منها تبتدىء بالدعاء والانذار وهي المسد والممزة والتكاثر والمطففون وخمسا منها تبتدىء بحرف اذا التنبيهى أو التذكير وهي الزلزلة والانشقاق والانفطار والتكوير والواقعة ، اي إن ثمانين سورة مكية من مجرع احدى وتسعين ذوات مطلع خاص فيه دلالة ماعلى شخصية السورة واستقلالها . اما بقية السور المكية فمنها سبع قصار مسجوعة هي قريش

والقدر وعيس ونوح والرحمن والقمر والزمزم يجري عليها ما قلناه ممن طابها البارز الذي يدل على نزولها دفعة واحدة واكتسابها شخصيتها ، والاربع الاخرى وهي المؤمنون والحج والالبياء والنحل فان مطالعها تلمهم بدء سورة خاصة مستقلة إذا ما انعم النظر فيها .

- ٩ -

وثالثا - اذا صح ما قلناه واستلهمناه من آيات القرآن المكمل واساليب نظمه من ان القرآن المكمل كان بدون فورا ويحفظ بانتظام وهو ما نعتقد بصحته فان هذا ما ينبغي ان يكون صحيحا من باب اولى بالنسبة للقرآن المدني بطبيعة الحال . لان الحالة بعد الهجرة أصبحت أعظم خطورة من ناحية الدعوة وتطورها الى تشريع وتركيز ، واصبح المسلمون اكثر طمأنينة واستقرارا ، وهذا يتسع للتدوين والحفظ ويقتضيها من باب اولى . ثم انه كان في المدينة جالية كبيرة من اليهود ، وكان لها أحبارها وربانيوها وقضاؤها ومدارسها وكتبها ، وقد نشب بينها وبين النبي عليه السلام منذ حلوله في المدينة تشاد وخلاف وجدل حول الدعوة والقرآن والتوراة والانبيا ، وهذا كله سائق لتدوين القرآن وحفظه بانتظام كذلك . فليس من مبرر للشك قط في ان ما جرى عليه النبي والمسلمون في مكة من تدوين القرآن فوراً وفي الصحف والقراطيس لم يظل مستمرا في العهد المدني .

بالاضافة الى هذا فان في القرآن المدني امثلة مشابهة لما ذكرناه في صدر تدوين القرآن المكمل . ففي سورة البقرة ايتان متشابهتان مع فرق قليل في النظم وهما هاتان :

١ - واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعـة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ٤٨
٢ - واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعـة ولا هم ينصرون ١٢٣
وفي سورتي البقرة وال عمران الآيتان التاليتان :

١ - قولوا امنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون .. البقرة ١٣٦
٢ - قل امنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ال عمران ٨٤
وفي سورة التوبة آيتان متشابهتان مع فرق قليل في النظم كذلك وهما هاتان :

١ - فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزحق أنفسهم وهم كافرون ٥٥
٢ - ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله ان يعذبهم بها في الدنيا وتزحق أنفسهم وهم كافرون ٨٥
والسياق قد يلمهم ان كلا من آيتي البقرة قد نزل في سياق طويل في مجلس واحد ، والفرق في النص يلمهم ان كلا منها قد دون فوراً بعد نزولهما كما أملاهما النبي عليه السلام ، وكذلك الامر في آيتي التوبة ايضا والبقرة من أوائل ما نزل والتوبة من أواخر ما نزل من القرآن . وهذا

يعني ان التدوين بدأ منذ أول العهد المدني واستمر الى اخره .
والفرق في ابني البقرة وال عمران المشابهتين يبين ما تلهمه الآيات
الأخرى من فورية التدوين بطبيعة الحال .
أما من حيث ترتيب آيات القرآن المدني في السور ومن حيث شخصيات
سوره فالناظر يجد :

١ - ان سورتين منها تبدئان بحروف متقطعة وهما البقرة وأل عمران ، وثماني منها تبدئ ببدء النبي وتوجيه الخطاب اليه وهي النصر والتحريم والطلاق والمنافقون والمجادلة والفتح والاحزاب والانفال ، وخمسا منها تبدئ بالتسبيح وهي التغابن والجمعة والصف والحشر والحديد وثلاثا تبدئ بخطاب المؤمنين وهي المنتعنة والحجرات والمائدة ، أي أن ثمانى عشرة سورة من مجموع ثلاث وعشرين ذوات مطالع تلهم أنها مبادئ سور وتلهم ان سورها ذوات استقلال وشخصية . اما باقي السور المدنية وهي البيعة ومحمد والنور والتوبة والنساء فمطالعا هي الاخرى قلم استقلالها وشخصية سورها إذا ما امعن فيها ولو لم تكن ذات طابع مطلعي خاص .

٢ - إن من السور المدنية اثنتي قصيرتين جدا وهما النصر والبيعة وثلاث عشرة قصارا وهي التحريم والطلاق والتغابن والمنافقون والجمعة والصف والمنتعنة والحشر والمجادلة والحديد والحجرات والفتح ومحمد وباستثناء اثنتين منها وهما الجمعة والمجادلة فان جميعها أي ثلاث عشرة من خمس عشرة ذوات موضوع واحد . وهذا يلهم انها خزات وكسبت شخصيتها دفعة واحدة . كذلك فان احدى السور

المتوسطة وهي الانتقال ذات موضوع واحد وفصولها تلهم انها نزلت دفعة واحدة هي الاخرى .

٣- ان السور التي احتوت مواضيع عديدة وفصولا متنوعة وغير مترابطة أحيانا تسع منها اثنتان قصيرتان هما الجمعة والمجادلة ، واثنتان متوسطتان هما الاحزاب والنور ، وخمس طوال هي التوبة والمائدة والنساء وآل عمران والبقرة وفي الحق إن مواضيع هذه السور وفصولها تلهم انها لم تنزل دفعة واحدة ولا فصولا متتابعة بدون اعتراض ، وتلهم أنها ألقت تأليفا على ما هي عليه في المصحف بعد تكامل فصولها من دون سائر السور القرآنية المكية والمدنية . ونرجع ان الكلام والتعظيم في امر ترتيب آيات القرآن في سورها قد كان بسبب هذه السور وحولها في الدرجة الاولى ؛ لان وحدة موضوع سائر السور ونظمها وتلاحق سياقها وتناسب فصولها المتتابعة يلهم وحدة النزول او التتابع فيه . والذي نعتقد ان ترتيب آيات وفصول هذه السور على الوجه الذي هو عليه في المصحف المتداول قد كان في حياة النبي وبأمره وان ما ورد عن زيد بن ثابت - وهو انصاري - في حديث تأليف القرآن من الرقاع على عهد النبي (١) وما جاء من أحاديث تتضمن ان النبي كان يوحى اليه بفصل قرآني من السور ذوات العدد كما جاء في حديث عثمان (٢) او بكلمة ثانية ذوات الفصول المتعددة وعليه على كتاب وجه بأمرهم بوضعه في مكان من سورة بعينها لهم هو الصورة الصحيحة الصادقة لما كان يقع خاصة في حدود هذه السور المدنية السبع .

(١) المجموعة الثالثة (٢) المجموعة الثالثة

ولعل من ملهات القرآن على صحة ذلك التناسب البارز بين كثير من
 الفصول في هذه السور وخاصة في السور الطويلة موضوعاً أو مدى أو
 مفهوماً أو مناسبة حينما ينعم النظر فيها بما نبهنا عليه في التفسير من مثل
 تسلسل الأسئلة واجوبتها التشريعية في سورة البقرة ، وتسلسل فصول
 احكام الامرة في سورة النساء وتسلسل فصول اهل الكتاب في سورة
 المائدة ، وتسلسل فصول الجهاد ومواقف المشركين والمنافقين في
 سورتي آل عمران والتوبة ، وتسلسل الفصول التأديبية والتعليلية
 والارشادية وما يتصل بمشاكل الاسر في سورة النور ، وتناسب
 فصول سورة الاحزاب في الحملة على المنافقين والكفار والتنديد بمواقفهم
 المختلفة من جهة وتناسب فصولها الاخرى في صدد التأديب والانكحة في
 حين ان من هذه الفصول والآيات ما نزل متأخراً أو ما نزل متقدماً
 أو ما نزل بعد فصول سور اخرى الخ بما نبهنا عليه في التفسير وما يمكن
 ان نمثل عليه بفقرة من اية النساء (٢٥) التي تذكر ان على الاماء المحصنات
 نصف ما على الحرائر من الحد ، حيث وضعت هذه الفقرة في الآية
 لمناسبة السياق في حين انها نزلت حتماً بعد اية سورة النور (٢) التي تذكر
 الحد على الزناة .

ولعل من ملهات القرآن كذلك على ترتيب آيات وفصول هذه السور
 المتنوعة الفصول في حياة النبي الآية الاخيرة من سورة النساء في وارت
 الكلاله ، حيث يلهم وضعها انها نزلت متأخرة وبعد ان تم تأليف السورة
 فألحقت بأمر النبي بالسورة ولو باخراها لان الموضوع الذي تتصل به
 قد جاء في سورة النساء . ولو كانت فصول سورة النساء وآياتها لم ترتب
 على عهد النبي وبأمره أو لو كانت هذه السورة غير مرتبة الآيات والفصول

حينما نزلت الآية لكانت وضعت على ما يبدو مستقيما في سياق فصل التوارث مثل عقوبة الاماء المحصنات التي وضعت في مناسبتها ، وهذه ظاهرة خطيرة او بالاحرى دليل قرآني حاسم على ان ترتيب السور إنما تم في حياة النبي وأمره .

ومن هذه الملهمات اية الاحزاب (٤٩) بشأن عدة المطلقة بدون مس ودخول . وقد احتوت البقرة سلسلة آيات بهذا الشأن (٢٣٥ - ٢٤١) وقد انصبت كلها على مهووهن . اما اية الاحزاب فذكرت عدم وجوب العدة عليهن . فلو كانت سورة البقرة لم يتم ترتيبها في عهد النبي عندما نزلت اية الاحزاب لكان المتبادر ان تلتحق بسلسلة البقرة للتناسب الوثيق ولما وضعت في سورة الاحزاب كفصل خاص لاصلة له بسابق ولا لاحق . ومن باب اولي ان يكون ذلك لو كان الترتيب تم في عهدي بكر ولقد يرد ان هناك آيات مدنية في سور مكية وآيات مكية في سور مدنية ، وان هذا قد يقوم قرينة على ان السور المكية لم تكن تامة الترتيب في العهد المكي . ونقول من حيث الاساس ان الايات المدنية المروية في السور المكية ليست كثيرة العدد حتى مع التسليم بصحة رواية مدنيتهما جميعها . ففي مصحف مصطفى نظيف قدوري أو علي المطبوع من قبل عبد الحميد احمد حنفي والمصدق عليه من قبل اللجنة المعنية بأمر الملك فؤاد (١٤٧) اية قبل انها مدنية في (٣٤) سورة من مجموع الايات البالغ عددها اربعة الاف ونيفا ، فليس بما ينقض ما قررناه وجود هذه الآيات في هذه السور بحيث يمكن ان يفرض ان النبي امر باضافة هذه الآيات الى المكان المناسب لها في السور المكية لتناسب السياق او الموضوع

أرئيدعنه ، ولا يترتب على هذا ان لا تكون السور المكية مرتبة قبل ذلك . هذا مع ان دمج هذه الآيات في سياق مناسب لها في سور مكية يدل دلالة قوية على العكس ، اي على ان الآيات المكية كانت مرتبة في سورها من جهة وعلى ان ترتيب الآيات في السور قد كان في حياة النبي وأمره بل وعلى ان عملية التأليف والترتيب والترتيب كانت مستمرة بأمر النبي وتناسب الموضوع وتلازمه بين الآيات المدنية التي لا تختمل مدنيها شكاً في السور المكية وهي اخر اية في سورة المزمل واخر اية في سورة الشعراء والآيات ١٦٤ - ١٧١ في سورة الاعراف يعد دليلاً قرآنياً على ان وضعها كان بأمر النبي ، ومؤيداً لما نحن في صدق تقريره ، فأية المزمل الاخيرة تخفف التكليف الذي كلف به النبي في اولها من قيام الليل وتمذر المسلمين بسبب كثرة مشاغلهم وواجباتهم التي منها القتال الذي لم يكن الا في العهد المدني ، واية الشعراء تستثني الشعراء المسلمين الذين كانوا يقابلون شعراء المشركين على هجوم النبي والمسلمين من النعت الذميمة الذي نعت به الشعراء وآيات الاعراف في حدود جاذبة عدوان اليهود في يوم السبت وما كان من غضب الله عليهم بسببه وقد وضعت في سلسلة قصة بني اسرائيل وبدئت بأمر النبي بتذكير حود المدينة بأمرهم . فالتناسب قائم بين الآيات المدنية والفصول المكية كما هو ظاهر .

أما الروايات عن الآيات المكية في السور المدنية فانها قليلة جداً فهي في المصحف الذي ذكرناه سبع آيات في الانفال (٣٠ - ٣٦) واخر ايتي التوبة والآية (١٣) من سورة محمد وقد شككنا في الروايات

لان مضامين الآيات وسياقها يحمل على التوقف بالاضافة إلى روايات اخرى تخالفها . ومع ذلك فعلى فرض صحتها فانها ليس من شأنها أن تخل بما نقرره . وان تمنع أن يكون النبي قد أمر باخراج بعض الآيات من سور مكة وإضافتها الى سياق مناسب لها اكثر في سور مدنية بل إن في هذا نفس الدلالات التي ذكرناها انفا .

وعلى كل حال فليس من المعقول ان يتصرف الصحابة بعد النبي فينقلوا آيات من سور مكة الى سور مدنية وآيات من سور مدنية إلى سور مكة البتة ، وانه لا يكاد يتحمل شكاً في أن نقل آيات نزلت في عهد الى سور او مجموعة آيات نزلت في عهد اخر انما يكون وقع في حياة النبي وبأمره .

وقد يرد ما ذكرته الروايات عن آخر الآيات نزولاً مثل آيات الدين او الربا في سورة البقرة ، فعلى صحة هذه الروايات فانه ليس فيها ما ينقص ما قررناه من ترتيب آيات القرآن في السور في حياة النبي عليه السلام وبأمره ، إذ من الممكن والمعقول أن يفرض ان النبي هو الذي أمر بوضعها في مكانها التي هي فيه الآن كما كان شأن آخر آيات سورة النساء ، بل وان وجود هذه الآيات في مواضعها ليقوم وليلا على صحة هذا الفرض بل وعلى ان لا يكون إمكان لفرض غيره ففي سورتي البقرة وآل عمران مثلاً آيات مقاربة لموضوع الآيات المذكورة ، في سورة البقرة ، فلو لم تكن الآيات موضوعة في مكانها بأمر النبي لكانت وضعت هذه الآيات المتقاربة في سلسلة واحدة . ويقاس على هذا غيره .

ورابعا اما ترتيب السور في تسلسلها على ما هو في المصحف المتداول فليس في القرآن ما يمكن أن يستلهم منه على أن ذلك قد تم في حياة النبي وبأمره ، الا قرائن قليلة قد لا تكون شافية . منها عدم فصل سورة التوبة عن سورة الانفال في البسلة وتقديم الانفال عليها مع انها ليست من الطوال ولا من المثين . والسورتان اذا اجتمعتا تكونان سورة طويلة وتنسجمان مع السور الطوال الست السابقة . والثابت المؤيد بمضامين السورتين ان الانفال من ارائل ما نزل في المدينة في حين ان التوبة من اواخر ما نزل فيها فورودها واحدة وراء الاخرى وفي سلك الطوال ودون فاصل ببسلة يلهم أنه بأمر النبي اذ لو كان هذا الترتيب بعده لوضعت الانفال في سلسلة المثاني كما هو شأن سورتي النور والاحزاب المدينتين اللتين جاءت كل منهما منفردة بين سور مكية ومنها ما يلاحظ من الشذوذ في ترتيب السور الاطول وما يليها . فسورة المائدة اقصر واقل عدد آيات وحيزاً من سورتي الانعام والاعراف بل ومن سورة التوبة بمفردها ولكنها جاءت قبلها . وسورة الشعراء من حيث عدد آياتها تأتي بعد سورة البقرة فهي اكثر عدد آيات من سائر السور الطويلة وسور المثين وقد جاءت مع ذلك بعد ثلاث وعشرين سورة كلها اقل عدد آيات منها ومنها ما هو اقل حيزاً ايضاً وآيات سورة الصافات التي جاء ترتيبها متأخراً جداً اكثر عدداً من آيات سور النساء والمائدة والانعام وهي اكثر آيات من جميع السور باستثناء البقرة والشعراء والاعراف والنساء وسور ابراهيم والرعد والحجر اقل حيزاً وعدد آيات من سور النحل والاسراء والكهف ومريم وطه ومع ذلك

فقد جاءت قبلها وسورة الاحزاب اكبر حيزاً واكثر عدد آيات من سور الروم ولقمان والسجدة التي سبقتها وسورة الاعراف اكثر عدد آيات واكبر حيزاً من سورتي الانعام والمائدة اللتين تقدمتاها . وسورة القصص اكبر حيزاً واكثر عدد آيات من سور الفرقان والنور والحج واكبر حيزاً من سورة النمل التي تقدمتها . وسورة غافر اكبر حيزاً واكثر عدد آيات من سور الزمر ويس وفاطر وسبأ واكبر حيزاً من سورة ص التي تقدمتها ومثل هذا يقال في سورة الزمر وما تقدمها من بعض السور وما ذكرناه هو الشذوذ البارز . وهناك غيره غير قليل مما يدخل في هذا النطاق من حيث الحيز وعدد الآيات او الامرين معا بين السور المتوسطة والقصيرة ففي هذا على ما يتبادر لنا ملهات بأن الترتيب قد كان بأمر النبي للحكمة التي رآها اجتهداً او بناء على وحي رباني ، فلم يكن من شأن اصحابه من بعده ان يبدلوا او يغيروا فيه ولو لم يكن الامر كذلك لاجتهدوا في اقام النسق وفقاً للترتيب الذي رأوه وجبهاً من تقديم الاطول ثم الذي يليه دون ما شذوذ بارز على الاقل . وليست السور مرتبة بحسب مكبتها ومدنيتها او بحسب نزولها حتى يعطل هذا الشذوذ بذلك وليس هذا بعسير التعيين والعمل كما يبدو للمدقق في السور

- ١٠ -

وننبه على اننا هنا بسبيل الاستلزام من القرآن . ونعتقد ان ما قررناه تعليقاً على الروايات والاحاديث والاقوال بأن ترتيب الآيات في السور وترتيب السور في تسلسلها المتداول في حياة النبي وبأمره هو قوي بذاته خلا عن ما تلهمه القرائن القرآنية ، وقوته مستبعدة بنوع خاص من اتساقه مع طبائع الامور والظروف ، ومن سكوت جميع الروايات

والاحاديث المتصلة بأصحاب رسول الله عن القول بأن تحرير المصحف في زمن أبي بكر ونسخ المصاحف في زمن عثمان قد استهدفا ترتيب آيات في سور أو سور في تسلسل أو تناولاه ولهذا دلالة الخطيرة ، ومن ان مصحف عثمان هو نسخة طبق الاصل لمصحف ابي بكر وهو اصل المصحف المتداول في ترتيب آياته وسوره .

هذا واخيرا نريد ان ننبه على امر مهم في صدد هذه المباحث ومداها فان ما تناولته انما هو بسبيل البحث العلمي والتاريخي ، وليس من شأنه ان يمس لب الموضوع ، وهو كون القرآن المتداول بين المسلمين والذي هو في متناول الجميع سوره وفصوله ومجموعاته وآياته وكلماته ونظمه متصلا بالنبي وصادرا عنه مباشرة بوحي رباني نزل على قلبه ، وكون هذا لم يكن في وقت من الاوقات موضع اخذ ورد ومحل شك وتوقف من قبل المسلمين على اختلاف نحلهم وفرقهم واهوائهم ومن لدن مشاهدي العيان في حياة النبي الى الآن ، كما ان صدوره مباشرة عنه لم يكن محل ريب من قبل غير المسلمين ايضا ، وكون ما جاء ذكره في الروايات جميعها وعلى ما فيها من علل كثيرة من الآيات والكلمات والحروف لا يزيد على اكبر تقدير عن واحد في المئة من آيات القرآن التي تريد عن ستة الاف ومئتين ، وكلماته التي تريد عن سبعة وسبعين الفا وحروفه التي تريد عن ثلاثمائة الف ، وكون هذه النسبة النافذة جدا مع العلل الكثيرة التي تجعلها غير صحيحة ليس من شأنها ان تحل بتلك الحقيقة المسلم بها ، وان القرآن كان وظل ولن يزال معجزة النبي العظمى الخالدة اصفى منبع للاحكام والعقائد والتشريع والالهام والفيض والتوجيه والتلقين ، فيه الحق والهدى والصدق والرشد ، وفيه المبادئ السامية والشفاء للصدور

والعلاج للنفوس والحلول لمتنوع المشاكل الالمانية والروحية والسلوكية للناس كافة ، أنزله الله على قلب نبيه الكريم وخلفه النبي عليه السلام في المسلمين فلا يضلون أبداً إذا ما اتبعوه وتذكروا به ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم .

وانه ليصح ان يقرر جزما انه قد ظل سليما في حفظ الله محفوظاً كل الحفظ من كل تبديل وتغيير وتحريف وزيادة ونقص مجما عليه في رسم واحد ونص واحد ومصنف واحد وترتيب واحد في مشارق الارض ومغاربها ، وظل يحفظ بأشراقه وسنانه وروحانيته ، ونفس الفاظه وحروفه واسلوب ترتيبه وتلاوته التي تلاها رسول الله وبترتيبه الذي وضعه ، وبكل ما فيه من معانيات ومؤاخذات وبهت وتكذيب وهزه وزرابة ونسبة افتراء وسعر وشعر وكمانة وتعلم واقتباس وجدل مع مختلف طبقات الناس ، ومن تقارير الحقيقة شخصية الرسول البشرية ، وتطور في التشريع والمواقف المتنوعة بما لم يتيسر لاي كتاب سماوي ولا لاي نبي ، وظل بعد هذا مرجع كل خلاف ، والحكم في كل نزاع بين المسلمين على اختلاف فرقهم وأهوائهم والقول الفصل في كل مذهب وعند كل نخلة من مذاهبهم وغلهم على كثرتهم ، فتحققت بذلك معجزة الآية الكريمة « انا نحن نزلنا الذكر وانا له حافظون » وانما المعجزة الكبرى تستحق التنويه في هذا المقام ، ويكفي لتبيين خطورتها ان نذكر ما كان من فتن وخلاف وشقاق وحروب منذ صدر الاسلام الاول وما كان من اجترأ الناس في ذلك العهد وبعده على رسول الله والكذب عليه في وضع الاحاديث المتضمنة تأييد فئة على فئة ورأي على رأي

ودعوة على دعوة ولاضعاف ذلك بالمقابلة ، وما كان من وضع الروايات والاحاديث لصرف آيات من القرآن الى غير وجهها بسبيل ذلك ، وما كان من استعلاء قوم على قوم وشيعة على شيعة استعلاء القوة والسلطان مع اشتداد العداء والتجريح واشتداد تيار الاحاديث المفتراة ، ان تذكر ان هذا كان في حين لم يكن القرآن مطبوعاً او مصوراً ، وفي حين لم يكن من المستحيل ان يجزأ الذين اجتروا على رسول الله على كتاب الله فيغيروا ويبدلوا ويزيدوا وينقصوا شيئاً جوهرياً سائغاً على المسلمين وينشروا به مصاحف جديدة وخاصة في الآيات التي حاولوا صرفها لتأييد الآراء والاهواء أو اضعافها لتكون أكثر مطابقة مع الوجوه التي أريد صرفها اليها سلباً وإيجاباً ونفياً وإثباتاً ، وفي حين كانت الكتابة العربية سقيمة محرجة ولم يكن قد اخترع الشكل والاعجام ، وكان التشابه بين الحروف كثيراً واحتمال اللبس قوياً ، وحفظت ببركته اللغة العربية القرشية التي نزل بها قوية مشرقة بكل ما وصلت اليه من سعة وبلاغة ودقة وقوة ونفوذ وعمق لنظل لغة الامة العربية الفصحى في كل صقع وواد ، وفي كل دور وزمان وهو ما لم يتيسر لامة من امم الارض ولتكون الى ذلك لغة عبادة الله لجميع الملل الاسلامية المنتشرة في انحاء الارض خلال ثلاثة عشر قرناً ثم خلال القرون الآتية الى آخر الدهر بل ولتترشح لتكون لغة العالم الاسلامي ، وحفظت ببركته الامة العربية قوية الحيوية دون ان يبدها ما نزل بها من صروف الدهر الجسام التي اباد اخف منها من هو اقوى منها تكمن فيها مواهب العظمة وخصائص القومية التي جعلتها خير امة اخرجت للناس ان هي قامت بما حملها اياه القرآن من عبء الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

واقاما لموضوع تدوين القرآن نرى ان نوره بعض البحوث الموجزة
في امور تتصل به

فاولا اسماء السور :

١- ان الضابط او الاصل العام في تسمية السور القرآنية على ما
يبدو من اسمائها هو تسمية السورة بكلمة أو باشتقاق كلمة واردة فيها .
واذا كانت الاسماء المشهورة لبعض السور لا تستمد من هذا الاصل مثل
سور الفاتحة والانبيا والاخلاص فان هناك روايات بأسماء اخرى لهذه
السور نستمد منه مثل الحمد للاولى واقتربت للثانية والصد للثالثة

٢- على ان بعض المصاحف يختلف عن بعض في الاسماء مع المحافظة
على ذلك الاصل فسورة التوبة مثلا تذكر في بعض المصاحف باسم
« براءة » والاسراء باسم « اسرائيل » وغافر باسم « المؤمن » وفصلت
باسم « السجدة » والملك باسم « تبارك » والنبأ باسم « عم » والبينة باسم
« لم يكن » والمسد باسم « ابولهب » و « تبت » والاخلاص باسم الصد
٣- وهذا الاختلاف ناشئ عن روايات مختلفة معزوة الى بعض

الصحابة كما ان هناك روايات مثلها بتسمية سور اخرى باسماء اخرى
وان لم نطلع على مصاحف تذكر ذلك مثل سورة التوبة التي يروى
ان من اسمائها : « العذاب » والمشرقة والمنكدة والمدممة والمنشققة
والفاتحة التي يروى من اسمائها « السبع المثاني » والواقية والشافية والصلاة
والدعاء وام القرآن والقرآن العظيم ، والانفال والشعراء والنمل والسجدة
والزمر وفصلت والجنانية وق والمجادلة والحشر والطلاق والصف والنصر
التي لها اسماء اخرى هي بالتوالي بدر والجامعة وسليمان والمضاجع والغرف

والمصاييح والشريعة والباسقات والظهار والنخير والنساء الصغرى والحواريين
والتوديع . وهناك كذلك روايات سميت فيها بعض السور بأكثر من
كلمة واحدة مثل سورة المؤمنون التي ذكرت بتعبير « قد افلح المؤمنون »
والانسان بتعبير « هل أنى على الانسان » والأعلى بتعبير « سبح اسم
ربك الأعلى » واللبل بتعبير « واللبل اذا يغشى » .

٤ هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن هناك أحاديث وروايات
مختلفة في طريقة تسمية السور . فقد روي عن انس بن مالك حديث جاء
فيه « لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولكن قولوا السورة
التي بذكر فيها البقرة » والسورة التي فيها آل عمران . وقد ذكرت
جل السور في تفسير ابن عباس رواية أبي صالح بالطريقة الثانية ، في حين
ان البخاري روى عن ابن مسعود في معرض تجويز القول سورة كذا
أنه قال هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة ، وان هناك أحاديث
نبوية وصحابية نقلناها في المجموعة الثالثة في مبحث تدوين وترتيب
القرآن احتوت أسماء بعض السور بالطريقة المختصرة المتداولة أي سورة
البقرة وسورة آل عمران وسورة النساء وسورة الكهف الخ ، بل هناك
حديث طويل منسوب للنبي ورد فيه جميع أسماء السور وفضائلها ذكره
الزمخشري والحازن والبيضاوي في تفسيرهم بالطريقة المتداولة المختصرة
وأوردوا وراء تفسير كل سورة فضيلة السورة المذكورة في الحديث

٥ - ومن جهة ثالثة فإن أسماء السور لم تكن في جميع المصاحف
المخطوطة التي هي الأصل في المصاحف المطبوعة والتي كانت هي المتداولة
قبل الطباعة على رؤوس الصحف حيث منها ما كتب فيه الأسماء على

رؤوس الصحف في فواصل السور ومنها ما كتبت فيه الاسماء في فواصل السور فقط .

فكل ما تقدم يمكن ان يسوغ القول ان كتابة أسماء السور في فواصلها وعلى رؤوس الصحف المصاحف حسب المتداول ليست واردة في مصحف عثمان لانما لو كانت كذلك لما كان محل لهذا الخلاف في التسمية والكتابة ، وانما هو عمل تنظيمي متأخر عن نسخ هذا المصحف . وقد يكون - بل هذا هو الأرجح - مستنداً الى روايات تنقلت فكتبت في المصاحف وكتب القراءات والتفاسير على الوجه الشهير المتداول او المختلف احياناً ، ونرجح بناء على ذلك أيضاً ان للاحاديث والروايات أصلاً صحيحاً ما ، وأنه كان للسور كلها او كثير منها منذ عهد النبي اسماء تذكر وتعرف بها .

- ١٢ -

فصل السور بالبسملة

وثانياً - فصل السور بالتسمية

ان المصحف العثماني ومصحف ابي بكر الذي نسخ ذلك عنه قد فصل بين السور فيه بالبسملة كما يستفاد من احاديث ابن عباس وابن مسعود التي اوردناها في المجموعة الثالثة من بحث التدوين . وليس من خلاف في ذلك بين المصاحف المتداولة . ولذلك يصح ان يقال بشيء من الجزم ان هذا متصل باول ترتيب للمصحف من عهد ابي بكر وبالتالي بترتيب السور في حياة النبي . وهناك اختلاف في ما إذا كانت البسملة آية أصيلة في كل سورة ام لا . ومنشأ هذا الخلاف على الأرجح أحاديث ابن عباس

وابن مسعود من ان الوحي كان يتزل بالبسملة في اول كل سورة ، وانهم كانوا يعرفون انها سورة جديدة بذلك . فمن اخذ بهذه الأحاديث اعتبر البسملة آية أصيلة ومن لم يأخذ بها لم يعتبرها كذلك ، هذا مع التنبيه على ان الجمهور على ان البسملة في الفاتحة آية أصيلة . ومهما يكن من امر فان هذا الخلاف لا ينقض ما جزمنا به من اتصال فصل السور بالبسملة منذ ترتيب المصحف الاول .

السجديات

وثالثا - السجديات ومواضعها

ان هناك احاديث عديدة متصلة باصحاب رسول الله ومستندة الى مشاهدة النبي على اختلاف وتفاوت في اسنادها ومتونها تعين اربع عشرة سجدة في القرآن . وللفقهاء بحوث مستندة الى هذه الاحاديث في وجوب السجود عند تلاوتها او استحسانه او عدم وجوبه في بعضها دون بعض حيث اوجبه بعضهم في بعضها واستحب في بعضها ولم يوجبه في بعضها على اختلاف في ذلك مرجعه اختلاف متون الاحاديث واسنادها ورتبها بما لا نرى ضرورة للتوسع فيه هنا . ونكتفي بالقول ان هذا الاختلاف يدل على ان مواضع السجديات لم تكن معينة كتابة او اشارة في مصحف ابي بكر وعثمان ، وان رواياتنا ظلت تتناقل فاخذ بعض نساخ المصاحف يشير الى مواضعها فيها متأخراً عن ذينك المصحفين كعمل تنظيمي وفي وقت ليس من السهل تعيينه ، وان كان اختلاف آئمة المذاهب يمكن ان يساعد على القول ، ان ذلك كان في القرنين الثاني والثالث الهجريين .

ورابعا - مبادئ الاجزاء والاحزاب

ان هناك كذلك بعض الخلاف في مبادئ الاجزاء والاحزاب

وأواخرها ، وليس هناك فيما اطلعنا عليه أحاديث متصلة بالنبي أو اصحابه عن هذه التقسيمات الموجودة في المصاحف المتداولة عدا الحديث المطلق الذي اوردناه في المجموعة الثالثة عن تحزيب القرآن والذي لا يفيد شيئا في ما نحن بصدده ، وان كان يستأنس به ان قراء القرآن منذ حياة النبي عليه السلام كانوا يقرأونه اقساما اقساماً ، ويقفون عند مواقف خاصة حينما يتوقفون عن القراءة . وهذا يسوغ القول ان هذه التقسيمات في المصاحف عمل تنظيمي متأخر عن المصحف العثماني ، مع التنبيه على ان ذلك الحديث يمكن ان يكون الباعث عليه . ولعله مستند الى قراءة القراء التي كان القراء يتفقونها شفها خلفا عن سلف الى ان اتصل باصحاب رسول الله .

- ١٣ -

كتابة ترتيب نزول السور القرآنية وعدد آياتها

خامساً - كتابة ترتيب نزول السور وصفاتها وعدد آياتها وارقامها

وفواصلها

ان بعض المصاحف تذكر في فواصل السور (١) ترتيب نزول كل سورة اي ان السورة قد نزلت بعد السورة الفلانية (٢) وصفة كل سورة اي مكية او مدنية (٣) وعدد آيات كل سورة (٤) ورقم الآيات المدنية في السورة المكية ورقم الآيات المكية في السورة المدنية اذا كانت السورة احتوت آيات مكية ومدنية معا ، (٥) ورقم كل آية بعد كتابتها في السورة ، في حين ان بعض المصاحف لا تذكر شيئا من هذا وتكتفي بذكر اسم السورة ، وان بعضها تذكر بعض هذه الامور دون بعض

وان بين المصاحف التي تذكر هذه الامور جميعها او بعضها اختلافا في ما تذكره حيث يذكر بعضها سورة ما مكية بينها يذكرها بعضها مدنية . وحيث يكون عدد آيات السورة في مصحف اقل او اكثر منه في مصحف آخر ، وحيث يكون عدد الايات المكية والايات المدنية في السور المدنية والمكية وارقامها في مصحف مغايرة لعددتها وارقامها في مصحف آخر ، وحيث توضع فاصلة وراء آية ما في بعضها بينها لا تكون مفصولة في بعضها ، وحيث تكون الفواصل بين الايات في بعضها صماء بينها تكون في بعضها تحمل رقم الآية المتسلسل .

فالواضح من كل ذلك ان هذه الامور - عدا فصل الايات بفاصلة ما - هو عمل تنظيمي متأخر وليس له اصل في المصحف العثماني . وقد استثنينا فصل الايات بفاصلة ما لاننا نعتقد ان المصحف العثماني لم يسرد الايات مردا دون فصل بينها ، ولان الآية هي الوحدة القرآنية الصغرى المستقلة ، وقد اشير اليها في القرآن نسا كذلك كما جاء مثلا في آية النحل (١٠١) هذه ، واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل . فلا يعقل الا ان توضع فواصل بين الايات . ولعل الفاصلة التي كانت تفصل بين الايات في المصحف العثماني هي نقطة صماء .

وهناك اختلاف في عدد آيات كثير من السور . وقد ذكر السيوطي في الاتقان ان المتفق على عدد آياته اربعون سورة فقط . ومع ان هناك حديثا اورده ابن العربي عن النبي عليه السلام ونقله السيوطي يفيد ان الفاتحة سبع ايات والملك ثلاثون آية فان هذا لم يمنع الخلاف على عدد آيات هاتين السورتين ايضا . وقد قال بعض العلماء ان سبب اختلاف السلف في عدد الايات ان النبي عليه السلام كان يقف على بعض كلمات

من الآيات فيحسب السامع انه يقف على آخر الآية . على ان بما يرد ان يكون ليس في تمييز بعض الفواصل في المصحف العثماني فكان هذا الخلاف في المصاحف التي نسخت عنه وتدولت . وأوتب على ان الخلاف في عدد الآيات ليس كبيرا ، وكل ما تناوله دار في نطاق ضيق من نقص آية او آيتين في بعض السور او زيادة آية او آيتين في بعض اخر مثل وصل بعضهم كلمات « طسم وطس » في سور الشعراء والنمل والقصص و « الم » في سورة العنكبوت وغيرها و « الر » في سورة يونس وغيرها و « حم » في سورة فصلت وغيرها وعدّها موصولة مع ما بعدها او مفصولة عنه فتكون آية عند من عدّها مفصولة ولا تكون كذلك عند من عدّها موصولة ، ومثل عد البسمة آية في سورة الفاتحة وعدم عدّها ، وعد صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، في سورة الفاتحة آية عند بعضهم أو آيتين عند بعض اخر .

ونقول في حدد ترتيب نزول السور اننا اطلعنا على عدة ترتيبات . منها ترتيب المصحف الذي اعتمدها ونعني مصحف قدور أوغلي ، ومنها ترتيب السيوطي استند فيه الى ما اعتمده من الروايات ، ومنها ترتيب في تفسير الخازن وآخر في تفسير الطبرسي ، وثلاثة اخرى أوردّها السيوطي في الاتقان منسوبة الى الحسين وعكرمة وابن عباس وجابر . وبين هذه الترتيبات تخالف يسير او كبير ، مع التنبيه على ان مضامين بعض السور المكية والمدنية تسوغ التوقف في ترتيبها الوارد في هذه الترتيبات ، ونحمل على القول انها لا تمثل الحقيقة تمثيلا صادقا ، وانه ليس هناك ترتيب بنيت على النقد والتمحيص بكامله او يستند الى أسناد وثيقة متصلة بالعهد النبوي . فهناك روايات عديدة مختلفة في صفات بعض السور

وبينما يسلك بعضهم سوراً في سلك السور المكية او بالعكس مثل سور الرعد والحج والرحمن والانسان والزلزلة والفلق والناس والاخلاص والكوث وقريش والعصر والعاديات والقدر والمطففون والفاخمة التي تسلكها بعض الروايات في السلك المدني بينما تسلكها روايات أخرى في السلك المكّي ، ومثل سور الحديد والصف والنغابن والبيبة التي تسلكها بعض الروايات في السلك المكّي بينما تسلكها روايات أخرى في السلك المدني . وفضلاً عن ذلك فإن في القول بترتيب نزول سور القرآن تجزؤاً خاصة بالنسبة لبعض السور المدنية حيث تلهم مضامينها ان بعض فصول سور متقدمة في روايات الترتيب قد نزلت بعد بعض فصول سور متأخرة فيه ، وان فصول هذه السور قد الفت تأليفاً متأخراً عن نزولها وقتنا ما بما ذكرنا بعض نماذجه ونبينا عليه في بحث سابق . وكل ما يمكن ان يقال في مثل هذه السور ان وضعها في ترتيب النزول كسور تامة بعد سور تامة حقيقة او رواية اذا جاء من ان فصلها الاول او فصولها لاولى قد نزلت بعد الفصل الاول او الفصول الاولى من السورة التي قبلها .

ولقد اجمعت الروايات مثلاً على ان سور العلق والقلم والمزمل والمدثر هي اوائل السور نزولاً على اختلاف في الاولوية بينها ، وعند التدقيق تراءى لنا ان هذه الروايات محل نظر ، فالآيات الاولى من سورة القلم احتوت آية « واذا تتلى عليه اياتنا قال اساطير الاولين » ، والآيات الاولى من سورة المزمل احتوت آية « ورنل القرآن ترتيلاً » ، والآيات الاولى من سورة المدثر احتوت آية « ان هذا الا قول البشر » ، والآيات التي اعقبت الآيات الخمس الاولى من سورة العلق احتوت آيات فيها ووصفاً لموقف بعض الطغاة من دعوة النبي وحملاته ، بالإضافة الى حكاية

السور الثلاث الاولى مواقف بعض الكافرين والمكذبين وجدلهم ومكابرتهم والى حملات عليهم فيها بسبب ذلك . فهذا كله يلهم بقوة أنه ينبغي ان يكون قد نزل قبل هذه السور وبعد آيات سورة العلق الخمس الاولى على الاقل قران يصح ان يوتل ، وان يقال عنه اساطير الارلين ، وقول البشر لا وفيه دعوة وانذار عامان وقد تلي على الناس ودعوا الى الله به فوقف الكفار منه موقف الجاحد المعاند فتزلت بقية سورة العلق والسور الثلاث الاخرى تحكي مواقفهم وترد عليهم . ومن اجل هذا ختمنا ان تكون سور الفاتحة والاعلى والشمس والعصر والليل وأمثالها بما لا يحتوي الا الدعوة والانذار والاهداف بصورة عامة هي السابقة بالنزول بعد آيات العلق الخمس الاولى ان لم يكن هناك قران نزل ثم رفع يحتوي ذلك ، ويمكن ايراد امثلة متعددة أخرى كثيرة أيضا .

تقريب الاسلوب المكي والاسلوب المدني

ونستطرد فنقول ان اسلوب القران يساعد بنطاق غير ضيق على التمييز بين السور المكية والسور المدنية بل الآيات المكية والآيات المدنية ايضا فالسور المكية أولا تنحرف في الاغلب نحو التسبيح والتوازن ، وثانيا فتكثف فيها الدعوة الى الله وأثبت استحقاقه وحدده للخضوع والعبادة ومحاربة الشرك وكل ما يتصل به وتعنيف الكفار وتقريرهم بسببه ، وثالثا أن اسلوبها المتصل بالدعوة الى المكارم والاجتماعية والروحية والانسانية والتحذير من الاثام والفراش اسلوب دعوة وحض وتشويق وتنبه وتنويه ، ورابعا أن القصص ومشاهد الآخرة والحديث عن الملائكة والجن وحكاية أقوال الكفار وجدلهم واقتراءاتهم ونسبهم المختلفة للنبي قد كثرت وتكررت ، وخامسا إن وحدة الموضوع في السور الطويلة والمتوسطة فضلا عن القصيرة ملحوظة في كل سورة منها تقريبا ، وسادسا إن تلاحق الفصول والسياق جدلا وحكاية وانذارا وتبشيرا ووعدا ووعدا وتدعيا وتمنيلا وتذكيرا

وقصصاً رنطبناً وترجها وتلقينا وبرهنة ملموح كذلك في كل سورة منها تقريباً وفي السور المكية تبرز مبادئ الدعوة القرآنية قوية واضحة ، وتبرز خصوصيات القرآن وبميزاته الاسلوبية والموضوعية بالنسبة إلى الكتب السماوية الاخرى قوية واضحة كذلك ومن مميزات الاسلوب المكي اللهجة الخطابية القوية النافذة إلى الاعماق والقارة للاسماع والقلوب واللهجة التي يذكر بها اليهود خاصة حيث خلت من التقرير والتعنيف والجدل والاخذ والرد ، وتلك الصور الجهورية والازعاجية والتشكيكية والدمية الواردة عنهم في القرآن المدني واللهجة المحيية الاستشهادية التي يذكر بها الكتابيون وأولو العلم كأنما هم حزب المسلمين والدعوة النبوية والاسلوب المكي يغلب فيه وصايا الصبر والتطمين والتسكين وعدم المبالاة بمواقف الكفار كما انه خلا من الحز على الجهاد ووقائع الجهاد وخلا كذلك من ذكر المناقير ومواقفهم ودسائسهم والحملات القاصمة عليهم . وواضح ان هذا كله متصل بظروف العهد المكي من السيرة النبوية بما نبهنا عليه في سياق التفسير .

أما القرآن المدني فالسجع فيه قليل بل نادر ، وطول نفس الآيات غالب ، وتقل فيه فصول القصص ووصف مشاهد الآخرة والجن والملائكة والجدل ووصف مشاهد الكون أو تقصر ويكتفي من ذلك بالتذكير والاشارات الحاططة ، وتصطبغ فيه المبادئ والتكاليف التعبدية والاخلاقية والاجتماعية والقضائية والسلوكية بصيغة التقنين والتقيد ، وفيه تشريع الجهاد ووقائعه وظروفها ، وفيه إبطال عادات وتقاليد قديمة ، وإقرار عادات وتقاليد قديمة أخرى مع الإصلاح والتهديب ، وإنشاء عادات وتقاليد جديدة في سبيل الإصلاح الاخلاقي والاجتماعي ، وفيه صور

النفاق والمنافقين ومواقفهم ، ولهفته عن اليهود لهجة شديدة في الدعوة والتعنيف والتنديد وفيه صور عن مواقفهم واحوالهم ، وفيه الاستفتاءات والاسئلة القضائية والاجتماعية والاخلاقية والامروية واجوبتها التشريعية وواضح ان هذا كله متسق ايضا مع ظروف العهد المديني من السيرة النبوية بما نبهنا عليه في سياق التفسير كذلك .

وعلى ضوء هذه المميزات ومع استلham المضمون والسباق امكنا ترجيح مكية سور الرعد والحج والرحمن والانسان والزلزلة التي يذكر مصحف قدور ارغلي وغيره مدنيتهما ، وامكنا كذلك ترجيح مكية ومدنية السور القصيرة الاخرى التي اختلفت الروايات فيها ، وترجح احتمال تقدم بعض السور المتأخرة وتأخر بعض السور المتقدمة ، وترجح مكية آيات ذكرت الروايات انها مدنية في سور مكية ومدنية آيات ذكرت الروايات انها مكية في سور مدنية ، انبها عليه في سياق التفسير الكامل .

- ١٤ -

الشكل والنقط :

سادسا : شكل المصاحف ونقطها

من الثابت المسلم به أن النقط والشكل على الوجه المستعمل في المصاحف المتداولة قد اخترعا بعد النبي وفي أخريات دور الخلفاء الراشدين أو أواسط دور الامويين على اختلاف في البدء والتطور . ولذلك فإنهما عهدهان وليس لهما اصل في المصحف العثماني وما قبله جز ما وقد مست الحاجة الى ادخالها على المصحف لضبط القرآن وتيسير قراءته صحبة وعدم ترك المجال للالتباس . ولا سيما ان المسلمين قد انتشروا في بقاع الارض اكثر من ذي قبل ودخل الاسلام امم وطوائف غير عربية ، وصارت اللغة

العربية تعلم تعلما ولم تبق سليقة، وقد كان من شأن بقاء القرآن بدون إعجام (تنقيط) خاصة أن يلتبس على قارئه في المصحف قراءة الحروف المتشابهة الشكل التي لا يميزها عن بعضها الا النقط مثل ب ت ث ج ح خ ذ ز س ش ص ض ط ظ ع غ كما كان من شأن بقاءه بدون شكل أن يلتبس على القارئ غير العربي سليقة تميز الكلمات المتشابهة الشكل التي لا يميزها عن بعضها الا الشكل او كثرة الممارسة وحسب فهم المعنى وتمييز أواخر الكلمات ولا سيما حينما يتأخر الفاعل ويتقدم المفعول مثلاً . وبما لا ريب فيه ان ادخالها على الخط العربي عامة وعلى المصحف خاصة خطوة خطيرة جداً في سبيل الاتقان والاحسان والفهم والتمييز . والمرجح أنها لم يختارها كالمدين ، وإنما سارا سيراً تطوريا حتى بلغا مبلغهما التام في القرنين الثاني والثالث الهجريين .

علامات الوقف والوصل :

سابعا : علامات الوقف والوصل والاداء .
ان ما قرئناه في الفقرة السابقة يصح على علامات الوقف والوصل والمد والقصر والسكون فوق الكلمات والحروف القرآنية في المصحف العثماني ، من حيث كونها محدثة وليست أصيلة في المصحف العثماني ومن حيث قصد ضبط قراءة القرآن واتقان أداء كلامه وحروفه مع التنبيه على انها دون خطوة الشكل والنقط خطوة أولا وأنها قد أحدثت بعدهما على الأرجح ثانيا . وننبه كذلك على ان ما نقصده هو وضع العلامات ، وهذا لا يقتضي طبعا أن لا يكون اللفظ عليه اللام واصحابه قد عنوا بالوقوف على ما ينبغي الوقوف عليه ووصل ما ينبغي وصله والسكوت عندما يجب السكوت وما يقتضي مدد وقصر ما يحسن قصره الخ . فلا يصح ان يشك في أن كل هذا قد كان ، وأنه متصل

بطبيعة النطق الخطائي والتقريري التي هي من طبيعة التلاوة القرآنية ومقتضيات أداء معاني القرآن بما لا يمكن إلا أن يكون ، سواء أفي تلاوته من النبي على الناس أم تلاوته من قبل الصحابة ، وسواء أكان ذلك في الصلاة أم في مجال التلاوة والوعظ والبيان ، فضلا عن ان طبيعة الخطاب والتلاوة بوجه عام تقتضي ذلك . والراجح ان الامر القرآني « ورتل القرآن ترتيلا » المزمع ٤ . وهو من أوليات القرآن نزولا هو في صدر ذلك أو بما استهدفه . وتلاوة القرآن على الأداء المعروف منصلة فيما نعتقد بالسماح خلفاً عن سلف حتى تتصل بالعهد النبوي . وقد جرى الامر على هذا بالنواتر الفعلي السماعي الذي لم ينقطع من لدن النبي عليه السلام . وبما لا ريب فيه أن العلامات وحدها لو لم يكن هذا النقل السماعي المتواتر لا تجزي وحدها ولا تجعل قارئ القرآن يؤدي دلالاتها على وجهها دون تعلم وسماع . والمعقول ان وضع العلامات كانت من قبل أعلام القراء والرواة حينما رأوا أن الحاجة أخذت تمس الى ذلك ، وان بقاء القرآت بدونها قد يؤدي الى اساءة التلاوة والأداء والانحراف عن الاسلوب الصحيح القويم المناسب مع طبيعة المفاهيم القرآنية والذي كان يرويه القراء والرواة راو عن راو وقارئ عن قارئ ، على ان المعقول أيضا أن وضعها هو من قبيل التذكير بدلالاتها التي كانت تتلقى سماعا . والراجح أن هذا قد كان كذلك في القرنين الثاني والثالث الهجريين .

- ١٥ -

رسم المصحف العثماني :

ثامنا : رسم المصحف العثماني .
ان اكثر العلماء وأئمة القراء قرروا وجوب الاحتفاظ في كتابة القرآن

بالرسم العثماني ، ومنهم من كره كتابته برسم آخر ومنهم من حرّمها .
ولم نطالع علي أقوال وأحاديث موثوقة متصلة بأصحاب رسول الله في هذا
الشأن . ولذلك يصح أن نقول إنها أقوال اجتهادية .

ويبدو أن هذا التشديد متصل بروايات القراءات السبع أو العشر ،
وخاصة بما يتصل بالصرف والنحو وأقسام الكلمات مثل « ملك وملك »
و « مسجد ومسجد » و « يفعلون وتفعلون » و « فتحت وفتحت »
و « أرجلكم وأرجلكم » و « تبينوا وتثبتوا » الخ مما يقع في وحدة
الرسم ، ومتصل كذلك بالقول إن هذه القراءات صحيحة كلها لأنها تقع
في نطاق وحدة الرسم من ناحية ومتصلة بالسماع المتسلسل الواصل إلى
قراء الصحابة الذين تلقوا القرآن عن النبي من ناحية أخرى بحيث يورد أن
شأن كتابة القرآن بغير الرسم العثماني وبالخطوط الدارجة في الأدوار التالية
أن تحول دون قراءة الكلمات القرآنية بقراءات مختلفة يشملها الرسم
العثماني ومتصلة بقراء الصحابة ، فيكون في ذلك تحكّم في تصويب قراءة
دون قراءة وإبطال قراءة دون قراءة أو وسيلة مؤذية ليهما ، وأن هذا
هو ما تهرّز منه العلماء والقراء في مختلف العصور تورعا وتدينا وزيادة في
التحري في تلاوة القرآن تلاوة قديمة صحيحة متصلة بالنبي والذين سمعوا
منه وتلقوا عنه .

ومما يبدو من وجاهة هذا القول ونتائجه ، وخاصة فوائده التي من
أهمها أن احتفظت المصاحف خلال ثلاثة عشر قرنا برسم واحد قد كتب
وفاقا لما كان يكتب في عهد النبي وبأمره ، وحفظ القرآن بذلك من
التحريف والتشويه ، ومن الخلافات التي لا بد من أن تنشأ بسبب تطور
الخطوط من وقت لآخر وتبدلها في أدوار لم يكن فيها طابع ولا تصوير

شمسي ، ومنعت تكرور المسألة التي افترعت عثمان وحملته على توحيد هجاء القرآن وجعل المصاحف بهجاء واحد تنسخ عن الاصل الذي امر بنسخه وتنتشر في مشارق الارض ومقاربها موحدة ، فانا نعتقد أنه ليس من شأنه أن يمنع جواز كتابة المصحف اليوم بالخط الدارج على شرط مراعاة قراءة من القراءات المشهورة المتصلة بأحد أئمة قراء الصحابة والنص على ذلك في مقدمة المصحف . لأنه لا يوجد نص ثابت متصل بالنبي واصحابه يمنع ذلك فيما اطلعنا عليه ، ولأننا نعتقد أن في هذا تيسيراً واجبا لتعليم القرآن وتعلمه وحسن ضبطه واتقانه . فبين الرسم العثماني والرسم الدارج فروق غير بسيرة فضلاً عن ما بين رسوم القرآن نفسها من تناقض بمأسوف نشير إليه بعد قليل مؤد في نفس الوقت الى زيادة التعقيد والتعسير . ومن العسير أن يتعلم القاري . هذا الرسم بالإضافة إلى الرسم الدارج الذي ألفه في كتابته وكتبه وقراءاته الأخرى . وبالإضافة الى هذا فان هناك مسلمين وغير مسلمين لا يتيسر لهم تلقي القرآن من قراء مجازين او قراء تلقوا أو قرأوا أو سمعوا من قراء مجازين مما يصعب إتقان تلاوة القرآن برسمه العثماني بدونه ، والمصاحف في متناول جميع الناس على اختلاف الملل والاجناس ، ففي كتابته بالرسم الدارج منع لمغلبة الغلط في القراءة والتشوية وسوء الفهم والتفسير ، وتيسير واجب لنشر القرآن الذي هو من اهم واجبات المسلمين أيضاً ، ولا سيما ان الرسم العثماني محفوظ لن يبدى ما يوجد منه من ملايين النسخ المطبوعة وغير المطبوعة والرسوم الشمسية ما فيه الضمانة على بقاءه المرجع والامام أبد الدهر ، وقد رأينا للامام المفسر الكبير ابن كثير في كتابه فضائل القرآن وهو من علماء

عظرون السادس فولا يبيع به كتابة المصحف على غير الرسم العثماني وفي هذا تأكيد وتوثيق لوجه النظر التي نقرها .

هذا أولا . وثانيا ان الذي نعتقده ان رسم المصحف العثماني لم يكن ليكون محتملا للقراءات السبع او العشر ، وليس هو توقيفا عن النبي عليه السلام كما يظن او يقول البعض ، فليس هناك حديث وثيق بل وغير وثيق متصل بالنبي او أصحابه المعروفين يؤيد ذلك ، وانما هو الطريقة الدارجة للكتابة في ذلك العصر ، ولم يكن النبي يقرأ ويكتب ، وانما كان يلي ما يوحى اليه به على كتابه فيكتبونه وفق ما يعرفونه من طريقة الكتابة . وليس من سبيل الى غير ذلك . وما دامت طريقة الكتابة قد تطورت فان تسوية كتابة المصحف وفق الطريقة الدارجة طبيعي ايضا وخاصة بعد ان صار الاحتفاظ بالرسم العثماني ليكون المرجع والامام مطبوعا ومحفوظا ومصورا كما قلنا ممكنا الى ما شاء الله .

اما التناقض او التباين في رسم المصحف العثماني نفسه فانه في الحقيقة يبعث على العجب والحيرة ، حيث وردت كلمات واحدة أو متقاربة في سور مختلفة بل وأحيانا في سورة واحدة مختلفة الرسم في حين ان كثيرا منها متاثل في مواقع الصرف والنحو واغراب الاواخر والمعنى كما ترى في الثبوت التالي مثلا :

لا أذبحنه = لا عذبه (١) بنبا = بنباى (٢) سموات = سموات (٣)
بنت = بنات (٤) لشيء = لشيء (٥) ابن أم = ابنؤم (٦) احسانا =

(١) النمل ٢١ (٢) القصص ٣ والانباء ٣٤ (٣) نصأت ١٢ : والملك ٣ (٤) الصافات ١٥٣ والانباء ١٠٠ (٥) النمل ٤٠ والكهف ٢٣ (٦) الاحراف ١٥٠

احسننا (٧) اصلاح = إصلاح (٨) جزاء = جزاء (٩) نعمت = نعمة (١٠)
رحمة = رحمت (١١) قرة = قوت (١٢) امرأة = امرأت (١٣) سنة =
سنت (١٤) جنة = جنت (١٥) لعنة = لعنت (١٦) بقية = بقيت (١٧)
بسطة = بسطت (١٨) الايكة = لا يكة (١٩)

فهذه المباينات (٢٠) تسوغ القول ان اول ما نسخ وكتب برسم
واحد من المصاحف العثمانية مصحف واحد كتبه كاتب املاه عليه قاري.
وتعاقب عليه اكثر من كاتب واكثر من قاري فكتب بعضهم الكلمات
في مواضع برسم وكتب بعضهم نفس الكلمات في مواضع برسم اخر
ثم نسخت المصاحف الاخرى العثمانية التي ارسلت الى الافطار عن هذا
المصنف حرفيا وان العلم بالكتابة بين الصحابة لم يكن موحداً وان
الكتابة والاملاء لم يكن متقنا ، وحتى لو فرضنا ان المصاحف العثمانية
كتبت جميعها معا من ممل واحد فلا بد من أن نفرض انه تعاقب على
كتابتها اخرون ، ولعله كان في المصنف والمصاحف المتداولة في ايدي
المسلمين اذ ذاك اخطاء ومباينات اكثر وافدح في الكتابة والاملاء بما
افزع عثمان وكبار الصحابة وحملهم على توحيد الرسم واجتهدوا اجتهدهم

وطه ٩٤ (٧) البقرة ٨٩ والنساء ٣٦ (٨) البقرة ٢٢ والنساء ١١٤ (٦) البقرة ٨٥
والثالثة ٢٩ (١٠) البقرة ١١ و١٣١ (١١) الزخرف ٣١ وال عمران ٧٤ (١٢)
القصص ٩ والفرقان ٧٤ (١٣) ال عمران ٣٥ والنساء ١٢ (١٤) الاحزاب ٦٣
وقاطر ٤٣ (١٥) البقرة ٢٦٤ والواقعة ٨٩ (١٦) ال عمران ٨٧ و٦١ (١٧) هود
٨٦ والبقرة ٢٦٨ (١٨) البقرة ٢٤٧ والاعراف ٦٩ (١٩) الحجر ٧٨ والشعراء

١١٦

(٢٠) اكتفينا بمثال لكل مباينة مع ان هناك اكثر من اية في اكثر من سورة ليا
بعض التباين ايضا

فلم يستطيعوا ان يتخلصوا من بعض الاخطاء والمباينات ان جاءت غير ذات بال من حيث الجوهر والمعنى ، واذا كان مثل هذه الاخطاء تقع اليوم والمدارس منتشرة والناشئة تتعلم فيها بطريقة موحدة بسبب تفاوت الاتقان والعناية والمران فوقوعها في ذلك العصر الذي لم تكن الكتابة فيه قد وصلت الى قوامها من النضج من باب أولى . وقد فرضنا ان يكون المنسوخ في اول الامر من المصاحف العثمانية مصحفا واحداً تعاقب عليه اكثر من كاتب ثم نسخت عنه المصاحف الاخرى لان هذا الفرض هو الذي يستقيم وينسقي مع وجود تلك المباينات اذ لو نسخت المصاحف جميعها مرة واحدة من قبل عدد من الكتاب لكان تعذر فرض اتحادهم في هذه المباينات التي لا ترجع الى سبب املائي فني كما ان ما فرضناه هو المعقول الذي تطمئن به النفس وينفق مع طبيعة الامر على ما هو المتبادر

ولقد علق ابن خلدون على هذه الظاهرة فقال : كان الخط العربي لاول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة . وانظر ما وقع لاجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير محكمة في الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند اهلها . ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركاً بما رسمه اصحاب رسول الله وخير الخلق بعده كما يقتضى لهذا العهد خط ولي أو عالم تبركاً وتُسبغ رسمه خطأ أو صواباً . . .

ونحن نعرف ان علماء القراءات تخریجات لهذا التباين . ولكن المدقق يجد فيها تكافؤاً وتجاوزاً كبيرين لا يبعثان اطمیناناً ولا يوجبان اقتناعاً ولا سيما ان في هذا التباين كما قلنا امثلة لا تختلف عن بعضها نحواً وصرفاً ونظماً وموقع جملة ومعنى .

وهناك مسألة أخرى في حدود رسم المصحف العثماني بثيورها حديثان أحدهما مروى عن عائشة ووصف بأنه إسناده صحيح على شرط الشيخين ، وقد روي عن عروة قال سألت عائشة عن لحن (١) القرآن في قوله تعالى « ان هذان اسحران (٢) » والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة (٣) ، و« ان الذين امنوا والذين هادوا والصابئون (٤) » . فقالت يا ابن اخي هذا من عمل الكتاب أخطأوا في الكتاب (٥) . وثانيها عن عكرمة وغيره جاء فيه انه لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن فقال لا تغيروها فان العرب ستغيرها أو قال ستعربها بالسنتها . وقد أنكر بعض العلماء الحديث المنسوب الى عثمان وقالوا ان اسناده ضعيف مضطرب منقطع ، وان عثمان جعل للناس إماما يقتدون به فلا يصح ان يكون قد رأى فيه لحناً وتركه لتقبيه العرب بالسنتها وكان أولى الناس بتصحيحه ، كما خرج علماء اخرون ما ظن انه لحن تخريباً نحوياً سليماً ، وبما قاله الزمخشري في حدود « والمقيمين الصلاة » لا تلفت الى ما زعموا من وقوعه لحناً في خط المصحف وربما التفت اليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتتان ، وغبي عليه ان السابقين الاولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الاسلام وذبح المطاعن عنه من ان يتركوا في كتاب الله ثلثة يسدها من بعدهم وخرقا

(١) بقصد بالكلمة الفلظ الصرفي أو النحوي

(٢) سورة طه ٦٣ (٣) سورة النساء ١٦٢

(٤) سورة المائدة ٢٩

(٥) اي في الكتابة والرواية من كتاب الدررمان لابن الخطيب ص ١ ، والاتقان للبولطى

حرفوه من يلحق بهم (١) .

ومع ما في كلام الزمخشري من قوة خطابية فإننا لا نرى من المستحيل ولا بما لا يتسق مع طبائع الامور ولا بما ينتقص من قيمة وصحة بل وقدسية المصحف ان يخطئ . ناسخ المصحف الاول من المصاحف العثمانية في كتابة بعض الكلمات حيث جاءت مخالفة للقواعد القوية القرآنية . وقد رأينا فيما اطلعنا عليه من المصاحف المخطوطة أخطاء عديدة وقع فيها النساخ ومنهم خطاطون بارعون لا يهتمون بقصور في الاملاء منها ما ترك على حاله ومنها ما شطب عليه وكتب صحيحه فوقه أو بعده أو على الهامش ؛ ومن هذه الأخطاء ما هو أكثر من كلمة أو جزء من كلمة . وكثيراً ما وقع هذا معنا مع اننا كنا نحرض ان نكتب عن المصحف دون حافظتنا . ولم نطلع على إنكار لحديث عائشة سواء في مسنده أو في مثنه مثل ما كان بالنسبة لحديث عثمان ، بل رأينا في الاتفاق تعليقاً يؤيد صحته ويجادل تعليل ما جاء فيه محاولة غير شافية . ونحن لا نرى في الحديث شيئاً شاذاً وغير منسق مع طبيعة الامور على ما نبهنا عليه آنفاً .

- ١٦ -

القراءات

تاسعاً : القراءات المشهورة .

ان القراءات المشهورة سبع تنسب الى سبعة أئمة من القراء هم نافع بن أبي رويم في المدينة وعبد الله بن كثير في مكة وابو عمر بن العلاء في

(١) الكشاف الجزء ١ ص ٣٩٧

البصرة وعبد الله بن عامر في الشام وعاصم بن ابي النجود وحمزة بن حبيب الزيات وعلي الكسائي في الكوفة ؛ وبضم اليهم احيانا ابو جعفر بن يزيد في المدينة ويعقوب الخضرمي في البصرة وخلف البزاز في الكوفة فيبلغون عشرة وتبلغ القراءات عشراً . واربعة منهم تابعون يروى انهم تلقوا قراءاتهم عن قراء من الصحابة والباقيون تابعو تابعين تلقوا قراءاتهم على ما يروى عن تابعين تلقوا عن قراء من الصحابة . وكل منهم يروي قراءته عن قارئ . صحابي معروف كما ان لكل منهم رواية ولكل من رواها رواية الى ان وصل الدور الى عهد التدوين فدونت القراءات وخلافاتها في تعاريف عامة من جهة وفي كل سورة لحدتها من جهة اخرى .

وتدور هذه الخلافات على الاغلب في النطاق التالي : (١) مخارج الحروف كالترقيق والتفخيم والميل الى الخارج المجاورة كتنطق الصراط بإمالة الصاد الى الزاي (٢) والاداء كالمدة والقصر والوقف والوصل والتسكين والامالة والاشمام (٣) والرسم كالتشديد والتخفيف مثل « يُغْشَى يُغْشَى » و« فُتِحَتْ وَفُتِحَتْ » والادغام والظهار مثل تذكرون وتذكرون والهمز ومد الالف مثل « ملك وملك » و« مسجد ومساجد » انعمل الرسم النطقين (٤) والتنقيط والحركات النحوية مثل « يفعلون وتفعلون » و« ارجلكم وارجلكم » مثلاً .

وفد وضع علماء القراء شروطاً اربعة لصحة القراءة الخلافية وهي (١) التواتر بحيث لا تصح قراءة غير القراءة المتواترة والمشهورة (٢) وموافقة العربية بوجه ما بحيث لا تصح قراءة خلافية لا تتفق مع قواعد اللغة (٣) ورسم المصحف العثماني بحيث لا تصح قراءة خلافية مغايرة للرسم المذكور (٤) وصحة سند القراءة بحيث لا تصح قراءة خلافية لا تستند

الى مسند وثيق يتصل بأحد قراء الصحابة . واجتماع الشروط الاربعة شرط لازم بحيث لا تصح قراءة خلافية لا تجتمع فيها .

على ان هناك ما يمكن ملاحظته في صدد خلافيات القراءات المذكورة فالمقول والمشروط ان أئمة القراء قد اخذوا قراءاتهم سماعا عن قراء من الصحابة ، وان قراء الصحابة قد اخذوا قراءاتهم سماعا عن النبي . ومعقول ان يكون قراء الصحابة مختلفين في القراءة الناشئة عن النطق بالحروف وادائها من ترفيق وتفخيم ومسد وقصر وامالة واشهام ووقف ووصل وتسكين وتنوين حتى ولو قرأوا قراءاتهم على النبي عليه السلام واجازها لهم على اختلافها في ذلك ، وان يكون سمعها منهم غيرهم من الصحابة والتابعين . ولكن بما يدعو الى التوقف والنظر ان يكونوا مختلفين في القراءة الناشئة عن الرسم والتنقيط من تشديد وتخفيف واظهار وادغام وقراءة المضارع بالغائب أو المخاطب وقراءة بعض الكلمات منصوبة حيناً ومجرورة حيناً مثل « ارجلكم وارجلكم » ومفردة حيناً وجمعا حيناً مثل « مسجد ومساجد » واسم فاعل حيناً واسم عادي حيناً مثل « ملك ومالك » ونحو ذلك إلا مع فرض انهم كانوا يقرأون من المصاحف ولم يسمعوها من النبي ، وان هذا كان شأن أئمة القراء التابعين وتابعي التابعين فالنبي لم يكن يتلو من مصحف وكان ما يبلغه وحياً ، واذا كان يخرج الى التيسير كما يدل عليه احاديث نزول القرآن على سبعة احرف بما سوف نبهت فيه في مناسبة اخرى (١) فان هذا منه انما كان على ما نعتقد بقصد التسهيل على الناس في مخارج الحروف والاداء لان هذا متصل بتكوين آلة النطق البشرية ومتصل كذلك بعادة إخراج الحروف وادائها تبعاً

لاختلاف اللهجات او المنازل العالية والواطئة والحارة والباردة والتي لا
معدى من التسهيل فيها وحكمتها واضحة قائمة ؛ وليس في هذا التسهيل
تبديل وتغيير في كلمات القرآن وحروفه ونحوه وصرفه . اذ انه ليس
بما يحتمل ان يكون النبي قرأ مرة « يفعلون » واخرى « تفعلون » ومرة
« تغفر » واخرى « يغفر » ومرة « فتبينوا » واخرى « فتثبتوا (١) »
ومرة « يأس » واخرى « يتبين (٢) » فضلاً عن عدم احتمال تبديله
الكلمات بغيرها ولو في معناها مما يروي في غير نطاق رسم المصحف العثماني
ولا سيما ان الخلافات في هذه هي اكثر الخلافات حتى لقد رأينا الزمخشري
في كشافه يروي امثلة كثيرة جداً منها . ولعله يستقيم ان يفرض ايضاً
ان القراء التابعين كانوا يقرأون على قراء الصحابة من المصحف قراءات
مختلفة ناشئة عن تلك الاسباب والعلل الطبيعية وان قراء الصحابة كانوا
يحذونها استئناساً بما كان من تساهل النبي وامره بالتيسير في قراءة القرآن
اما والحالة على ما ذكرنا فان مما يخطر للبال سؤال عما اذا كان هناك
ضرورة دينية لهذه القراءات المتعددة المختلفة بل والمتباينة حيناً في قطر
واحد . والذي نراه انه ليس هناك من ضرورة دينية لذلك ، وخاصة
بالنسبة لجمهور المسلمين ، وانه يكفيهم ان يقرأوا القرآن بقراءة واحدة
من القراءات المأثورة من مصحف كتب بالرسم الدارج بينهم ، فيه
بعض العلامات الضرورية للوقف والوصل والمد والسكوت ونحو ذلك
مما تقتضيه هذه القراءة المأثورة بحيث يكون من المبسور للمسلمين وغيرهم
- والمصاحف في متناول الجميع - ان يقرأوا القرآن صحيحاً بسهولة

(١) الزهد ٣١

(٢) اورودنا هذه الاحاديث وعلقنا عليها في الفصل الرابع من الكتاب البحث السادس

ويسر ، فلا تكون قرائتهم متوقفة دائماً على التلقي ، لان ذلك غير مبسور دائماً ، ونعتقد انه اذا لم يسر هذا على هذا الوجه وقع الحرج من سوء التلاوة وسوء الاداء وتحريف الالفاظ والمعاني .

وليس من بأس الى هذا بل لعله مستحب ان يكون هناك فئة من الهواة بل فئة تنفق عليها الحكومات الاسلامية او المؤسسات الدينية لتظل تدارس القراءات ويتداولها القراء جيلاً بعد جيل فان فائدة ذلك بمثابة الفائدة المستعجة التي نوهنا بها في الاحتفاظ بوسم المصحف العثماني مطبوعاً ومخطوطاً ومصوراً فيستمر ذاك كما يستمر هذا فانما ابدأ بين جماعة المسلمين في كل قطر من اقطارهم ، مع ملاحظة نواها هامة وهي وجوب عدم الغلو في أداء هذه القراءات وخاصة الفن والمط والترديد مما يخرج القرآن عن قدسيته ويضعف نفوذه الروحي وما يكاد يبدو من القراء انه بسبيل التعمال والانتفاخ اكثر منه بسبيل الرواية قراءات غير القراءة الدارجة العامة في قطارهم .

ولقد قال الامام الطحاوي والقاضي الباقلاني وأبو عمر بن عبد البر وغيرهم من ائمة الكلام (١) ان القراءات جميعها كانت رخصة في أول الامر لتيسر القراءة بلغة فريش على كثير من الناس ثم نسخت بزوال العذر وتيسر الحفظ وكثرة الضبط وتعلم الكتابة . وفي هذا من الوجاهة ما فيه . ولابن قتيبة كلام يمت الى هذا المعنى وفيه من الوجاهة ما فيه حيث قال كان من تيسير الله أن أمر نبيه أن يقرئ كل قوم بلغتهم - يعني بأدائهم الطبيعي في النطق - فلهذيلي يقرأ الحاء عينا والاسدي يقرأ تملون بكسر أوله ، والتميمي يمز والقرشي لا يمز . والطبري كلام وجيه آخر في تقريره

معنى كتابة المصاحف العثمانية حيث قال ان امير المؤمنين عثمان بن عفان لما رأى اختلاف الناس في القراءة وخاف من تفرق كلمتهم جمعهم على حرف واحد وهو هذا المصحف الامام ، واستوثقت له الامة على ذلك بل اطاعت ورأت فيما فعله الرشد والهداية .

ومع ان المدى الذي انطوت عليه هذه المقتبسات يختلف عن المدى الذي قررناه في هذا المبحث فان فيها فيما نرى ما يمكن الاستئناس به على حواب ما قررناه .

الفصل الثالث

الخطه التي لفهم القرآن وتفسيره

تمهيد

لقد شغفت منذ شبائي بالقرآن ، وتذوقت اسلوبه الرائع الحكيم في شتى مواضعه ودعوته وتوجيهاته وتقريراته ، واطلعت على جملة من كتب التفسير وغيرها من الكتب العربية قديمها وحديثها بما يتصل بموضوع القرآن ومبادئه واهدافه والجدل حوله ، واستظهرت كثير آمن روائعه الجهادية والاخلاقية والاجتماعية والروحية ، وكانت لي منهاجا في ظروف حياتي التعليمية والجهادية ثم تيسرت فرصة السجود في دمشق قبل الحرب العالمية الثانية من قبل السلطات الافرنسية بسبب الثورة الفلسطينية فرغت فيها لنفسي ، ورأيتها سانحة مباركة للاشتغال بالقرآن وخدمته اكثر من ذي قبل ، فحفظته غيبا من جهة وعدت الى قراءة ما تيسر لي من كتب التفسير والكتب القرآنية الاخرى من جهة اخرى ، وألفت كتيبي الثلاثة فيها (١) ، فكانت لي من ذلك مجال لادامة النظر وإمعان الفكر والتدبر وانتهى بي الامر الى اليقين بأن افضل الطرق لفهم القرآن وتفسيره أن يلاحظ الناظر فيه الأمور التالية مجتمعة :

(١) عصر النسي وبشته قبل البعثه - صور مكتبة من القرآن . صدر عام ١٣٦٦

- ١٩٤٧ ، وسيرة الرسول جزان - صور مكتبة من القرآن . صدر عام ١٣٦٧ -

١٩٤٨ ونظم القرآن وتسنوره في شؤون الحياة وهو جاهز للطبع

القرآن والسيرة النبوية

اولا ان القرآن سلسلة تامة للسيرة النبوية وتطورها منذ البدء الى النهاية متصل بعضها ببعض ، ومفسر بعضها لبعض : مع ملاحظة الاستدراك الذي اوردناه في آخر الفقرة (هـ) من الفصل الاول .

ففي كل سورة من سورته ومجموعة من مجموعاته ، أو فصل من فصوله صورة لموقف من مواقف النبي من سكان بيئته من العرب وغير العرب ومن المشركين والكتائبين ، أو صورة لموقف من مواقفهم منه ومن دعوته ، أو صورة من صور مواقف النبي من الذين استجابوا للدعوة أو من مواقفهم منه ، أو من مواقف الكفار منهم أو مواقفهم من الكفار أو صورة لتطورات جميع هذه المواقف ، دعوة وتأيينا وبرهنة وتدليلا وعظة وتنبيها وتبشيرا وإنذارا ، ووصفا وتنبيها وقصصا وأمثالا وترغيبا وترهيبا ووعدا ووعيدا ، وجدالا ونجديا وعنادا ومكابرة وامتنكبارا وإذى ، وتنديدا وتنوينا وتحملة وتنبيها وتطمينا وتعميرا ، وسؤالا وجوابا وجهادا وتشريعا الخ ، وكل صورة معطوفة على صورة سابقة او مرتبطة بصور لاحقة ، في انساق وانسجام تامين وضمن نطاق واحد مما ينضج لكل من ينعم النظر في القرآن ويقرأ سورة خاصة وفق تتابع النزول بقدر الامكان .

وملاحظة ذلك مهمة جدا في فهم مواضع القرآن وتقريراته ومداه وروحه وفي جعل الناظر فيه لا يتعد عن حقيقة الواقع والباعث ، ولا يتورط في التخمينات والتزييدات والجدليات وتحصيل العبارات القرآنية ما لا تتحمله . وتوضيحا لذلك نقول ان في القرآن مثلا ما يفيد أنه جرى تبديل بعض الآيات ببعض وأنه نُسخت بعض آيات أو أمور مأمورة

بغيرها كما يدل على ذلك آيات النحل ٩١ - ١٠٥ والبقرة ٩٨ - ١٠٥ ، وفيه ما يفيد ان احكاما واورام وتشريعات عدلت او نسخت او تطورت كما تدل على ذلك آيات الانفال ٦٥ - ٦٦ والمجادلة ١٢ - ١٣ والنساء ١٥ - ١٦ والنور ٢ ، وفيه تنوع في الخطاب للناس عامة مسلمين وغير مسلمين ، سواء أكان ذلك في صدد الدعوة ام في صدد المواقف ام في صدد التبشير والانذار والتنبيل والتشريع والهداية والضلال والكفر والايمان والاحسان والاساءة حيث يكون الخطاب شديداً مؤثراً حيناً وليناً مؤملاً حيناً ، وجائحاً حيناً الى تقرير كون الهداية والضلال والكفر والايمان والاحسان والاساءة من مكتسبات المرء بما اودعه الله فيه من المواهب والقوى الاكتسابية والتمييزية وتقرير عودة التبعة فيها عليه حسنة أو سيئة من اجل ذلك ، وجائحاً حيناً الى تقرير كون ذلك من تقديرات الله الخفية التي لا ينفع فيها انذار ولا تبشير ، ما هو منبث في مختلف السور والفصول القرآنية ، وفيه تقارير شديدة وموثنة بالنسبة للكفار والمنافقين كما جاء في آيات يس ٨ - ١٠ والبقرة ٦ - ٧ بالنسبة للاولين والبقرة ٨ - ١٨ والنساء ١٣٧ - ١٤٣ والمنافقون ٢ - ٦ بالنسبة للآخرين فيها جزم بمصيرهم الرهيب المحتوم من عدم الايمان واستحقاق الخلود في النار مع ان كثيراً منهم بل اكثرهم قد آمنوا وحسن إيمانهم وتبدل مصيرهم الى الثواب والنعيم واستحقوا التنويه والثناء ، وتزل في صدد ذلك آيات قرآنية أخرى كما جاء في آيات الانفال ٢٥ والنحل ١١٠ والفرقان ٧٠ - ٧١ الخ وقد كانت هذه الامور وما تزال ماثراً جدل وحيرة حول ما اذا كان يصح على الله المحيط بما كان ويكون والازلي العلم والارادة البدء اي الرجوع عن ما انزله وقرره وأمر به وأراده وتسخره وتعديله

وتبديله وتنويع مفهوم الاحتمالات والنصوص فيه ، في حين ان ملاحظة صحة الوعده القرآني الوثيقة بالسيرة النبوية واحداها على تنوع صفحاتها وظروفها تجعل الناظر في القرآن يندمج في الوقائع والمقتضيات ، ويجد ان الفصول القرآنية ، انما كانت تنزل حسب حوادث السيرة وظروف الدعوة ، وانه لما كانت هذه الحوادث والظروف عرضة للتطور والتبدل والتنوع فانها تجعله يرى الحكمة واضحة في التبديل والتعديل والنسخ والتنويع والشدة واللين في الخطاب ، وتجعله يرى ان الجدل في ذلك النطاق لا محل له ولا طائل من ورائه ، لان التطور والتنوع في الاحداث والظروف والاذهان متسقان مع طبائع الامور ونواميسها التي فطر الله الكون عليها فلا بدع ان تقتضي حكمته ان يكون ذلك في التنزيل القرآني اتساقا مع هذه الطبائع والنواميس . والمدقق في آيات القرآن التي تفيد ذلك يجد القرآن يورد القرارات المقتضية حسب الاحداث والظروف وتنوعها وتطورها على اسلوب الحكيم ، فلا يدخل في نقاش جدلي الا بمقدار الضرورة المناسبة مع الموقف الواقعي ، فيعلنا بذلك الطريقة المثلى لفهم القرآن وروحه ومداه وظروف تنزيله وتنوعه واسلوبه ، وكون المهم فيه هو الاصلاح والتوجيه الى خير الوجهات لظروف قائمة واذهان وفتات ومواقف متفاوتة ومتنوعة ومتطورة ، وينطوي ذلك في الوقت نفسه على التلقين والتوجيه المستمرين الى الاماد التالية ، يارشح القرآن للخلود والشريعة للقرآنية الاسلامية للعمومية والابدية :

- ٢ -

القرآن والبيئة النبوية

وثانيا ان الصلة قائمة ووثيقة بين ما كانت عليه بيئة النبي وعصره

من تقاليد وعادات وعقائد وافكار ومعارف وبين البعثة النبوية والسيرة النبوية ، وبالتالي بين الوحي القرآني وبين ما كانت عليه هذه البيئة .
وهذه الصلة واضحة اولا من جهة ان الدعوة النبوية والوحي القرآني بوجه عام انما اقتضتها حكمة الله بسبب ما كان عليه الناس - وأهل بيته النبي في مقدمتهم وهم المخاطبون الاولون - قبل البعثة من ضلال في فهم كمال صفات الله ونزاهته عن الشريك والولد واستغنائه عن الولي والمساعد ومطلق تصرفه في كونه ، واستحقاقه وحده للعبودية والخضوع ، الاتجاه ووجوب نبذ ما سواه ، ومن انحراف عن طريق الخير والحق والعدل والفضيلة ومن اختلاف عظيم في المذاهب والعقائد والطقوس ، سواء في ذلك كله العرب وغيرهم ، والكتابيوت والمشركون ، ثم بسبب ان ذلك ناشئ عن ما كان من تقاليد وعادات وافكار ومعارف وأهواء وتأويلات ومفاهيم .

وثانيا - من ما احتواه القرآن من فصول الجدل والتنديد والتفريع في صدد هذه التقاليد والعادات والافكار والمعارف والاهواء والتأويلات والمفاهيم التي احتوى القرآن اشارات كثيرة الى كثير من صورها المتنوعة ، وربط بينها وبين مواقف العرب والدعوة النبوية .
يضاف الى هذا المظهر القرآني العام نصوص قرآنية خاصة (١) في هذا

(١) افرأ مثلا الايات التالية : البقرة ٨١ - ٨٥ و ١٠٧ - ١١٦ و ١٢٥ - ١٢٩ و ١٥٨ - ١٨٩ و ١٩٧ - ٢٠٣ و ٢١٩ - ٢٤٧ و ٢٧٥ - ٢٨٣ وآل عمران ٥٩ - ٦٠ و ٧٧ - ٧٨ و ٩٣ - ٩٧ والنساء ٢ - ١٢ و ١٩ - ٣٤ و ١٥٢ - ١٦١ والمائدة ١ - ٥ و ١٢ - ١٩ و ٧٢ - ٨٠ و ٩٠ - ٩٧ و ١٠١ - ١٠٤ والانفال ٣١ والنحل ٦٤ ولقمان ٢١ والقصص ٥١ - ٥٣ والشعراء ١٩٢ - ١٩٧ و ٢١٠ - ٢١٢ و ٢٢١ - ٢٢٣ ويوسف ١١١ وصلى ٣ .

المعنى وردت في مواضع عديدة وبأساليب متنوعة إذا تعمق القارئ فيها ظهرت له هذه الصلة ظهوراً جلياً . وتزيد في إيضاح ذلك بالأمثلة التالية :

١ - في القرآن توكيدات بعدم جدوى الشفاعة والشفعاء عند الله إلا بإذنه ورضائه ، وتنديدات باعتذارات المشركين عن عبادتهم لشركائهم وانجاءهم إليهم في الدعاء والتضرع بأنهم إنما يتخذونهم شفعاء ووسائل قربي إلى الله ، وقد كثرت في هذا الباب مما يدل على رسوخ هذا المفهوم في أذهان المشركين في بيئة النبي وعصره قبل البعثة .

٢ - إن آيات القرآن الواردة في طقوس الحج تفيد صراحة حيناً وضماً حيناً آخر أنها كلها أو جلها قد كانت ممارسة قبل البعثة النبوية فأقرت في الإسلام بعد تنقيتها من شوائب الشرك والوثنية ، مع أن فيها ما لا يمكن فهم حكمة إقراره الآن مثل الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار واستلام الحجر الأسود وتقبيل الخ فهذه الآيات متصلة بتقاليد الحج العربية قبل الإسلام ورسوخها وأهدافها ، وفيها مظهر ما لوحده العرب على اختلاف منازلهم ونحلهم حيث كانوا جميعهم يشتركون في الحج ومواسمه وتقاليده وحرمانه وأشهره الحرم ، وحكمة إقرارها في الإسلام منطوية في ذلك الرسوخ من جهة وما كان له من فائدة وأثر في الوحدة المذكورة التي كان القرآن يدعو إليها من جهة ثانية ولعل قصد تأنييس العرب بالدعوة الإسلامية بما ينطوي في تلك الحكمة أيضاً .

٣ - ليس في القرآن المكسي حملات عنيفة على اليهود الذين كان يسكن منهم في الحجاز جاليات كبيرة ، واكتفى فيه بذكر قصص موسى وفرعون وبني إسرائيل الأولى مستهدفاً بذلك ما استهدف بذكر قصص

الانبياء الاخرى ، وقد جاءت تلك القصص بأسباب أوفى مما جاءت هذه مما يمكن أن يكون الحكمة فيه وجود تلك الجاليات الكبيرة وصلتها للوثقى بالبيئة الحجازية العربية وسكانها . ولقد احتوى القرآن المبكى آيات كثيرة فيها استشهاد بأهل الكتاب على صحة رسالة النبي بأسلوب يفيد أنهم شهدوا ويشهدون بذلك (١) ، وتحمل في ثناياها تنويها بهم ، وتقرير الانساق بينهم وبين الدعوة القرآنية والمستجيبين إليها ، هذا في حين أن القرآن المدني احتوى حملات شديدة لاذعة على اليهود ووصف سوء أخلاقهم وفسادهم ومكائدهم ، ووصل حاضر هذه الاخلاق بأخلاق الآباء . فهذا متصل بدون وببمحالة قائمة في البيئة النبوية وظروفها . فانه لم يكن لليهود في مكة كتلة ذات مركز قوي واسع في حين كان لهم ذلك في المدينة ، ولم يقع بينهم وبين النبي في مكة بسبب ذلك احتكاك وتثاءب في حين أن ذلك قد وقع في المدينة بسبب ما كان لهم في المدينة من كتلة قوية وقدم واسعة ومصالح حيوية ومركز ممتاز بما احتوت الايات القرآنية وصفا لذلك .

ومن الممكن إبراء أمثلة كثيرة من هذا النوع الذي يبين صلة ما كانت عليه بيئة النبي بالبيئة النبوية والسيرة النبوية والتزليل القرآني . وقد اكتفينا بهذه الامثلة ونهينا على أمثالها الكثيرة في سياق التفسير . فلاحظوا هذه الصلة مهمة جداً كسابقتها في فهم مواضيع القرآن وتقريراته وروحه ومداه ، وفي جعل الناظر فيه يندمج في الوقائع

(١) لاحظ ١٠ والاصنام ١١٤ والرمم ٣٦ والشراء ١٩٧ والقصص

٥١ - ٥٣ والمنكوت ٤٧ .

ومقتضياتها ، ولا يبتعد عن حقيقة الواقع والباحث ، أو يتورط في الجدل والتزبد وتحميل العبارات القرآنية ما لا تتحملة وما لا طائل من ورائه .

- ٣ -

لغة القرآنية :

ثالثا : إن لغة القرآن في مفرداتها وتراكيبها وإصطلاحاتها وأساليبها وأمثالها وتشبيهاها واستعاراتها ومجازاتها هي لغة البيئة النبوية ومنها مألوفة ومفهومة الفة وفيها تأمين من أهلها .

وليس الذي نعنيه بهذا تقرير قضية قد تكون بديهية في بعض الأذهان ولكن الذي نعنيه وجوب ملاحظة ذلك حين النظر في القرآن لأنه يساعد على فهم اصطلاحات لغة القرآن وأساليبها وأمثالها وتعبيراتها واستعاراتها ومجازاتها من جهة ، وكون القرآن من جهة ثانية قد وجه أول ما وجه إلى اناس ألفوا لغته كل الالفة وفهموها كل الفهم ، ووصلوا في عقولهم ومعارفهم وبياناتهم ودقة تعابيرهم وبلاغة أساليبهم وفصاحة أسنتهم ، والاستمتاع بمتنوع أشكال الحياة المادية والمعاشية ، والنفوذ الى المفاهيم الاخلاقية والاجتماعية والدينية والعلمية والادبية الى درجة غير يسيرة من الرقي متناسبة مع ما عبرت عنه وأشارت اليه وتضمنته لغة القرآن ، بما هو نتيجة لازمة لكون القرآن انما نزل بلسانهم ، وكون لغة القوم هي اصدق مظهر لحياتهم المادية والعقلية والاجتماعية والدينية (١) . ثم نعني بالاضافة الى هذا ان يتفهم من ذهن الناظر في القرآن المعنى الذي حلا لبعضهم ان ينوه به وهو انطواء بعض حروف القرآن وكلماته بل وبعض

(١) في عمر النبي ويسته قبل البحث بحوث مستفيضه في كل ذلك مقتبسة من الآيات القرآنية .

جمله و تعابير و صور و صيغ و نظم على اسرار و الفاظ و معاني و كذلك المعنى الذي قرره بعضهم من علو طبقة اللغة القرانية عن افهام سامعيها اطلاقا دون استثناء ، و المعنى الذي قرره بعضهم من ان لغة القرآن قد احتوت او قصد ان تحتوي جميع لهجات و لغات العرب القديمة والحديثة مع لغات الامم الاخرى .

ففي الاتقان للسيوطي فصول عديدة تشير الى هذه المعاني و نذكر خاصة منها الفصل السابع و الثلاثين كما ان كثيراً من الكتب المرووعة عن القرآن و تفسيره قد احتوى تقرير هذه المعاني ايضاً و في الاقوال الواردة في تلك الفصول و هذه الكتب المروية او الصادرة عن علماء قديمين كثير من التكلف و التزيد و التجوز و التخمين و التورط ان لم نقل التخريف و لقد جاء فيما جاء في فصول الاتقان نقلاً عن كتاب الارشاد للاسدي في صدد تعدد اللغات التي احتواها القرآن أن في القرآن خمسين لغة و هي لغات قريش و هذيل و كنانة و غنم و الحزرج و اشعر و غنم و قيس و عيلان و جرهم و اليمن و اژه و شؤره و كنده و تميم و حمير و مدين و لحم و سعد العنيزة و حضرموت و مدرس و العنقة و أنمار و غسان و مذحج و خزاعة و غطفان و سبأ و عمان و بني حنيفة و تغلب و طي و عامر بن صعصعة و الاوس و مزينة و ثقيف و جذام و بلي و عذرة و هوازن و النمر و اليمامة و من غير العربية الفارسية و الرومية و النبطية و الحبشية و البربرية و السريانية و العبرانية و القبطية . . و لو عرف القائل قبائل عربية و أما غير عربية اخرى غير الذي ذكره لاوردتها ايضاً . . و زاد غيره تقريراً فقال ان فيه من لغة بلي لغات الطائف و ثقيف و همدان و نصر بن معاوية و عك و ليس هذا كل ما قبل و انما هو اوسع ما قبل فان في فصول الاتقان اقوالاً

كثيرة في هذا الباب . وكلام القائلين ليس هو من قبيل تقرير ما قد يكون مقولاً وصحيحاً من أن لغة القرآن التي هي لغة قريش متطورة مع الزمن عن لغات العرب قبل نزوله ، ومن أن في القرآن الفاظاً عربية عن اللغات الأجنبية أعلاماً وغير أعلام دخلت على اللغة العربية القرشية وجرت مجراها وصارت جزءاً منها قبل نزوله كذلك ، بل بقصد تقرير أن ذلك التعدد واقعي وأنه إما كان أولاً بسبب أن القرآن حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شيء فلا بد من أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن لتتم إحاطته بكل شيء فاختر له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالاً وثانياً بسبب أنه امتاز عن غيره من سائر الكتب المنزلة فنزلت هذه بلغة القوم الذين أنزلت عليهم ولم تدخل فيه لغة من لغات غيرهم في حين أن القرآن احتوى جميع لغات العرب والعجم وثالثاً بسبب أن النبي محمداً عليه السلام مرسل إلى كل أمة وقوم وقد قال الله « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » فلزم أن يكون في الكتاب المنزل عليه شيء من لسان كل قوم وإن كان أصله بلغة قومه هو . وجميع هذه المعاني لا تصح في حال . فمن حاجة علو طبقة القراء عن اسماع الناس وأفهامهم أو انطواء حروفه وكلماته على أسرار والغاز ومعنيات فإن في القرآن نصوصاً حاسمة تنفي ذلك حيث تنص على أنه أنزل بلسان مبين أي واضح مفهوم وإن آياته قد فصلت تفصيلاً ، وأنه أنزل ليتدبره السامعون ويعقلوه ويفهموه ويجلون به ما يختلفون فيه كما أنه كان موجهاً إلى كل طبقة من أهل بيته النبي عليه السلام بمحكي كلامهم وأسئلتهم ويرد عليها مجيباً أو مننداً أو مكذباً أو ملزماً أو واعظاً أو مشرعاً وفي هذا ما يتنافى كذلك مع تلك المعاني . وهذا أفضل

عن انها غير متسقة مع مهمة النبي المكلف بمخاطبة مختلف الطبقات والمأمور بتبليغ ما انزل اليه من ربه لهم والذي كان يتلوه على الناس كافة من مختلف اللغات في جميع ظروف سيرته الشريفة في عهدها المكي والمدني وانها غير متسقة مع كون القرآن هدى للناس كافة يؤمرون بانبايع ما انزل فيه وتدير اياته والتروي في احكامه ومحتوياته ، ويقال لهم فيه انه مرجعهم في مختلف شؤونهم ، ومنه يستمدون تشريعهم واخلاقهم ونذرم وبشائرهم وحلول مشكلاتهم الخ . ومن ناحية احتواء القرآن مختلف لهجات ولغات الامة عربيا وعجميا وقديما وحديثا على المقصد الذي شرحه القائلون فانه لا يتسق في حال مع نصوص القرآن المطلقة والمتعددة بانه انزل بلسان عربي وجعل لسانا عربيا وانه انزل بلسان النبي العربي القرشي ولا مع نص الحديث البخاري في صدده نسخ المصاحف في عهد عثمان السدي احتوى تقريراً صريحاً بأنه إذا انزل بلغة قريش .

ومن هذا الباب ما قيل حتى أصبح مستقيضا وحببة خطائية حاضرة من ان الله كما ارسل موسى في ظرف ارتقى فيه السحر وشاع بمعجزة تشبه السحر وليست سحراً فقلب الساحرين ، وأرسل عيسى في ظرف ارتقى فيه الطب وشاع بمعجزة تشبه الطب فأنى بما يعجز الطب والاطباء فانه أرسل محمداً بالقرآن فائثا على بلاغة البلغاء في ظرف كانت سوق الفصاحة فيه رائجة ، وبلاغة الكلام فيه قد وصلت إلى أعلى الذرى نظماً ونثراً فقصر عنه البلغاء والفصحاء وكان فيه معجزته . فهذا القول مع ما في ارتقاء السحر وشيوعه والطب الى اعلى الذرى في عهدي موسى وعيسى من محل نظر وتوقف - يعني ان القرآن قد قصد به ان يكون معجزا في فصاحته وبلاغته المعنوية والنظمية والفنية كأنما هو معلقة من

معلقات الشعر الخالدة ، أو قد قصد به أن يكون أعلى من مستوي افهام
لناس وبلاغة بلغائهم . وهذا لا يصح في اعتقادنا على ما ذكرناه آنفا
والقرآن يقرر انه «إن هو الا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا ويحيى
القول على الكافرين» (١) وهذا بلاغ للناس ولينذروا به» (٢) وإن هذا
القرآن يهدي للتي هي اقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن
لهم أجراً كبيراً . وان الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذاباً اليماً (٣)
وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين (٤) وانما يسرناه بلسانك
لتبشر به المتقين وتذره قوماً لدا (٥) وما أنزلنا عليك الكتاب الا
لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (٦) وأنزلنا
اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلمهم يتفكرون (٧) وانا أنزلنا
الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها (٨) الخ
يضاف إلى هذا ان القرآن في لغته وسبكه وأساليبه واصطلاحاته
ومفهوماته وإشاراته ليس مغلقاً أو غامضاً أو معقداً أو صعباً على متوسط
الافهام والادهان ، وأنه كان يفهمه مختلف أوساط العرب حضرم وبدوم
بل والمستعربون المقيمون في الحجاز أو الوافدون على النبي عليه السلام
من البلاد المجاورة من عرب ومستعربين ايضاً . ففي القرآن آيات كثيرة
تشير إلى أن النبي كان يتلو آيات القرآن على مختلف طبقات الناس كما
جاء في آيات الكهف ٢٧ والنمل ٩٢ والعنكبوت ٤٥ والاحقاف ٢٨-٣٠
والجن ١ مما هو متسق مع مهمته ، وان منهم من كان يقول «إن هذا

(١) يس ٦٩ - ٧٠

(٢) ابراهيم ٥٢ (٣) الاسراء ٩ - ١٠ (٤) الاسراء ٨٢ (٥) مريم ٩٧

(٦) النمل ٦٤ (٧) النمل ٤٤ (٨) الزمر ٤٢

إلا قول البشر وإن هذا الأساطير الأولى «وقد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا» ولقد تكرر في القرآن المكي والمدني الإشارة إلى أهل الكتاب وأهل العلم وفي بعض الآيات ما يفهم أن من هؤلاء من جاء خصيصاً ليجتمع بالنبي ويستمع للقرآن وقد كان منهم من تفيض عيونهم من الدمع ويخرون خشعاً مسجداً من تأثير ما يسمعون منه ويعلنون إيمانهم وتصديقهم به (١) بما يلهم أنهم كانوا يسمعون كلاماً يفهمونه مع أنهم جاؤوا من نجران اليمن أو بلاد الشام أو الحبشة حسب ما أوضحته الروايات ، كما أن اليهود الإسرائيليين والنصارى غير المجازيين والذين يمتون أو يمت أكثرهم إلى أصول غير عربية والذين كانوا متوطنين في مكة والمدينة كانوا ممن وجهت إليهم الدعوة وكان القرآن يتلى عليهم ويفهمونه وقد اندمجوا في ظروف السيرة النبوية إيجابياً وسلبياً . وإذا كان يبدو اليوم فيه شيء من ذلك أو إذا كان بدافيه شيء من ذلك منذ قرون عديدة سابقة وإذا كان يبدو فيه اليوم وقبل اليوم كذلك مفردات غريبة على الأسماع والمألوف فإن هذا كله إنما نجم عن بعد الناس عن جو نزول القرآن وزمنه وجو لغته وجو البيئة التي نزل فيها من جهة ، وعن ما طرأ على اللسان العربي من الفساد من جهة ، وعن ما كان من اندماج كثير من غير العرب في العروبة ولغتها وتعلمها تعلماً لا يمكن أن يقوم مقام السابقة الأصلية في بنيتها الأصليين من جهة

ولقد احتوى نصوصاً كثيرة تقرر المرة بعد المرة ما هو عليه من وضوح وإبانة وإحكام وتفصيل ويسر فهم وسهولة إدراك في معرض

(١) أفرايات المائدة ٨١-٨٤ والاسراء ١٠٧-١٠٩ والقصص ٥٢-٥٥ مثلاً

التنديد بالمكابرين والجاحدين والجاهلين (١) وهذا إما هو ملازم مفهم لان
اللفظة التي يستعملونها واضحة بينة بما ألفوه كل الالفة وليس فيها غموض ولا
تعقيد وإشكال ، ولا علو عن الافهام لا من ناحية النظم والسبك واللفظة
ولا من ناحية المعنى والمفهوم والدلالة .

ونريد أن نستدرك شيئا . فالتنا لسانا تعني بما تقرره أننا نشك في
إعجاز القرآن وعلو طبقة اللغة والنظمية كما ان كلامنا لا يقتضي ذلك
فإعجاز القرآن لا يحتمل شكاً ، فهو مقرر في القرآن وثابت فعلا بعبارة
أي كان من الايمان بمثل أوبشي . من مثله رغم تكرار التعدي ، والايمان
بذلك واجب ، وعلو طبقة بارز بوضوح في غنى عن التذليل ، ولم يبق
العلماء الثقات في تقرير ذلك محل زيادة لمزيد غير ان الذي نغنيه أن
إعجاز القرآن وعلو طبقة وروعة أسلوبه لا تقتضي أن يكون أعلى من
مستوى أفهام العرب الذين خوطبوا به ووجه اليهم ، ولا أن يكون أبعد
من متناول إدراكهم ولا أن تكون مفرداته ومضامينه وتراكيبه غير
مألوفة لديهم ، ولا أن يكون قد قصد به أن يكون معجزاً في بلاغته
اللغوية والنظمية والفنية ، والفرق كبير بين المعنيين كما هو واضح فيما
يتبادر لنا . ولعلنا بما يصح أن يذكر في هذا المقام على سبيل التيسير
والتقريب - وث ولكتابه ونبيه المثل الاعلى - كاتب ذو أسلوب راق
شائق قوي النفوذ يجعله في الطبقة الاولى أو ذروتها في حين يكون
سهل التناول غير غامض ولا معقد ، يستطيع ان يسفه مختلف القراء
واواسطهم ، بل وان هذا الاسلوب ليكون دائماً أحسن الاساليب

(١) النساء ٨٢ والانعام ١٥٥-١٥٧ وهود ١-٢ ويونس ١-٢ والحجر ٩
والنور ١ والشمراء ١-٢ والفرقان ١ والنمل ١-٢ والصكوت ١-٢-٣

وافصحها وهو الذي يسميه الليانيون بالسهل الممتنع . هذا عدا عن أن إعجاز القرآن فيما نعتقد ليس من ناحية نظمه وأسلوبه اللغويين فصحب بل هو أيضا من ناحية وروحانيته النافذة الباهرة التي تنفذ الى اعماق عقل الانسان وقلبه وروحه ، ونعتقد ان لهذا الاعتبار الاول في اعجازه ، وان التحدي وتقرير عدم إمكان الاتيان بمثله أو بشيء من مثله إنما هو « للقرآن » - وهذا هو التعبير الذي استعمل في القرآن - الذي كما هو لغة وأسلوب هو كذلك معان ودعوة قوية نافذة باهرة في مداها ومضمونها وشموها وسعة أفقها وروحانيتها التي وصف أثرها القرآن نفسه بهذا الوصف :

١- لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعا متصدعا من خشية

الله ... الحشر ٢١

٢- الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وفقرهم الى ذكر الله ... الزمر ٢٣

٣- وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين .. الامراء ٨٢

ثم التي وصف أثرها للقرآن في اهل العلم والنية الحسنة من الكتابيين بهذا الوصف القوي النافذ :

١- واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آتنا فاكثنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطغع ان يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين

المائدة ٨٣ - ٨٤

٢- والذين اتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ... الرعد ٣٦

٣- قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا

يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون مبيحان ربنا ان كان وعد ربنا
لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا . .

الامراء ١٠٧-١٠٨

٤ - واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا . . . القصص ٥٣
ولعل من الدلائل على ان لغة القرآن ولغة بيئة النبي شيء واحد -
ومعني المفردات والمصطلحات والتراكيب - حكاية القرآن لكلام الكفار
وغير الكفار وردّه عليهم ، والاحاديث الكثيرة جداً الواردة عن النبي
واصحابه التي لا فرق بين لغتها ولغة القرآن ؛ بل ولقد رويت احاديث
تذكر ان بعض الصحابة والكفار قالوا كلاما بعينه فنزل القرآن بنفس
النظم الذي صدر عنهم منها :

١ - حديث روي عن عمر بن الخطاب انه قال، انساء النبي حينما تأمرن
على النبي بسائق الغيرة : عسى ربه ان يطلقكن ان يبدلهن ازواجا خيرا منكن
٢ - حديث بخاري مروي عن زيد بن ارقم انه سمع عبد الله بن ابي
يقول « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، ويقول
« ان رجعتنا الى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الاذل . . . »

وايات سورة المذافقون ٧-٨ وسورة التحريم ٥ فقد احتوت هذه
النصوص كما هو معلوم .

ونحن نرى هذا بديهيا ومن تحصيل الحاصل ، ولكننا اثبتناه لان فكرة
أن هناك فرقا عظيما بين لغة القرآن ولغة اهل بيعة النبي وان تلك اللغة
أعلى من مستوى افهام هؤلاء قوية الرسوخ .

وبما يقوم شاهدا قرآنيا على هذا الذي نقرره في هذه النقطة خاصة ما
جاء في بعض الآيات من حكاية لأقوال الكفار في القرآن . مثل « ان هذا

إلا قول البشر (١) ، و قد قالوا أساطير الاولين اكتبها فهي غلى عليه
بكورة وأصبلا (٢) .. و قد قالوا قد سمعنا لونها مثل هذا أن هذا إلا
أساطير الاولين (٣) .. فهذه النصوص تتضمن قرائن حاسمة على ان
سامعي القرآن وخاصة الطبقة المتزعمة والنيبة التي كانت تتولى كبر
المعارضة وقيادتها كانوا يسمعون كلاما يفهمونه كل الفهم بجميع دقائقه ،
لا يعلو عن افهامهم ولا يبعد عن مألوفاتهم ويرونه شبيها باقوال الناس
بل ويضعونه بأنه كذلك ..

ونريد كذلك ان ننبه على نقطتين اخريين :

فاولا ان ما قلناه من فهم القاطنين العرب على اختلاف طبقاتهم
ومنازلهم للقرآن لا يقتضي ان يكون متناقضا مع ما هو مقرر بصورة
حاسمة من ان لغة القرآن هي لغة قريش ؛ فالقرآن وجه أول ما وجه اليهم
والى القبائل والمدن المجاورة كما جاء في آيتين متائلتين في سورتي الانعام
والشورى وهما :

١ - وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر ام
الانعام ٩٢
القرى ومن حولها ..

٢ - وكذلك أوحينا اليك قرانا عربيا لتنذر ام القرى ومن حولها
الشورى ٧

على ان لغة قريش من جهة اخرى كانت إجمالا في عهد البعثة النبوية
لغة العرب جميعهم على اختلاف منازلهم أو على الأقل مفهومة من العرب
جميعهم بسبب ما كان من اشتداد التعاك بين قريش وسائر العرب في
مواسم الحج التي كان يشترك فيها العرب جميعهم والتي كانت تقام قبل
البعثة النبوية بمدة طويلة وبسبب وحدة الاصل من حيث المبدأ . واصل
في آية الشورى الآتية الذكر خاصة دلالة او قرينة على ذلك حيث وصفت

القرآن بالعروبة مع إشارتها الى مهمة الرسول في إنذاره مكة ومن حولها وقد وصف القرآن بهذا الوصف في آيات مكية عديدة أخرى كما ترى فيما يلي

١ - إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . . يوسف ٢

٢ - وكذلك أنزلناه حكما عربيا الرعد ٣٧

٣ - نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان

عربي مبين . . الشعراء ١٩٢ - ١٩٥

٤ - واقد صربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون

قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون . . الزمر ٢٧ - ٢٨

٥ - كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون فصلت ٣

٦ - إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . . الزخرف ٣

بما يدعم النقطة التي قررناها . وكذلك بما يدعمها ان القرآن وصفه
غير العربية بالاعجية كما ترى فيما يلي :

١ - ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه رجل لسان الذي يلحدون اليه

أعجمي وهذا لسان عربي مبين . النحل ١٠٣

٢ - ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي

فصلت ٤٤

بحيث يستفاد من ذلك أن العربية كانت حينئذ تطلق تشمل لغة العرب

جميعهم ، وأنه لم يكن للعرب جميعهم لغة غير اللغة التي نزل بها القرآن

وان لغة قريش التي هي لسان النبي الذي ذكر القرآن ان الله قد يسر

القرآن به أي لغته كانت هي لغة العرب جميعهم .

وثانيا - ان ما قلناه من ان كل كلمة في القرآن كانت مفهومة من

العرب على حقيقة مداها ومعناها لا يقتضي أن يكون مناقضا لما هو

طبيعي فرضا وواقعا وبدعية من وجود كلمات فيه لا يفهم مداها ومعناها إلا الفئات الحبيزة النيرة منهم بل ومن وجود كلمات قد لا يكون سمعها أو قد يحلها بعض افراد من هذه الفئات نفسها ، ومن وجود أفراد قليلين أو كثيرين أو قبائل يرمتها تجهل المعنى الحرفي لقليل أو كثير من مفردات القرآن بل ومن بعض تعابيره كذلك . وهذه الظاهرة مشاهدة ملموسة في كل ظرف وقطر ومن كل فئة بما فيها الفئات المتعلمة ومع ذلك فمن المشاهد الملموس ان الناس على اختلاف فئاتهم وثقافتهم وخاصة أواسطهم لا يعيهم ان يفهموا ما يقرأونه من رسائل وكتب وصحف ويسمعونه من خطب وإذاعات . وطبيعي أن العرب في عصر النبي وعهد بعثته لم يكونوا ليخرجوا عن نطاق هذه الظاهرة : وإذا روي عن بعض الصحابة جهلهم لمعنى كلمة من الكلمات القرآنية فلا يكون في ذلك غرابة ما يقطع النظر عن صحة الرواية متنا وسندا ومن هذه البيانات تتجلى فائدة الملاحظة التي هي موضوع البحث الأصلي مها بدت للبعض بديهية ، حيث تجعل الناظر في القرآن يتدمج في جو لغته وأساليبه واصطلاحاته التي هي لغة عهد نزوله وأساليبه واصطلاحاته ولغة ظروف هذا العهد فينبغي له كثير من الأمور والمعاني على وجهها وحقيقتها ، ولا ينجر إلى معان ومدى ومفومات وتربدات وتكلفات وتخمينات ومعميات لا تتحملها نصوص القرآن وأساليبه ودلالاته وظروف نزوله ومهمة من أنزل عليه .

- ٤ -

القرآن أسس ووسائل

رابعا - ان محتريات القرآن نوعان متميزان هما الاسس

والوسائل ، وان الجوهرى فيه هو الاسس لانها هي التي انطوت
 فيها اهداف التنزيل القرآنى والرسالة النبوية من مبادئ وقواعد وشرائع
 واحكام وتلقينات مثل وحدة الله وتنزهه عن كل سائبة وشريك وولد
 وانصافه بجميع صفات الكمال وه طلق التصرف في الكون واستحقاقه
 وحده العبادة والخضوع ونبذ كل ما سواه والقيام بالواجبات التعبدية
 له ، ومثل المبادئ والامر والنواهي والتشريعات والاحكام والتلقينات
 الكفيلة بصلاح الانسانية وطمانينتها والتعاون الاخوي التام بينها أفراداً
 وجاعات وسلبية وإيجابية وأخلاقية واجتماعية وسياسية وحقوقية وسلوكية
 واقتصادية والنهي عن كل ما يناقض ذلك

اما عدا ذلك بما احتواه القرآن من مواضع مثل القصص والامثال
 والوعد والوعيد والترهيب والتوعيب والتنبيد والجدل والجداج والاختد
 والرد والتذكير والبرهنة والالزام ولفت النظر الى نوااميس الكون
 ومشاهد عظمة الله وقدرته ومخلوقاته الخفية والعلنية فهو وسائل لدعائية
 وتأييدية الى تلك الاسس والاهداف وبسبيلها .

ومع ان جل هذه الوسائل بمالصلة ببيئة النبي وعصره من جهة والسيرة
 النبوية من جهة وبفهمها ، وان منها ما يتصل بالاسس والمبادئ من بعض
 النواحي كنتائج لها مثل الحياة الاخروية ومشاهدتها وأهوالها ونعيمها
 وعذابها والملائكة والجن ومعجزات الانبياء مما يدخل في الغيبيات
 الايمانية من جهة ، ومع انها قد شغلت حيزاً كبيراً أو بالاحرى الحيز
 الاكبر من القرآن فان من فائدة هذه الملاحظة ان تجعل الناظر
 في القرآن يقف عند الاهداف والمبادئ ويعتني العناية الكبرى بتجليتها
 وايرازها ، ولا يحمل الوسائل والتدعيات ما لا ضرورة لتحميلها لياه ولا

يتروك لها المجال لتغطي على تلك ، وتكون له شغلا شاعلا مستقلا بحيث يستغرق فيها مثل استغراقه في الاسس فضلا عن استغراقه فيها اكثر من استغراقه في هذه بما هو واقع ومشاهد كالانشغال مثلا في ماهية القصص القرآنية والنواميس الكونية ، او ماهية الملائكة والجن او ماهية مشاهد الحياة الاخرية ، وبحيث يغفل عن هدها الرامي الى تدعيم الاسس والاهداف بما يؤدي به الى اعمال التدبر بالجوهرى والتورط فيما لا طائل من ورائه والوقوع في الحيرة والبلبة دون ما ضرورة .

وننبه على ان هذا التقسيم بالمعنى الذي نقرره مستلهم بوجه عام من روح القرآن واسلوبه وآياته ، بما يستطيع أن يلمسه كل من انعم النظر فيها ، حيث يجد انه لم ترد قصة أو مثل أو موعظة أو حجة تنديد وانذار أو اشارة تنويه بملكوته الله وعظمته والدعوة الى التفكير في آلائه او ذكره للملائكة والجن ؛ او تذكير بما كان من دعوة سابقة ومعجزات نبوية خارقة ، او تنبيه الى الحياة الاخرية ومشاهدها ونتائجها المبهجة او المزعجة الا بعد تقرير تلك الاسس والاهداف او شيء منها والدعوة اليها ، او بيان الحق والخير والصلاح والسعادة فيها ، أو حكاية مواقف الكفار منها ؛ أو تثبيت النبي والمسلمين فيها وتصيبرهم عليها ، وهذا من مميزات الاسلوب القرآني وخصوصياته بالنسبة لسائر الكتب المنزلة ، وحيث يجد ان هذه الاسس والاهداف تظل محكمة ثابتة مع ما هو طبيعى من اختلاف مواقف النبي وتنوعها بالنسبة لفئات الناس والمقول والظروف في حين ان ما هو من باب الومال والتدعيمات يتنوع ويختلف اسلوبا وهدى وتعبيرا مع اختلاف تلك المواقف وتنوعها وهذا خاصة من شأنه ان يكون مقياسا وضابطا لتفريق بين القسمين القرآنيين ،

جل ومن شأنه ان يحل ما يتوهم الناظر في القرآن من إشكالات قرآنية في الاسلوب والمدي والتعبير ايضا .

وهو مستلهم بوجه خاص من بعض نصوص صريحة في القرآن - مع ملاحظة ما قد يكون لها من خصوصيات زمنية يأتي في مقدمتها وقد يكون اقواما مدي واوضحها دلالة آية آل عمران السابعة هذه : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب وآخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ... »

وهذه الآية نزلت في سياق الرد على وفد نصراني تناظر مع النبي عليه السلام في أمر المسيح فسأله الوفد ألا يقول القرآن ان المسيح كلمة الله وروح منه قال بلى قال فهذا حسبتا . فنزلت الآية تندد بالوفد الذي ترك الاصل القرآني المحكم وهو ان الله واحد لا يصح أن يكون له ولد ولا شريك وجنح الى التأويل الفاسد لبعض النصوص التي أنزلت بقصد التقريب والتشيل .

وعلى خصوصية الآية من حيث المناسبة فانها جاءت بأسلوب تقريبي عام لتكون شاملة الحكم والمدي ، بحيث يصح ان يستلهم منها بقوة ان القرآن قسمان متميزان احدهما محكم اساسي ثابت لا يحتمل تأويلا ولا تنوعا ولا وجوها افتراضية وتقريبية وثانيهما متشابهة بسبيل التقريب والتشيل والالزام والبرهنة ويحتمل التأويل والتنوع والوجوه الافتراضية ولنا منفردين في هذا التخرج فقد سبق اليه كثير من اعلام العلماء

والمفسرين على تنوع اقوالهم واختلاف مدى السعة والضيق فيها (١) وقد روي عن ابن عباس (٢) في صدر الآية ان المحكم هو ناسخ القرآن وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به وأن التشابه هو منسوخ القرآن ومؤخره وامثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به . وقد نوه للأول بآيات الانعام ١٥١ - ١٥٣ والاسراء ٢٣ - ٣٨ التي هي مجموعات رائعة من المبادئ والاهداف التوحيدية والاخلاقية والاجتماعية والسلوكية .

وفي سورة محمد آية يصح ان تكون دليلاً قرآنياً وهي هذه :
« ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا انزلت سورة معكة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون نظر المغشي عليه من الموت فاوّل لهم . ٢٠ »

حيث يلهم نصها ان معنى « معكة » هو الفرض الاساسي الحاسم من فروض القرآن وتكاليفه .

وفي القرآن آيات كثيرة جداً يبرز فيها تأكيد هذا المعنى كآيات البقرة ١٧ - ٢٦ والاعراف ٥٧ - ٥٨ والكهف ٥٤ - ٥٩ وطه ١١٣ والعنكبوت ٤٠ - ٤٩ والروم ٢٠ - ٢٨ والزمر ٩ - ٢٩ والحاقة ٤ - ٥٢ والماعز ١٦ - ٤٤ والمدثر ٣٠ - ٤٧ الخ .

وهو متسق مع حكمة بعثة الرسل وهي هداية البشر واخراجهم من الظلمات إلى النور والدعوة التي دعوا اليها وهي الدعوة إلى الله وحده وإلى مكارم الاخلاق والمبادئ التي يقوم عليها صلاح الانسانية ومساعدة الناس في الدارين . اما ما ظهر على ايدي الرسل من معجزات وما صدر عنهم

الوحي الرباني من نذر وبشار ووعد ووعيد وتذكير وتمثيل فإنه بسبيل تلك الحكمة وإعلامها وتجليتها والاقناع بها والتوجيه إليها كما يبدو واضحاً وبديها عند ذوي الالباب والروية .

وما يزيد ما نقرره قوة ووضوحاً ما يلاحظ من تطور التنزيل القرآني وتطور اطلاق تعبير « القرآن » على اجزاء القرآن وسوره وفصوله . فالقرآن يطلق كما هو معروف على مجموعة السور التي بين دفتي المصحف ، غير ان هذا التعبير قد بدى باستعماله منذ مبادئ نزول القرآن ، وبدي باطلاقه على ما كان ينزل من مجموعاته قبل تمامه ، بل قبل ان ينزل منه الا القليل ثم ظل يطلق على ما كان ينزل منه وما يجتمع من مجموعاته الى ان تم تمامه بوفاة النبي عليه السلام كما يفهم من آيات المزمّل ٤ و ق ١ والبروج ٢١ و ص ٢ والجن ١ والفرقان ٣٢ وطه ١١٤ والواقعة ٧٧ والنمل ١ والاسراء ٩ و ٨٢ يونس والحجر ١ الى كثير غيرها من السور المكية (١) ثم ظل يطلق في السور المدنية على ما نزل وكان ينزل كما يفهم من آيات البقرة ٢ وآل عمران ٣ - ٤ والنساء ٨٢ والحشر ٢١ ومحمد ٢٤ وغيرها .. والمعقول والواقع ان الآيات والسور القرآنية التي نزلت قبل غيرها قد احتوت في الاكثر اسس الدعوة ومبادئها وأهدافها واقتصرت أو كادت تقتصر على التبشير بها وانذار الذين لا يستجيبون إليها ولم تتوسع في الوسائل كما ترى في سور الفاتحة والأعلى والشمس والبلل والعصر والاحلاص والتكاثر والتين والقارعة ، مما يؤيد أن الأهداف والأسس هي المقصودة الجوهرية في القرآن أولاً . وقد خلت هذه السور وأمثالها أو كادت تخلو من العنف بما هو طبيعي لأن الدعوة وأهدافها ومبادئها

(١) هذه السور من السور المكية المبكرة بالنزول قليلاً أو كثيراً .

هي التي يجب ان تعرض أولا ونشر دون ما عنف ولا جدال ، ثم اخذت
 الفصول التالية لها تحتوي إلى جانب تقرير المبادئ والاهداف والتوسع
 فيها حملات عنيفة على الجاحدين والكافرين والصادق وحكاية مواقفهم
 وإنكارهم لصحة الوحي القرآني كما اخذت تتوسع في الوسائل التدعيمية
 من قصص وأمثال ووصف نواميس ومشاهد وذكر غيبيات إيمانية الخ
 بما هو طبيعي كذلك ، لأن الجحود والجدل والانكار والشك والاستغراب
 والاذى والصد والتعدي والتعريض إنما وقع بعد عرض الدعوة وتقرير
 الاهداف ، ولان مواقف الجاحدين والمفكرين والشاكرين والمستغربين
 والمترددون والصادقين والمكابرين والمتعدين استتبع التوسع في الوسائل
 التدعيمية والتأييدية . ولقد احتوت الفصول التالية المذكورة جدلا
 وججاجا بين النبي والكفار حول القرآن ، وصحة الوحي الرباني مثل
 آيات القلم ٩ - ١٥ والتكوير ١٩ - ٢٩ والفرقان ١ - ٣٢ والشعراء
 ١٩٢ - ٢٢٦ والاسراء ٤٥ - ٤٧ و ١٠٥ - ١١١ ويونس ١٥ - ١٧ و
 ٣٧ - ٤٠ وهود ١٣ - ١٤ والسجدة ١ - ٣ وسبا ٣١ وفصلت ٤٠ - ٤٥
 الخ ، والمعقول أن يكون الكفار قد جادلوا في اول الامر في ما احتوته
 الاجزاء الاولى من القرآن وكادت تقتصر عليه من الاسس والمبادئ
 وكفروا بنسبة النبي وصحة الوحي الرباني فأخذت هذه الآيات وأمثالها
 تحكي أقوالهم وتود عليها ردوداً مفحة ، وتضرب لهم الامثال وتذكرهم
 بمن سبقهم من الامم والانبياء وتوعدهم وتنذرهم بالآخرة وهولها وعذابها
 وتعددها وتندد بما هم عليه من ضلال وسخف ، وتبشر المستجيبين بسعادة
 الدنيا ونعيم الآخرة وتثبتهم وتصبرهم وتسلّي النبي وتطمئنه الخ ثم استمر
 الامر على ذلك كله ، فالانذار والتبشير والتنديد والتنويه والوعد والوعيد

والقصص والامثال والالزام والافهام والجدال انما هو كما هو واضح
 جاء تبعاً للأسس والمبادئ والاهداف ودار حولها ، بسبيل التدعيم والتأييد
 للذين اقتضتها ظروف السيرة والدعوة ومواقف الناس مسلميهم وكفارهم
 من تلك الاسس والمبادئ والاهداف التي هي الاصل والجوهر في
 التنزيل القرآني .

- 0 -

القصص القرآنية :

خامساً : إن ما ورد من قصص وأخبار متصلة بالامم السابقة وأحداثها
 أولاً لم يكن غريباً عن السامعين إجمالاً ، سماعاً أو مشاهدة آثار او اقتباساً
 أو تناقلاً ، وسواء منه ما هو موجود في الكتب المنزلة المتداولة بمئات
 أو زائداً أو ناقصاً أو مبيناً لما جاء في القرآن . وما لم يكن موجوداً فيها
 بما يتصل بالامم والانبياء الذين وردت اسماؤهم فيها مثل قصص ابراهيم
 المتعددة مع قومه وتسخير الجن والريح لسليمان وقارون والعبد الصالح
 مع موسى ومائدة المسيح ، أو بما يتصل بغيرهم من الامم والبلاد العربية
 وأنبيائهم بما لم يرد اسماؤهم فيها مثل قصص عاد وثمود وسبأ ونوح وشعيب
 ولقمان وذو القرنين ، وثانياً لم يورد للقصص بذاتها وانما ورد للعتبة والتمثيل
 والتذكير والالزام والافهام والتنديد والوعيد .

وفي القرآن شواهد وقرائن ونصوص عديدة مؤيدة للنقطة الاولى
 مثل ما جاء في آيات سورة الروم ٩ وسورة غافر ٢١ وسورة الحج
 ٤٥ - ٤٦ وسورة الصافات ١٣٣ - ١٣٨ وسورة القصص ٥٨ وسورة
 الفرقان ٤٠ وسورة العنكبوت ٣٨ وسورة الفجر ٦ - ١١ وسورة هود
 ١٠٠ وسورة ابراهيم ٤٥ .

وفي أسلوب القصص القرآنية الذي لم يكن مردا تاريخيا كما هو الحال في قصص التوراة والذي غخله الوعظ والارشاد والتبشير والانذار بل والذي جاء سبكه وعظا وارشادا وتبشيرا وانذارا ، ثم في سياق إيراد القصص عقب التذكير بالتنديد والتسليو والتطمين والموعظة وحكاية مواقف الكفار وعنادهم وحجاجهم أو بين يدي ذلك ، وتكرارها لتنوع المواقف النبوية دعوة وحجاجا وتنديدا وبيانا وعظة سنين طويلة ونجاة فئات مختلفة تأييد للنقطة الثانية ، يضاف إلى هذا ما في القرآن من شواهد ونصوص خاصة وكثيرة أيضا بما يؤيدها كما يبدو واضحا لمن يتمعن في آيات الاعراف ١٠١ و ١٦٣ - ١٦٦ و ١٧٥ - ١٧٧ والمائدة ٢٨-٣٣ والانتقال ٥٣ - ٥٤ والتوبة ٦٩ - ٧٠ ويونس ١٢ - ١٣ و ٧١ - ٩٨ وهود ١٠٠ - ١٠٣ ويوسف ١١١ والرعد ٣٨ - ٤٢ وإبراهيم ٩ - ١٤ ومريم ٥٤ - ٦٣ وطه ٩٩ - ١٠١ والفرقان ٣٥ - ٤٠ والنمل ٤٥ - ٥٨ والقصص ١ - ٦ و ٥٨ - ٥٩ والعنكبوت ٣٧ - ٤١ ويس ١٣ - ٣١ و ص ١٢ - ١٧ واللازمة التي اتبعت بكل قصة في سورة الشعراء وهي « إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » . وهناك آيتان في سورتي الانبياء والقصص جديرتان بالتنويه بصورة خاصة لما فيها من دلالة قوية على أن العرب كانوا يعرفون أخبار الانبياء ومعجزاتهم وهما هاتان :

١ - وقالوا اضغات احلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما

الانبياء ٥

أرسل الاولون . .

٢ - فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا (١) أوتي مثل ما أوتي

القصص ٤٧

موسى . .

(١) بمعنى ملا .

وحكمة النقطة الاولى ظاهرة جلية فيما يتبادر لنا . فالحاظون إنما يتأثرون بما احتوته الحادثة أو القصة التي تورد عليهم من موعظة أو مثل أو تذكير وزجر وتنبيه ودعوة الى الاعتبار والارعاء والتأسي والتدبر في العاقبة إذا كانت مما يعرفونه أو مما يعرفه بعضهم جزئياً أو كلياً ومفصلاً أو مقتضباً . أما إذا لم يكونوا يعرفونه فإنه لا يأتي مستحسناً لكم الالتزام والافحام والتأثير والمبرة ، ولا سيما على مخاطبين كافرين بأصل الدعوة التي يراد التذكير بمواقف الغير والسابقين من مثلها وبمضائهم بسبب هذه المواقف أو جاهلين للعادة التي يراد استخراج العبرة من سيرها وظروفها وعواقبها .

وهذه الملاحظة مهمة وجوهرية جداً ، لأن من شأنها أن نحول دون استغراق الناظر في القرآن في ماهيات ووقائع ما احتوته القصص التي لم تقصد لذاتها ، وأن تغنيه عن التكلف والتجوز في التخريج والتأويل والتوفيق أو الحيرة والتساؤل في صدد تلك الماهيات والوقائع ، وأن تجعله يبغي القرآن في نطاق قدسيته من التذكير بالمعروف والارشاد والموعظة والعبرة ولا يخرج به الى ساحة البحث العلمي وما يكون من طبيعته من الاخذ والرد والنقاش والجدل والتخطئة والتشكيك على غير طائل ولا ضرورة .

ونريد أن نبعث في ما يمكن أن يرد على موضوع الملاحظة وخاصة نقطتها الاولى .

فلقد ورد في سورة هود بعد قصة نوح خاصة . وورد في سورة يوسف بعد اتمام القصة وورد في سورة آل عمران في سياق نشأة مريم آيات جاء فيها تنبيه على أن ذلك من أنباء الغيب كما ترى فيها :

١ - تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين . هود ٤٩

٢ - ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون . يوسف ١٠٢

٣ - ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ يلقون أفلامهم أمهم يكفل مریم وما كنت لديهم إذ يختصمون . آل عمران ٤٤

وظاهر الآيات ينقض تلك النقطة كما هو المتبادر . غير أننا نلاحظ أن قصتي نوح ويوسف خاصة قد وردتا في التوراة قريبتين جداً بما وردتا في القرآن ، وإن التوراة كانت متداولة بين أيدي الكتابيين الذين كان كثير منهم يعيشون في بيئة النبي قبل بعثته وبعدها ، كما أن أهل هذه البيئة كانوا على صلة وثيقة بهم وبالبلاد المجاورة الكتابية الدين أي الشام ومصر والحبشة والعراق العربي ، وإن القرآن قد أكثر من ذكر التوراة مصداقاً حيناً ومنوها بما احتوته من نور وهدى . وحق حيناً ومتعدياً بها اليهود حيناً ، وأن فيه آيات لفيد صراحة أو ضمناً أن أهل بيئة النبي كانوا يسمعون من الكتابيين أشياء كثيرة عن كتبهم كما توى في الأمثلة التالية :

١ - أمأمرؤن (١) الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون . . البقرة ٤٤

٢ - ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتنهم على الذين كفروا (٢) فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . .

البقرة ٨٩

(٢) يعني العرب

(١) يعني اليهود

٣ - وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى بعضهم قالوا
اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم . البقرة ٧٧

٤ - أم تريدون (١) أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل .
البقرة ١٠٨

٥ - وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه (٢) من
الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند
الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ال عمران ٧٨

٦ - كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه
من قبل أن نزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . . .
ال عمران ٧٨

٧ - وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يقولون
من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور
يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما
استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء المائدة ٤٣ - ٤٤

وإن أهل هذه البيئة كانوا يتقون بما عند الكتّابين من علوم
ومعارف، بما ينطوي في ذلك حكمة ما تكرر في القرآن من الاستشهاد
بهم على صحة الرسالة النبوية بما أوردنا آياته في مناسبة سابقة .

والروايات متضاربة على أن اليهود كانوا يتجمعون بالتوراة في سياق
الدعوة النبوية واحداً . وأنهم نشروها مرة أو أكثر في مجالس النبي ،
وعلى أنه كان من أهل بيئة النبي العرب من كان يدين بالنصرانية واليهودية

(٢) يعني المسلمين

(١) يعني المسلمين

ومطلعا على التوراة والانجيل فضلا عن من يدين بالنصرانية خاصة من العرب الذين يقطنون في انحاء اخرى من الجزيرة العربية واطرافها ؛ والتوراة كتاب النصارى كما هي كتاب اليهود فضلا عن اختصاص الاولين بالانجيل كما هو معروف . وفي حديث البخاري عن بدء الوحي وقد اوردناه في الفصل الاول صراحة بمعرفة ورقة بن نوفل العبرانية واطلاعه على التوراة والانجيل .

فليس بما يصح فرضه أن لا يكون من العرب السامعين للقرآن من يعرف هاتين القستين . ومثل هذا يقال بالنسبة لقصة مريم التي ورد في بعض الاناجيل شيء قريب مما ورد عنها في القرآن وفي بدء قصة يوسف آية هذا نصها :

« لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين » والسؤال عن أمرهم لا بد من ان يكون آتيا من معرفة شيء ما أو سماع شيء ما عنهم من دون ريب . لذلك فان في الآيات الثلاث المذكورة إشكالا يدهو الى الحيرة ، ولا يستطيع النفوذ الى الحكمة الربانية فيه نفوذاً تاما . وليس من مناص إزاء الواقع ومداه من ان قصص نوح ويوسف ومريم من القصص المشهورة إلا بتأويل هذه الآيات وتخريجها بما يزيل الاشكال ويتسق مع الواقع . وقد رأينا المفسر الحازن يعلق على آية هود فيقول ان قصة نوح مشهورة وانه ليس بما يحتمل ان لا تكون معروفة ، وانه يجب صرف الآية على محمل قصد عدم معرفة النبي وقومه بجميع تفصيلاتها . وفي هذا التعليق وجامة ظاهرة كما انه لا معدى عنه أو عن ما يقاربه كصرف الغيب الى معنى البعيد غير المشاهد أو الذي صار في طبقات الدهر في صده القصص التي وردت عقبها خاصة هذه الآيات . وننبه على ان بقية الفصول القصصية

في سورتي هود وآل عمران، وكذلك الفصول القصصية المتنوعة الواردة في مختلف السور بما في ذلك قصص نوح ومريم ويوسف لم يرد فيها مثل هذا التعليق والتقييد، وان قصة نوح ذكرت بتفصيل او إقتضاب مرات كثيرة في السور التي تزل قبل سورة هود مثل ص والاعراف والقمر والشعراء، وان قصة مريم وولادة عيسى ذكرت بتفصيل ايضا في سورة مريم التي تزل هي الاخرى قبل سورة آل عمران واشير اليها باقتضاب في سور متعددة اخرى ولم يرد كذلك في سياقها مثل هذا التعليق والتقييد مما يجعل التأويل والتخريج سائفاً وصواباً .

ولعل مما يحسن إيواذه في هذه قصة نوح مسألة اصنام قوم نوح المذكورة في سورة نوح وهي ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر؛ فقد كانت الاصنام من الاصنام المعبودة عند بعض قبائل العرب في عصر النبي وقد نسي كثير من الاشخاص المعاصرين للنبي بعبودية بعضها مثل عبد ود وعبد يغوث؛ وفي بعض الروايات ان العرب اقتبسوا هذه الاصنام وعبادتها من قوم نوح؛ ولعل هذا ما كان متداولاً بينهم قبل البعثة . وعلى كل فان هذا قريبة على ان العرب لم يكونوا جاهلين قصة نوح ومواقفه من قومه بالكلية .

وبما يصح إضافته الى الآيات القرآنية الكثيرة التي احتوت دلائل وفرائض تفيد ان السامعين كانوا يعرفون اخبار الامم والانبياء التي تتلى عليهم من القرآن على سبيل العظة والتذكير ان المفسرين قد اوردوا بيانات كثيرة في سياق كل قصة من القصص القرآنية مسبهة حيناً ومقتضبة حيناً آخر، ومعزوة الى علماء السير والاخبار إطلافاً حيناً والى علماء بأسمائهم مثل ابن عباس ومقاتل ومجاهد والضحاك والكلبي وابن اسحق ورهب

ابن منه وكعب الاحبار وغيرهم حيناً ، واحتوت تفاصيل وجزئيات حول هذه القصص او قصصا بسبيلها مهما كان فيها من إغراب ومفارقات فانا نستبعد ان تكون كلها موضوعة بعد النبي عليه السلام ، ونميل الى القول بل نرجح انها احتوت اشياء كثيرة بما كان يدور في بيئة النبي قبل البعثة وبعدها حولها ، وانها بما يمكن الاستئناس به في تأييد النقطة الاولى من الملاحظة بما هو متفق مع المنطق وهدف التذكير والوعظ القرآني . وما يصح إضافته ايضا صيغة اعلام القصص بمثل طالوت وجالوت ويونس وايوب وفرعون وهامان وقارون وهرون وابراهيم وآذر وسليمان وداود وادريس ونوح والمسيح عيسى وموسى وهاروت وماروت الخ ؛ فان هذه الاعلام قد جاءت في القرآن معربة وعلى أوزان عربية ؛ ومن المستبعد ان تكون قد عربت لأول مرة في القرآن ، ومن المرجح ان تكون قد عربت وتداولت بأوزانها العربية قبل نزوله ؛ وبهذا وحده يصح ان يشملها تعبير إزال القرآن بلسان عربي مبين لانها جزء منه ؛ وتداولها معربة قبل نزول القرآن يعني كما هو بديهي معرفة العرب شيئا من أخبار أصحابها على الأقل .

وفي ما تكررت حكايته في القرآن عن الكفار من قولهم إنه أساطير الاولين وان النبي كان يستكتبها ونقل عليه ، وانه كان أناس اخرون يعينونه عليها ، وانهم لو شاؤوا لقالوا مثلها كما جاء في آيات الانعام ٢٥ والانفال ٣٠ والفرقان ٥ والقلم ٨ ١٥ مثلاً قرينة قوية كذلك ان لم نقل قرينة حاسمة على ان العرب كانوا يسمعون من قصص القرآن ونذره وبشارته وتذكيراته ما اتصل بهم عنه وكان من المتداول بينهم . ولقد يرد ان الكفار حينما كانوا يرددون على النبي تعبير أساطير الاولين خاصة كانوا في

موقف المكابر المستخف؛ ومع التسليم بهذا فإن كلمة أساطير لا تقتضي دائماً ان تعتبر مرادفة لكلمة قصص خرافية كما هو من مفهوماتها؛ فانها قد تقيد ايضاً معنى المدونات لانها مشتقة من « سطر بمعنى « كتب » كما هو وارد في القرآن « ن والقلم وما يسطرون » ؛ وآية الفرقان الخامسة « وقالوا أساطير الاولين اكتبها في غلي عليه بكرة واصيلاً » تلهم ان هذا من المعاني المقصودة للكلمة . ومهما يكن من أمرها فانها تعني على كل حال انهم يسمعون اخباراً وقصصاً وصلت الى علمهم عن الامم السابقة حقيقية كانت او خرافية .

وبما يرد على ما نختم سؤال عن مدى ما بين القصص القرآنية واسفار التوراة والانجيل المتداولة من مبيانات . فقد قلنا قبل قليل ان في القرآن قصصاً مقاربة لما في هذه الاسفار كما ان فيه قصصاً مبيانة في الاسماء والاحداث او بزيادة ونقص ، وان فيه قصصاً متصلة بأسماء رجال هذه الاسفار من انبياء وغيرهم دون ورودها فيها . والذي نعتقده ان ما قلناه ينطبق على هذا ايضاً ، وان ما ورد في القرآن هو الاكثر انساقاً مع ما كان معروفاً ومتداولاً عند السامعين إجمالاً وهذا هو المنشي مع الحكمة التي نبهنا عليها في القصص القرآنية ؛ ونراه طبيعياً ومنساقاً مع الواقع والمألوف وهو تداول الناس اخباراً وأسماء على غير الوجه المدون في الكتب والصحف بل وكون المتداول احياناً كثيرة هو الاكثر صحة من المدون ايضاً . فليس والحالة هذه ما يمنع ان يكون لدى النصارى واليهود في عصر النبي وقبله متداولات مدونة وغير مدونة تساق وتورد على هامش ما ورد في اسفار التوراة والانجيل وبقصد التوضيح والتفسير والتعليق ؛ هذا بقطع النظر عن احتمالات الاختلاف والمباينة بين الاسفار المتداولة اليوم والاسفار المتداولة قديماً . وفي كتب تفسير القرآن روايات

كثيرة معزوة الى الصحابة والتابعين احتوت بيانات عن احداث تاريخية واجتماعية عربية وغير عربية ، وعن احدثات متصلة ببيئة النبي وسيروته ولم ترد في القرآن ، وانما وردت إشارة اليها قريية أو بعيدة ، فأوردت على هامش تفسير الآيات القرآنية وبقصد تفسير بعض الوقائع والاحداث والاشارات والمفهرمات التي احتوتها والتعليق عليها ؛ ولا يمتنع ان تكون صحيحة كلياً او جزئياً .

ولقد تكون قصص ابراهيم خاصة لافئة للنظر اكثر من غيرها في هذا الباب ؛ لان جل ما ورد منها في القرآن لم يرد في التوراة . والمدقق في القصص التي لم ترد في التوراة يجد انها متصلة بالحياة والظروف والتقاليد التي كانت عليها البيئة النبوية ، وبمواقف الكفار العرب وعقائدهم ايضا اتصالا وثيقا ؛ سواء في امر إسكان ذرية من ابراهيم في مكة أو في إنشاء الكعبة ، أو في اصول الحج وتقاليده ، أو موقفه من أبيه وبرائه منه ، أو حملته على عبادة الاصنام وموقفه من قومه من اجلها وتكسيده اياها والقائه في النار بسبب ذلك ، أو محاجته مع الملك أو نظرتة في النجوم وانصرافه عنها ، ويجد انها داعية الى التأسي لانه أبو العرب . والذي نعتقده ان هذه القصص كانت متداولة بين العرب ومتناقلة فيهم جيلا عن جيل دون ما حاجة الى ان تكون مستقاة من اليهود لان التوراة هي اول ما جاء يحمل هذين الاسمين مدونين ، وان من تلك الناحية خاصة نجي قصص ابراهيم ملزمة للعرب ، وتورد في القرآن بقوتها التلقينية والتذكيرية المستعكمة النافذة التي وردت بها كما يمكن ان يبدو لمن يتمعن في آيات البقرة ١٢٤ - ١٤١ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ وآل عمران ٦٥ - ٦٨ ، ٩٤ - ٩٧

والانعام ٧٤-٩٠ والتوبة ١١٣-١١٤ وإبراهيم ٣٥-٤١ ومريم ٤٢-٥٠
والانبياء ٥١-٧٠ والحج ٢٦-٣٧ و٧٨ والزخرف ٢٦-٢٨ والمتحنة
٤-٦ ، وهذا هو هدف القصة القرآنية بالذات .

ونظن انه ليس من شيء يرد من مثل هذا على موضوع القصص
الآخري التي لم يرد أسماء رجالها ومواضيعها في أسفار التوراة والانجيل
ولا سيما ان جل هذه القصص عربي الامم والانبياء والبلاد ، وان كونها
بما كان متداولاً عند العرب لا يصح ان يكون موضع شك وجدل ، وفي
الآيات القرآنية دلالات قوية على هذا خاصة مثل آيات العنكبوت ٣٦ -
٣٨ والاحقاف ٣٧ والصفات ١٣٧-١٣٨ والقصص ٥٨ والحج ٤٥ ٤٦

هذا ، ومعلوم انه يوجد في القرآن قصص أنزلت جواباً على سؤال
حريج مثل قصص ذي القرنين ويوسف وأصحاب الكهف والرقم ، كما
ان هناك قصصاً أوردت مباشرة مثل قصة نشأة موسى وسيرته في مطلع
سورة القصص . ولقد يرد ان في هذا نقضاً لما قلناه من ان القصص القرآنية
لم تورد لذاتها كما انه قد يكون بالنسبة لبعض هذه القصص نقضاً لما قلناه
من ان القصص الموحاة بما كان متداولاً وليس غريباً على الاسماع بالمرّة .

ولقد قلنا قبل في صدد قصة يوسف ان السؤال عنها لا يمكن ان يكون
ورد الا من افان سمعوها وعرفوها او سمعوا وعرفوا شيئاً عنها . وهذا
ينطبق على قصة ذي القرنين كما هو بديهي ، ومضامين آيات أصحاب الكهف
والرقم تلهم انه كان جدل حول قصتهم وعددهم وسني لبثهم ، وهذا يعني
ان السؤال وجه علمي سبيل الاستفسار - وهذا ما روت الروايات -
وبالتالي ان السائلين قد سمعوا او عرفوا شيئاً عن القصة ، ومعرفة السائلين

بعض الشيء لا تقتضي بالدعاة ان لا يكون هناك اناس آخرون يعرفون
أشياء كثيرة عنها كما لا تقتضي ان يكون اناس يعرفون ثم ارادوا التحقيق
او الاستفسار او التحدي الخ

وفي كتب التفسير بيانات وتفصيلات جزئية كثيرة عن هاتين
القصتين ايضا مما يمكن ان يكون فيه - بسبب كونه مستنداً الى
روايات متصلة بعهد النبي - دلالة على تداوله في هذا العهد ايضا . اما
قصة موسى فلا نظن انه يرد أنها كانت غريبة عن الاسماع وفي القرآن
دلالات حاسمة على عكس ذلك اوردت بعض الآيات عنها .

هذا بالنسبة للنقطة الاولى . اما بالنسبة للنقطة الثانية فان قصة موسى
في سورة القصص قد أعقبها آيات تنديدية وتذكيرية ووعظية منطوقة عليها
وكتيبة لها كما يبدو من الآيات ٣٧ - ٥٠ .

وهذا ما يدخلها في نطاق القصص الاخرى الواردة في معرض التذكير
والتنبيه والانذار والدعوة والاعتبار . وكذلك قصة يوسف فقد أعقبها
آيات مثل تلك وهي الآيات ١٠٣ - ١١١ وانتهت بآية فيها قصد العبرة
صرحة حيث جاء هذا التعبير « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب »
في آخرها . وقصة اصحاب الكهف والرقم قد جاءت بعد آيات فيها حجة
على الكفار لنسبتهم للولد الى الله وهي الآيات ٤ - ٨ ، كما أعقبها آيات
فيها استمرار في الحجة وهي الآيات ٢٣ - ٣١ ، واسلوبها متنسق مع
أسلوب سائر القصص اي انه تضمن المواعظ والتلقينات الأخلاقية
والاجتماعية والدينية واستهدف التدعيم والتأييد للدعوة النبوية واهدافها
حتى ليبدو ان هذا هو المقصود بها عند انعام النظر في سلسلة آياتها ١ - ٣١
وخاصة في امر النبي بعدم المماراة كثيرا في شأنهم وايكال علم ذلك الى

الله. ومع ان قصة ذي القرنين جاءت جواباً على سؤال صريح فإن أسلوبها مثل ذلك الاسلوب وقد اعقبتها آيات تضمنت حجة على الكافرين الجاحدين ومتصلة بآيات القصة اتصالاً وثيقاً نظماً وانسجماً. وهذا وذاك بيدوان بارزين عند انعام النظر في سلسلة الآيات

وعلى هذا فإن من الصواب ان يقال ان هذه القصص لا تشذ عن الطابع العام للقصص القرآنية الذي نوهنا به في مطلع البحث .

وبما هو جدير بالتنويه ومتصل بالمعنى الذي نقرره وخاصة بالنسبة للنقطة الاولى من الملاحظة أن محتويات القصص القرآنية على تنوعها لم تكن موضع جدل وممارسة لامن مشركي العرب ولا من الكتابيين بدليل انه لم يرد في القرآن اى إشارة تفيد ذلك صراحة او ضمناً مع انهم كانوا يحصون على النبي كل شيء ويتصدون لكل ما يتوهمون فيه تناقضاً او شذوذاً عما يعرفونه ويعتقدونه ويتداولونه ويتوارثونه ويسارعون الى اعلان استنكارهم وتكذيبهم ، ويستغلون فرصة اللصد والدعاية والتأليب بما حكى القرآن شيئاً كثيراً منه .

وقد يؤيد هذا ان العرب جادلوا في الحياة الاخرية أشد جدال وكنبوا وانكروا أعنف تكذيب وانكار فحكمت ذلك آيات قرآنية كثيرة حتى لقد شغل هذا الجدل والتكذيب والانكار وما اقتضاه من ردود وتوكيدات متنوعة الاسلوب حيزاً كبيراً من القرآن المكمل ولقد كان من أسباب هذا الانكار والتكذيب والجدل ان العرب كانوا يسمعون ما لا علم لهم به سابقاً وما لم يسمعوا عنه شيئاً مهماً من الكتابيين الذين كانوا مصدرأ رئيسياً من مصادر معارفهم لان أسفار هؤلاء لم تكد تحتوي عن الحياة الاخرية شيئاً .

وليس ما نقل عن العرب من قولهم عن القرآن انه اساطير الاولين مما يفيد تكذيبهم للقصص التي يسمنونها وبنماهم فيها لان هذا التعبير كما قلنا عنى كما تدل عليه مضامين الآيات القرآنية مدونات الاولين وقصصهم اطلاقا ، ولانهم كانوا يردون هذا القول بقصد تكذيب صلة الله ووجهه بالنبي وصحة التنزيل القرآني والدعوة النبوية والحياة الاخروية لا بقصد الممازاة في هذه القصص وتكذيبها وانكارها كما يظهر من التمعن في هذه الآيات التي ورد فيها التعبير :

١ - ومنهم من يستعجلك وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤك بمجادلونك يقول الذين كفروا ، ان هذا الا اساطير الاولين الانعام ٢٥

٢ - واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا اساطير الاولين . واذا قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم . الانفال ٣١ - ٣٢

واذا قيل لهم ماذا انزل ربكم قالوا اساطير الاولين . النحل ٢٤
٤ - وقالوا اساطير الاولين اكتسبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والارض انه كان غفورا رحيما .

الفرقان ٥ - ٥

٥ - فستبصر ويبصرون . بأيكم الفتون . ان ربك هو اعلم بمن خل عن سبيله وهو اعلم بالمتهدين فلا تطع المكذبين ودوا لو تدمن فبدنهون ولا تطع كل خلاف مهين هماز مشاء بنسيم . مناع للخير معتد ائيم . على بعد ذلك زينيم . اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين

القلم ٥ - ١٥

ولقد انكر اليهود أموراً وأردوا في التوراة فتحدهم القرآن بالانبيان
بالتوراة وفلاوتها ان كانوا صادقين في انكارهم كما جاء في آية آل عمران
٩٣ صراحة وآيات المائدة ٤٣ - ٤٥ ضمناً . ولقد حاشوا في ما قرره
القرآن عن إبراهيم وملته ، وقدم الكمية وصلته بها كما يفهم من آيات
البقرة ١٣٢ - ١٤١ وآل عمران ٦٦ - ٩٩ صراحة وضمناً

فلو رأى العرب فيما يسمعون من القصص تناقضاً أو تبايناً أو شذوذاً
عما يعرفونه منها اجمالاً أو تفصيلاً ، أو لو سمعوا أشياء لا عهد لهم بها للمرة
ولو رأى الكتائبون وخاصة اليهود في ما يسمعون مبانة لما كان متداولاً
في أيديهم من الكتب وتفسيرها وشروحها أو لما هو متداول ومتناقل
بينهم على هامشها بما يتصل بأسماء انبيائهم لجادلوا وطعنوا وغمزوا ،
ولذكر ذلك عنهم القرآن في معرض التكذيب والرد كما ذكر عنهم
جدالهم وحجاجهم وإنكارهم وطعنهم في هذا المعرض في الأمور الأخرى
التي توهموا فيها تناقضاً أو تغايراً أو جديداً لا عهد لهم به ، ولا غتنموه
فرصة للغمز والطعن والدعاية والتهويل .

ولقد يرد سؤال عما إذا كان النبي يعرف أيضاً القصص القرآنية قبل
بعثته أو عن غير طريق الوحي ، وعما إذا لم يكن فيما نقره تعارض معاً
مع نزول الوحي بها . والذي نعتقد أن النبي خلافاً لما قاله بعضهم كان
يعرف كثيراً مما يدور في بيئته من قصص الأمم والأنبياء السابقين
وأخبارهم ومساكنهم وأثارهم سواء منها المذكور في أسفار التوراة
والإنجيل أو غيره كما أنه كان يعرف كثيراً من أحوال الأمم والبلاد
المجاورة للجزيرة العربية بالإضافة إلى ما كان يعرفه من أحوال سكان
الجزيرة أيضاً وتقاليدهم وأفكارهم وعاداتهم وأخبار أسلافهم ، وإن هذا

هو المنسق مع طبيعة الاشياء ، وان النبي قد اتصل قبل بعثته بالكتابين
الموجودين في مكة وتحدث معهم حول كثير من الشؤون الدينية وحول
ما ورد في الكتب المنزلة واستمع الى كثير مما احتوته ، وتزوج ان هذه
الصلة قد استمرت الى ما بعد بعثته ، وانما انتهت بإيمان الذين اتصل بهم
بنبوته لما رأوا من اعلامها الباهرة فيه . ولعل فيما ورد في بعض آيات
القرآن قرينة على ذلك ، فقد جاء في سورة الفرقان هذه الآية : وقال
الذين كفروا ان هذا الا فاك افتراه واعانه عليه قوم اخرون فقد
جاؤوا ظلما وذنورا ، وفي سورة النحل هذه الآية : ولقد نعلم أنهم يقولون
إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين ،
فهذه الاقوال الصادرة عن الكفار التي حكاهما القرآن لا بد من ان تكون
مستندة إلى مشاهدة اتصال النبي ببعض اشخاص كانوا يعرفون أنهم ذرو
علم أو مظنة علم وتعليم ومعاونة ، ومنهم غرباء ، والمرجح ان الغرباء خاصة
منهم كتابيون ، فوهوا انه يستعين بهم او يعينونه على نظم القرآن
وتأليفه فقالوا ما قالوه . والآيات تنفي التعليم والاعانة ولكنها لا تنفي
الاتصال . وقد وردت في كتب التفسير روايات تذكر وقوع شيء من
هذا الاتصال ، وقد جاء في كشف الزعمشري مثلا انه كان لحويطب بن
عبد العزى غلام اسمه عايش او بعيش وكان صاحب كتب وقيل هو جبر
غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي وقيل عبدان جبر ويسار كانا يصنعان
السيوف في مكة ويقرآن من التوراة والانجيل ، فكان رسول الله اذا
مر وقف عليهما يسمع ما يقرآن . وحديث بدء الوحى البخاري صريح
بأن النبي اجتمع بورقة بن نوفل الذي تنصر وقرأ العبرانية وكانت يقرأ
الانجيل ويكتبه ، وفي روايات السيرة ان ورقة هذا تولى تدريج النبي

وكان عمره خمسا وعشرين سنة بمجدية ابنة عمه ، ففي كل هذا ما يستأنس به على صحة ما ذكرناه .

ومن الواضح ان هذا ليس بمخلّ بقدر النبي عليه السلام وعظمته التي انما كانت تقوم في الحقيقة على ما امتاز به من عظمة الخلق وقوة العقل وحفاء النفس وكبر القلب وعمق الايمان والاستغراق بالله ، ولقد قرر القرآن طبيعة النبي البشرية ، وهذا متصل بهذه الطبيعة التي من البديهي جداً ان لا تتناقض مع وقوف النبي على ما كان متداولاً في بيئته او في اي بيئة ونحلة تيسر له الاتصال بأهلها من اقوال وافكار واخبار وعقائد وتقاليد وظروف واحداث حاضرة وغابرة ، بل ان من البديهي جداً ان يكون واقفاً على كل ذلك غير غافل عنه ، وان هذا هو المعقول الذي لا يمكن ان يصح في العقل غيره . واننا لنشعر بالدهشة بما ابداه ويديه بعض الغلماء من حرص على تأكيد كون النبي لم يكن له معارف مكتسبة بما لا ينسق مع المنطق والمعقول والبديهي توها بأن في هذا مأخذاً ما على كون ما بليغه النبي من القرآن انما اتى من هذه المعارف ، ونرى في هذا التوهم خطأ احياناً في تلقى معنى الرسالة النبوية التي هي هداية وارشاد ودعوة والتي لا يعهد بمهبتها العظمى الا لمن يكون اهلاً لها في عقله وخلقه وقلبه وروحه كما ذكرت آية الانعام : الله اعلم حيث يجعل رسالته ، كما انه ات فيما يتبادر لنا من عدم ملاحظة كون القرآن قسمين متميزين اسأوسائل .

وما يورده هؤلاء حجة آيات العنكبوت هذه :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك اذا لارتاب المبطون . بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم وما يحجد بآياتنا الا الظالمون . . »

حيث يظنون على ما يبدو ان اكتساب المعارف والاطلاع على ما عند الناس من اخبار وافكار انما هو حصر على الفاريء الكاتب ، وليس هذا صحيحا وانما كما انه ناثيـ عن قياس الغائب بالحاضر وهو قياس مع الفارق . والآيات بسبيل تقرير كون الدعوة التي يدعو اليها النبي وما يبلغه في صددها انما هو وحي رباني ولم يقتبسه من كتاب ، ولا ينبغي ان يكون عندهم محل للشك في ذلك لانهم يعرفون انه لم يكن يقرأ ولا يكتب ، ولا يجمعد بآيات الله التي تصدر عن الذين يختصم الله بمهمته وبيناته الا المكابرون الظالمون على ما يتبادر . وليس في هذا نقض لما قررناه . والذي نعتقده انه ليس في ما قررناه أو في كون القصص القرآنية متسقة إجمالاً مع ما كان معروفاً متداولاً نعارض من ناحية ما مع نزول الوحي الرباني بها على قلب النبي عليه السلام - وهو سبب القول ان النبي لم يكتسب معارفه اكتساباً - لانها لم تنزل لذاتها بقصد القصص والاخبار وانما انزلت في معرض التنديد والموعظة والتذكير والجدل ، وكوسيلة من وسائل تدعيم أهداف القرآن واسس الدعوة النبوية ازاء مواقف المكابرين والمجادلين والجاحدين بما هو موضوع هذا البحث وفوائد الملاحظة التي عقد عليها .

ولقد ورد في القرآن فصول كثيرة جداً مما له صلة ببيئة النبي وحاضر تقاليد اهلها وحياتهم وامثالهم ومعايشهم وما في اذهانهم من صور متنوعة بما هو معروف مشهود بأسلوب الموعظة والتذكير والتنديد وكوسيلة من وسائل التدعيم والتأييد ، وليس من فرق من حيث الجوهر بين هذا وذاك وليس بما يصح في حال او يمكن ان يرد على بال ولا بما ادعاه احد ان النبي لم يكن يعرفه عن غير طريق الوحي .

وقد بقيت مسألتان قد تبدوان مشكلتين ، اولهما ما اذا كان ما احتواه القرآن من قصص صحيحة في جزئيات وقائمه وحقائق حدوده ، ولانيتها ما بين بعض القصص القرآنية المتصلة بنبي او امة من بعض الخلاف مثل وصف عصا موسى بالحيلة في سورة الشعان في سورة اخرى ، ومثل ذكر وقت ما كان يقع على بني اسرائيل من فرعون من قتل الابناء واحتجاب النساء حيث ذكر هذا الوقت في سورة انه قبل بعثة موسى وفي سورة انه بعد بعثته . فنحن كسليمين نقول ان كل ما احتواه القرآن حق وراجب الايمان وانا آمننا به كل من عند ربنا ، كما اننا نقول بوجوب ملاحظة كون القرآن في قصصه انما استهدف العظة والتذكير فحسب ، وهما لا يتحققان الا فيما هو معروف ومسلم به اجمالا من السامع وان هذا ايضا من الحق الذي انطوى فيه حكمة التنزيل ، وبوجوب الوقوف من هذه القصص عند الحد الذي استهدفه القرآن وعدم الاستغراق في ما هيأتها على غير طائل ولا ضرورة ، لانها ليست بما يتصل بالاهداف والاسس على ما ذكرناه في مطلع البحث وهذا هو الجوهرى فيه . وهذا القول يصح على المسألة الثانية مع التنبيه على ان الخلاف ظاهري ويمكن التوفيق فيه وتأويله ، وعلى انه متصل بالماهيات والحقائق التي لم تقصد لذاتها كما كررنا قوله .

ونريد ان ننبه على ظاهرة قرآنية مهمة فيها توكيد لما نقرره واتساق معه ، وبالتالي فيها دليل انسجام في الاساليب القرآنية ومراميها مكية كانت او مدنية . وذلك ان اسلوب القرآن القصصي وهدفه قد اتسقا مع ماورد فيه من ذكر للوقائع الجهادية والمواقف القضائية والحجاجة وغيرها من احداث السيرة النبوية ، بحيث ان الناظر في القرآن يجد ان

ما ورد فيه من ذلك انما ورد بقصد العظة والتذكير والتنبيه والحث والتعذير والارشاد والتعليم والتأديب والتشريع ، ولم يرد بأسلوب السرد التاريخي وقصده . وهذا ظاهر من كون تلك الوقائع والمواقف لم تحوكل الصور والمشاهد والتفصيلات والاحداث ، وانما احتوت ما يحقق ذلك القصد منها . ولعل هذا هو الذي يفسر حكمة عدم ورود ذكر او تفضيل لامور كثيرة من احداث السيرة وفيها ما هو مهم من وقائع جهادية كفتح مكة والطائف وغزوات مشارف الشام ومؤتة واليمن الخ . فالظاهر انه لم يكن فيها امور تستوجب ذلك وتصل بالقصد المذكور فاقضت الحكمة عدم انزال شيء في بعضها والاكتفاء بالاشارات العابرة بالنسبة لبعضها الآخر

- ٦ -

الملائكة والجن في القرآن

سادسا - ان ما ورد من اخبار الملائكة والجن لم يكن هو الآخر غريبا عن السامعين جزئيا او كليا ، وانه من وسائل التدعيم للدعوة واهدافها وليس مقصودا بذاته .

ففي القرآن آيات عديدة تدل على عقيدة العرب في الملائكة ووجودهم وأنهم موضع امل ورجاء ومصدر بر ورحمة . وقد ذكر القرآن ان العرب يعتقدون انهم بنات الله وذوو حظوة لديه وانهم اتخذوهم آلهة وشفعاء ليقربوهم اليه زلفى وقد قرر كذلك أنهم كرام برة متصلون بالله ويختصون بخدماته لا يعصونه في ما يأمر ويقصدونه ويسبحون بحمده على الدوام . وهكذا يبدو ان ما قرره القرآن عن عقائد العرب فيهم متصل بما قرره عن صفاتهم واعمالهم وصلتهم بالله مع سوء فهم العرب

وباطل تأويلهم لهذه الصلة بما كان سبب الحلة عليهم والتنديد بهم في القرآن
ولقد حكى القرآن تحدي العرب النبي باستنزال الملائكة ليؤيدوه في
دعوته ما دام يقول إنما يوحى الله وهذا التحدي متصل بعقيدتهم فيهم
وبتقرير القرآن عنهم كما هو واضح

كذلك في القرآن آيات عديدة تدل على عقيدة العرب في الجن
ووجودهم وانهم مبعث خوف ومصدر اذى وشر ، وانهم كانوا يعوذون
بهم وبشر كونهم مع الله في العبادة خوفا منهم وتزلفا اليهم وانهم
يحتلظون في عقول الناس ، وقد قرر القرآن في صددهم أنهم ذوو أعمال
خارقة ومصدر غواية وخبت ، وأن ابليس وجنوده والشياطين الذين
ذكروا مرادفين لابليس وجنوده أحيانا كثيرة هم منهم ، وانهم يوسوسون
في صدور الناس ، ويسترقون السمع من السماء ويقولون بأكاذيبهم الى
الافاكين الكاذبين . وهكذا يبدو ان ما قرره القرآن عن عقائد العرب
فيهم متصل بما قرره عن صفاتهم واحوالهم كذلك (١) .

وفي كتب التفسير بيانات كثيرة في صدد الملائكة والجن وابليس
وما هيأتهم وأعمالهم جاءت في سياق ما ورد عنهم في القرآن سواء فيما له
صلة بعقائد العرب ام بأعمالهم واخبارهم واقوالهم مسببة حينا ومقتضية
حينا آخر ومعزوة الى علماء ورواة معينين حينا وبدون تعيين حينا آخر .
ومها يكن من امر هذه البيانات فان من المستبعد ان تكون موضوعة
كلها بعد الاسلام ، ونرجح انها احتوت اشياء بما كان يدور في بيئة النبي

(١) في كتاب مصر النبي وبيته قبل البعثة بظان مستفيضان عن عقائد العرب
وتهجرات القرآن عن الملائكة والجن .

عليه السلام حولهم ، وانما مما يمكن ان يستأنس به بان العرب كانوا يتداولون عنهم امورا كثيرة بقطع النظر عن صوابها وخطأها وزيفاتها ونقصها ، ومن الممكن ان يكون منها ما أتاهم عن الكتائين لان اسفار التوراة والانجيل تحتوي اشياء كثيرة عنهم ، كما ان من الممكن ان تكون او يكون منها ما هو قديم لان عقيدة وجود مخلوقات خفية طيبة وخبيثة من العقائد البشرية القديمة العامة التي تكاد توجد في جميع الامم على اختلاف درجاتها في الحضارة .

ومن المتبادر ان ما ورد عن الجن والشیاطین وابليس من صور قرائية بغيضة ومن حملات على الكفار في سياقها متصل بما في اذهان العرب عنهم ، وبسبيل تقرير كون الانحراف عن الحق والمساورة فيه والاستغراق في الائم والحجائب والانصراف عن دعوة الله هو من تلقيناتهم ووسائسهم ومظهرأ من مظاهر الانحراف نحوهم وبسبيل التحذير من الاندماغ بهم لما في ذلك من مهانة ومسبة . ومن هنا يأتي الكلام قوياً ملزماً ولاذعاً على ما هو مألوس في مختلف الآيات القرآنية ، ويقوم البرهان على أن ذلك هو من الوسائل التدعيمية لاهداف القران وأسس الدعوة النبوية .

ولعل الحكمة الربانية في ما اوحى الله به من استماع نفر من الجن مرتين للنبي مرة في سورة الجن تلهم ان المستمعين يقولون بولد وصاحبة لله سبحانه - وهذا متصل من ناحية بعقائد العرب المشركين ومن ناحية بعقائد النصارى - ومرة في سورة الاحقاف تلهم ان المستمعين يؤمنون بكتاب موسى ومهندون بكتاب هده تنطوي من جهة ما على قصد التدعيم الرسالة النبوية بالاخبار بايمان بعض طوائف الجن بمن يدين بدايات

مختلفة منزلة وغير منزلة بالرسالة المحمدية ولهم ما لهم في اذهان العرب من صور هائلة .

ومن المتبادر كذلك ان ما ورد عن الملائكة من خضوعهم لله وعدم استكبارهم واستنكارهم واستنكافهم عن عبادته ، واستغراقهم في تنفيذ اوامره ومعرفتهم حدودهم منه ، وعدم عصيان امر له ، وعدم امكان شفاعتهم الا باذنه ورضائه ، وما يكون من امرهم في تلقي الكفار بالعنف والشدة وتلقي المؤمنين بالتطمين والبشرى في الآخرة ، وما كان من امرهم من المسارعة الى السجود لآدم تنفيذاً لاوامر الله بينما تمرد ابليس عن ذلك متصل هو الآخر بذلك القصد في بيان واقع الملائكة الذين لهم في اذهان العرب تلك الصور العظيمة الفخمة ، وان الكلام من هذه الناحية يأتي هو الآخر ملزماً ومرهبا للكفار ، ومطمئناً ومثبتاً للمسلمين ، ويقوم البرهان على ان ذلك هو من الوسائل التدعيمية لاهداف القرآن واسس الدعوة النبوية .

ولعل المتعمق في الآيات التي جاء فيها ذكر الملائكة والجن وابليس والشياطين واعمالهم وتنوعها من جهة وما هنالك من آيات وجل قرآنية عديدة فيها تقريرات حاسمة عن احاطة الله بكل شيء في كل آن ، وشمول قدرته لكل شيء ، واستغنائاه عن كل عون في تصريف ملكوت السماوات والارض يلهم الناظر في القرآن ايضاً ان تلك الآيات مع اتصالها بما في اذهان السامعين من صور قد جاءت بسبيل التقريب والتمثيل للناس الذين اعتادوا ان يروا الوسائل والوسائط في متنوع الاعمال ووجوه الحياة ، ويمتروا مظهرها من مظاهر العظمة والاحاطة ولا يدركوا المجرادات ادراكاً صحيحاً .

فمن هذه الشروح يبدو واضحا كما هو المنبأ أن ما ورد عن الملائكة والجن ، انما استهدف كما قلنا التذعيم للدعوة النبوية واهداف التنزيل القرآني اولا وليس هو مقصوداً بذاته ثانيا ، وانه قائم على حكمة التذعيم بما هو معروف متداول ثالثا ، وان في ذلك تدليلا على اهمية ملاحظة ذلك في سياق النظر في القرآن تديراً وفيها وتفسيراً ، لان من شأنها أن تحول دون استغراق الناظر فيه في الماهيات والكيفيات لذاتها من مثل خلفه الملائكة والجن وكيفية اتصالهم بالله والناس وقيامهم بأدوارهم على اعتبار أن هذه الماهيات والكيفيات غير مقصودة لذاتها اولا ولا طائل من وراء التنقيب والاستغراق فيها لانها ليس مما يدخل في نطاق الاسس والاهداف ثانيا ؛ كما انها ليس مما يدخل في نطاق المشهودات والملموسات المادية ثالثا ولا سبيل الى فهمها بالادراك البشري العادي رابعا ، وليست هي الا حقائق ايمانية غيبية خامسا ، ولان من شأنها كذلك ان تغني الناظر في القرآن عن التكلف والتعجز والتعجب والتوفيق في عدد ما يقوم في سبيل الماهيات والحقائق والكيفيات لذاتها ، وان نجعله يقف منها عند حد ما وقفه القرآن ، ويبقى القرآن في نطاق قدسيته من الاوشاد والموعظة والهدى ؛ ولا يخرج به الى ساحة البحث التي من طبيعتها الاخذ والرد والنقاش والجدال والجرح والتعديل الخ .

مشاهدات الكون ونواميسه :

سابقا : ان ما ورد في القرآن من مشاهد الكون ونواميسه قد استهدف لفت نظر السامعين الى عظمة الله وسعة ملكوته وبديع صنعه وانقائه بقصد تأييد هدف رئيسي من اهداف الدعوة وهو وجوب وجود الله واتصافه بأكمل الصفات ونزوه عن الشوائب ، واستغنائاه عن الولد والشريك والنصير والمساعد ، ووحدته وانفراده في الربوبية ، واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والانجاء والدعاء ، ومطلق تصرفه وشمول علمه وإحاطته بكل شيء ذي او عظم ، وحكمته السامية في خلق الكون على امس النواميس التي شاءت قدرته ان تقوم عليها ، ثم بقصد بث هيبة الله في قلوب السامعين وحفزهم على الاستجابة الى دعوة نبيه والانصياع لاوامره ونواهيه ، والتزام حدوده ، وبتعبير اجمالي آخر قد استهدف العظة والارشاد والتنبيه والتلقين والتدعيم والتأييد دون ان ينطوي على قصد تقرير ماهيات الكون واطوار اخلق والتكوين ونواميس الوجود من الناحية العلمية والفنية .

وحكمة هذا واضحة ، فالقرآن خاطب الناس جميعاً على تفاوت مداركهم وأذهانهم ، وقصد الموعظة والارشاد والتنبيه والهدى هو القدر المشترك بينهم من جهة ، وهو الاصل في القرآن والانساق مع طبيعته ومداه من جهة اخرى ، بحيث يمتد لكل دور ومكان ، وتجاه اعلم العلماء وأبسط البسطاء ، كما ان شواهده غائقة في آيات القرآن وفصوله واسلوبه

ايضا سواء اكان ذلك في كيفية التعبير والسياق أم في تنوعها بما هو
منبث في مختلف السور وخاصة المكية منها لان هذه هي التي انزلت في
ظروف الدعوة التي تقتضيها .

ولعل في تعبير الارتاد عن الجبال ، والسقف المبني عن السماء ،
والمصابيح المضيئة التي زينت بها السماء عن النجوم وجريان الشمس ومنازل
القمر ، والسراج الوهاج الأولي ، والمصباح المنير الثاني ، وفي ذكر انزال
الماء من السماء ، وتيسير السحاب وتصريف الرياح ، وارسال الرعد والبرق
والصواعق ، وانبات مختلف الزروع والاشجار ، وتسخير الدواب
والانعام ، وتيسير البحار والانهار والفلك ، وجعل الارض بساطا ،
وتصويرها مركزا للكون والانسان ، قطبا للارض ، حيث سفر له كل
ما في السموات والارض ، واسبغت عليه نعم الله ظاهرة وباطنة ، وسواء
الله بيده ونفع فيه من روجه اتساقا واضحا مفهوما مع مشاهد ومدرجات
مختلف فئات الناس الذين يوجه اليهم الكلام ، وبالتالي لعل في ذلك
دلالات على ما استهدف من هذه التعابير القرآنية بما ذكرناه آنفا .

وفي القرآن تشبيهات وامثلة وتذكيرات متنوعة المضمين والسياق
فيها ذلك الاتساق وهذه الدلالات واضحة جلية إذا ما انعم النظر فيها .

ولأنه ليصح ان يقال بالاضافة الى ما تقدم وبناء عليه ان المضمين
القرآنية في هذه المواضيع متسقة مع ما في أذهان سامعي القرآن عن مظاهر
الكون ومشاهده ونواميسه ، وتجلي عظمة الله وقدرته فيها . وهذه النقطة
متصلة بالمبدأ العام الذي ما فتئنا نقرره من ان القرآن خاطب الناس بما
يتسق مع ما في اذهانهم اجمالا من صور ومعارف لما يكون من قوة اثر
الخطاب فيهم بمثل هذا الاسلوب .

وملاحظة ذلك جوهرية جدا لانها تجعل الناظر في القرآن يقف من
 الفصول الواردة في هذا الباب فيه عند الحد الذي استهدفته والذي اشرنا
 إليه ، ونحول بينه وبين التكلف والتعوز والتخمين والتزويد ومحاوله
 استخراج النظريات العلمية والفنية في حقائق الكون ونواميسه واطواره
 منها ؛ والتعامل والتوفيق والتطبيق بما يخرج بالقرآن عن نطاق قدسيته
 من الوعظ والارشاد ولفت النظر وبث الهيبة والاستشعار بعظمة الله
 والتزام حدوده إلى مجال البحث وتعريضه لطبيعة هذا المجال من الجدل
 والنقاش والتعارض والاخذ والرد على غير طائل ولا ضرورة ولا اتساق
 مع هدف القرآن وطبيعته .

وبالإضافة إلى هذا الذي يتسق مع الهدف والمضمون والمدى القرآني
 فيما هو المتبادر فإن لملاحظة ذلك فائدة عظيمة لذاتها ، حيث تجعل المسلم
 غير مقيد بنظريات كونية معينة بوجه أنها مستندة إلى القرآن ومستخرجة
 منه - مع ما في هذا دائما من غفلة - وتبقى حراً طليقاً في ساحات العلوم
 والفنون ونظرياتنا وتطوراتها وتطبيقاتها فلا يختلط عليه الأمر ولا يصطدم
 في السير ، ويكون كل ما يجب عليه أن يظل ، من ذلك أن يظل في حدود
 الأسس والاهداف والمبادئ والمثل العليا وفي نطاق أركان الإيمان العامة
 التي قررها القرآن ، وحيث يظل قصد القرآن ومداه ومفهومه سليماً في
 جميع الأدوار ، يخاطب بآياته وفصوله مختلف الفئات في مختلف الأزمنة
 فيشير فيهم الاجلال والهيبة والاذعان سواء كانوا علماء أو بسطاء . وهو
 قصد القرآن الجوهرية من دون ريب .

الحياة الاخرية في القرآن :

ثامناً : ان ما ورد في القرآن عن الحياة الاخرية واعلامها ومشاهدتها وصورها واهوالها وعذابها ونعيمها قد ورد بأسلوب مشجع مع مفهومات السامعين ومألوفاتهم ، ومتناول ادراكهم وحسهم ، وخاصة العرب الذين كانوا اول مخاطبين به ، وانه ورد بالأسلوب الذي ورد به على سبيل التقريب ، واستهدف فيما استهدف إثارة الخوف والرهبة في نفوس الصالحين حتى يروعوا ويستقيموا ، وبث الاغتراب والطأنينة في نفوس المؤمنين الصالحين حتى يشبثوا في الطريق القويم الذي اهتدوا اليه .

وحكمة هذا واضحة هي الاخرى ، فالقصد القرآني في اصله هو دعوة الناس الى الله وطريق الحق والهدى ، وتخيرهم من الضلال والانحراف والاثم ، وانذارهم وتبشيرهم بالحياة الاخرى التي يوفى فيها كل منهم بما فعل من خير أو شر بما يستحقه . وهذا الأسلوب وسيلة من وسائل تأييد القصد وتدعيمه ، لان ما يراود اثارته في نفوس الناس لا يتم الا اذا جاء بالالوصاف التي يستطيعون ان يحسوها ويدركوا مداها احساساً وادراكاً متصلين بتجاربه ومشاهداته ومألوفاته بطبيعة الحال .

فاذا ذكر في سياق مشاهد يوم الحساب بما فيه من صور مجالس القضاء والحصوم والشهود والاتهام والمخارات الدفاعية والكتب والوثائق المدونة ففي ذلك صور ونبوية مألوفة للسامع يستطيع ادراك مداها والتأثر بها . واذا ذكر ان الجبال تنفت وتصبح كالحباء والعين المنفوش ، والارض تحمل وتذك ، والسماء تنفطر وتنشق ، والكواكب تنتثر وتكدر وتنظف ، والبحار تنفجر ، والعشار تعطل ، والوحوش تعشر

والولدان يصيرون شيئا ، ففي ذلك صور هول لا يمكن للسامع الا ان يتأثر بها ويدرك مداها ، ولا سيما تبدل مشاهد الكون المائلة عظمتها في الذهن واذا ذكر في أوصاف النعيم ما ذكر من جنات فيها انهار جارية ومرمر موضوعة ، وفرش مرفوعة ، وبجالس شراب انيقة ، وظلال وارفة وقطوف دانية ، وولدان مخلصون كالؤلؤ المكنون يطوفون بالاباريق الفضية البراقة الشفافة ، والصكوكوس المزوجة بالكافور والزنجبيل ، وفواكه كثيرة بما تختاره النفوس ، ولحوم طير متنوعة بما تشبهه ، وصعاف الذهب والفضة يتناول فيها اصحاب النعيم طعامهم ، وثياب الحرير والاستبرق والسندس يلبسونها ، وحلى الاثاؤل والاساور الذهبية والفضية يتزينون بها وحور عين كالبيض المكنون يستمتعون بها الخ ، فلا يمكن الا أن يتأثر بها السامعون ويفهموا مداها وتتوق اليها نفوسهم لانها منتهى ما تصبو اليه النفوس والعرب خاصة من نعيم وهناء وجور يعرفون صورها في الدنيا معرفة مشاهدة او استمتاع او سماع . واذا ذكر في أوصاف العذاب ما ذكر من نار حامية شديدة ثمرها كقطع الحطب الضخمة ولهبها كالجبال ، لا ماء فيها الا الحار الشديد الحرارة (الحميم) ولا ظل فيها الا ظل المساكن التي لا تعجب حرارة ويكون الظل فيها كوهج النار ، ولا هواء فيها الا الريح السوم ، ولا شراب فيها الا الفسلين والفساق ، ولا طعام فيها الا الزقوم والضريع ، فان السامعين والعرب خاصة لا يمكن الا أن يتأثروا بها ويفهموا مداها لانها منتهى ما تهلع له قلوبهم وتتكبر منه نفوسهم من عذاب وبلاء متصل وصفها بالمشاهد والمعاني الدنيوية المألوفة او المتصورة لديهم .

واذا كان هناك شيء من الاستثناء مثل انهار الجمر والعسل والابن

ووصف عرض الجنات بعرض السماوات والارض فالاسلوب قوي الدلالة على انه قد جاء في معرض التفتيح والتشبيه بما هو مألوف في كلام السامعين والعرب خاصة وأساليب لغاتهم وخطابهم .

وقد اقتصنا السامع العربي بالذكر لان كثيراً من الاوصاف والالفاظ مما يحمل الدلالة على الحياة العربية والبيئة العربية بنوع خاص ، بل وربما على الحياة والبيئة في الحجاز بنوع اخص . وهذا في ذاته قرينة قوية قاءة على ما نقرره .

ولعل في تنوع الاوصاف والصور والمشاهد القرآنية عن الآخرة واهوالها ونعيمها وعذابها قرينة او دليلا على صواب ما نقرره ، فالبجبال مثلاً في جملة قرآنية تسير سير السحاب ، وفي اخرى تنسف نسفاً ، وفي اخرى كتيب مهبل ، وفي اخرى كالعين المنفوش ، وفي اخرى كالغناء المنشور ، والسما في جملة قرآنية تفتح ابواباً وفي اخرى تشفق ، وفي اخرى تكسف ، والنجوم في جملة تنتثر وفي اخرى تنطس ، والشمس في جملة تنكور ، وفي اخرى تجمع مع القمر ، وبينما السماء تتبدل نوااميسها ومشاهدتها مستقلة عن الارض في جملة ، والارض تدك في جملة تحيل الارض والسماء فتدك دكة واحدة في جملة اخرى ، وتبدل الارض في الارض والسماوات غير السماوات في جملة اخرى كذلك ، الى الخ ، والكافرون في جملة يدافعون عن انفسهم في جملة ، ويوردون متنوع الاعذار في جملة ، ويمجرون انواع الحوار بين بعضهم وبين الملائكة او بينهم وبين الله في جملة لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ولا يتساءلون في جملة اخرى ، وفي جملة ينفخ في الصور وفي اخرى ينقر في الناقور ، وفي جملة لبس الكافرين طعام الا من ضريع وفي اخرى ان

شجرة الزقوم طعام الاثيم ، وفي اخرى ليس لهم طعام من غسيلين ، وفي جملة يحشرون وقد كشف عنهم غطاؤهم واصبح بصرهم حديداً وفي اخرى يحشرون عياً ويسألون الله عن ذلك مع انهم كانوا في الدنيا مبصرين النخ . هذا بالاضافة الى تنوع أوصاف النعم حيث تأتي في بعض الفصول بسيطة متسقة مع الحياة العادية الدنيوية كما في سورة الغاشية بينما تأتي في اخرى في غاية الاناقة والافخامة مع اتصالها بمعاني ومشاهد الدنيا كما في سورتي الانسان والواقعة مثلاً ، وهذا عدا التنوع في الجزئيات حيث تكون للصعاف والاساور في جمل من فضة بينما تكون في اخرى من ذهب ، وحيث يذكر في جملة الحلى الذهبية ، وفي اخرى الحلى الفضية ، وفي اخرى الحلى اللازؤية ، وحيث تشبه الحور العين في جملة بالياقوت والمرجان بينما تشبه في اخرى بالبيض المكنون اي الاولو النخ .

ومع تقريره ان الايمان باليوم الآخر وحسابه ونعيمه وعذابه واجب وانه ركن من اركان العقيدة الاسلامية ، وان حكمة الله في ذلك قائمة في قصد توفية الناس أعمالهم إن خيراً فخيراً وإن شراً فشرأ ، وفي تقرير ان الله لم يخلق الكون عبثاً فان ملاحظة ما قد ناه جوهرية مثل سابقاتها لان من شأنها ان تجعل الناظر في القرآن يتجنب الاستغراق في الجدل حول مشاهد الحياة الاخرية وصورها ، والتورط والتكلف والتزيد في صدد ما يقوم في سبيل المايعيات والحقائق لذاتها ، ويذكر ان هدف القرآن في ما جاء من التعابير والارصاف هو العظة والتنبيه وايقاظ للضائر ليرعوي الضال عن ضلاله ويثبت المهتدي في طريقه بأسلوب يتسق مع تناول احساس الخطاطين وتجاربيهم ومشاهداتهم ومداركهم ومألوفاتهم ويثير فيهم الرهبة من العقابة ، ويتذكر ان ماهية هذه الحياة وحقيقتها

مفيتينان لا يستطيع فهم شيء عنها الا بالاوصاف الدنيوية ، وان حكمة الله اقتضت وصفها بهذه الاوصاف على سبيل التقريب والتشبيه .

واذا كانت الحياة الاخرية ومشاهدها وأوصافها وصورها المتنوعة قد شغلت حيزاً كبيراً في القرآن حتى لا تكاد سورة من سوره تخلو من ذكرها أو الإشارة اليها بشكل ما فان مرد ذلك - على كونه من خصوصيات القرآن - الى ان هذه الحياة من اقوى الدائم الانذارية والتبشيرية القرآنية لاهداف القرآن وأسس دعوته واشدها تأثيراً واثارة لانها تمثل عالم ما بعد الموت الذي لا يكاد يخلو إنسان في أي دور من استشعار الرهبة منه من جهة ، ومن العقائد الايمانية الاسلامية من جهة ، ولانها كانت من المواضيع الرئيسية أو بالاحرى أهم موضوع دار حوله الجدل بشدة واستمرار بين النبي ومشركي العرب بما له صلة بظروف الدعوة النبوية من جهة .

- ٩ -

ذات الله في القرآن :

تاسعاً : ان ما ورد في القرآن بما يتصل بذات الله السامية من تعابير اليد والقبضة واليمين والشمال والوجه والاستواء والنزول والجهي وفوق وتحت وأمام وطي وقبض ونفخ ، اغماجاء بالأسلوب والتعابير والتسميات التي جاءت به من قبيل التقريب لأذهان السامعين الذين اعتادوا أن يفهموا منها معاني القوة والاحاطة والشمول والحضور والحركة الدائمة والصفات التي لا تم هذه المعاني إلا بها .

ولقد ورد في القرآن عبارات « ليس كمثل شيء » و « لا تدركه الأبصار » و « لا يحيطون بشيء من علمه » يصح أن تكون ضوابط

حاسمة في صدد الذات الالهية ، وتنطوي على قرينة على صحة ما ذكرناه آنفاً في مدى تلك التعابير . ولعل هذه الضوابط تشمل كل ما ورد في صدد الذات السامية من اسماء وأفعال وصفات أخرى قد توم بمائة لاسماء وصفات وأفعال البشر أيضاً ، حيث يصح ان يقال إن ورودها في القرآن اذا جاء كذلك على سبيل التريب والتشبيه . فانه مسموع ولكن ليس كمثل مسمعه شيء ، وبصير وليس كمثل بصره شيء ، ومكلم وليس كمثل تكلمه شيء ، وهو حي وليس كمثل حياته وعلمه وإرادته وقوته وحكمته وصبره وقبضه وبسطه شيء .

والمتمعن في الآيات القرآنية التي وردت فيها تلك التعميمات وهذه الاسماء والصفات مضبوطة أو مسبوقة مسبقاً بما قد استهدفت من جهة تقرير معاني القوة والاحاطة والشمول والقدرة والوجود الدائم الشامل ، ومن جهة أخرى تقرير احسن الاسماء والصفات الدالة على اكمل الحالات واتم المعاني الثلاثة بالذات الالهية بما تنسج له لغة البشر التي نزل القرآن بها . ولعل التنوع الموجود في التعابير القرآنية بما يقوم قرينة قوية على صحة ما نقرره .

وملاحظة هذا مهمة جداً من شأنها ان تحول دون استغراق الناظر في القرآن في التكلف والتجوز والتخمين والمأهيات من جهة ، ودون تورطه في الجدل الكلامي على غير طائل ولا ضرورة من جهة أخرى ، وتجعله يقف من هذه التعابير والاسماء والصفات عند الحد الذي وقف عنده القرآن ، ويفهم منها الاهداف التي استهدفت تقريرها بها دون تزييد ولا تكلف ولا تمحل .

على أن الناظر في اساليب القرآن المتنوعة يجدها في هذا الصدد كما هو الشأن في ما يتصل بشاهد الكون والآخرة واخبار الامم السابقة وأنبيائهم والجن والملائكة أسلوب الحكيم الذي لا يدخل في نقاش وجدل وتقارير كلامية ، ويتسق مع طبائع الاشياء من حيث انه يخاطب اناسا متفاوتين متنوعين في اذهانهم وظروفهم ، المهم والجوهري من أمرهم دعوتهم الى الخير واصلاحهم وتوجيههم الى احسن الوجهات ، وتقريب الامور والمعاني الى عقولهم بأساليب سائغة منسجمة مع مداركهم ، واعطاء كل موضوع في كل موضع ما يتعمله لتدعيم هذه الدعوة وتأييدها وجعلها مؤثرة نافذة ، وفي ذلك من دون ريب تعليم للطريقة الفضلى التي يجب الاخذ بها ازاء التعابير والاساليب القرآنية .

- ١٠ -

تسلسل الفصول القرآنية وسياقها :

عائراً : إن اكثر الفصول والمجموعات في السور القرآنية متصلة السياق ترتيباً أو موضوعاً أو سبكاً أو نزولاً ، وان فهم مداهم ومعانيها وظروفها الزمنية والموضوعية وخصوصياتها وعمومياتها وتلقيها وتوجيهها وأحكامها فيها صحيحاً لا يتيسر إلا بملاحظة تسلسل السياق والتناسب ، وان في اخذ القرآن آية آية أو عبارة عبارة أو كلمة كلمة بترأ لوحدة السياق في كثير من المواقف والمواضع ، وهو مؤد الى التشويش على صحة التفهم والتدبر والاحاطة أو على حقيقة ومدى الهدف القرآني .

ولتمثيل ذلك وإيضاحه نذكر آية الصافات (٩٦) « والله خلقكم وما تعملون » فهذه الآية كثيراً ما تورد في معرض الحجاج والبرهنة في بعض المذاهب الكلامية على أن القرآن ينص على أن الله قد خلق اعمال

الناس ، وبطلان القول الذي يقوله بعض المذاهب الكلامية الاخرى بأن الانسان خالق افعال نفسه ومسئول عن تبعاتها . فبقطع النظر عن هذا الموضوع الكلامي الخلافي فأت الذين يوردون الآية في معرض الججاج والبرهان فلما يلاحظون أنها ليست تقريراً ربانياً مباشراً في حدود خالق الناس وخالق اعمالهم ، وبالتالي في حدود الموضوع الكلامي ، وإنما هي جزء من سلسلة تتضمن حكاية قول ابراهيم لقومه في سياق التنديد بهم ، لأنهم يعبدون ما ينعتون من الاصنام مع ان الله كما خلقهم خلق المادة التي يعملونها أي ينحتونها اصناماً ايمبدوها ، وهي السلسلة ٨٣ - ١١٣ من السورة . فالآية هي جزء من حكاية أقوال ابراهيم ، ولو لوحظ السياق جميعه لما كان هناك محل لاقطاع هذه الآية وحدها من السلسلة وتلقيها كتقرير رباني مباشر بخلق اعمال الناس ، كما ان من الواضح مع ملاحظة جزئية الآية من السلسلة أنها لا تصح ان تورد في معرض البرهان الذي تورد فيه ، هذا بقطع النظر عما ورد في السلسلة نفسها من نسبة العبادة والنحت والالقاء واردة الكيد الخ الى قوم ابراهيم وتقرير صدور هذه الاعمال عنهم . . .

ونذكر جملة « وقالوا المشركين كافة ، في آية التوبة (٣٦) فكثير من المفسرين يفسرونها منفردة ويصفونها بأنها آية السيف ويقولون إنها نسخت كل ما جاء في القرآن من عدم قتال غير المعتدين والمقاتلين من المشركين ، وبذلك ينسفون آيات محكمة في هذا الصدد ، مع ان في الآية فقرة أخرى مرتبطة أشد الارتباط بها ومحتوية لتعليل الرائع المعقول المتسق مع طبيعة الامور للامر الذي تضمنته بقتال المشركين كافة وهي « كما يقالونكم كافة » فلو لوحظ ذلك ولم تجزأ الآية لما كان محل لذلك

التفسير والوصف والقول حيث يبدو واضحا أنها في معرض حث المسلمين على قتال المشركين المحاربين مجتهدين وإلبا واحدا كما يقاتلونهم كذلك ولزال الاشكال الذي ينشأ عن هذا التفسير ويؤدي الى نسخ احكام وايات محكمة متصلة مع مبادئ القرآن ومثله السامية ، ومع طبائع الامور ووقائع السيرة النبوية المؤيدة بالآيات من جهة والاحاديث من جهة أخرى ونعني حصر القتال في الاعداء المقاتلين او المعتدين دون المشركين والكفار المعاهدين الموفين بعهدهم والمحايدين والمسلمين والمعاجزين والنساء والاطفال فما يقتضي قتالهم جميعا وفاق ذلك التفسير .

ونذكر آية المجادلة الثالثة كمثل ثالث ، وهي التي جاء فيها « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا » فكثير من المفسرين ينظرون الى هذه الآية مستقلة عن سابقتها ويحارون في تأويل جملة « ثم يعودون لما قالوا » حتى قال غير واحد منهم ان الجملة من مشكلات القرآن ، واضطروا الى اعتبار « لما » بمعنى « عن ما » وقالوا ان الجملة تعني « ثم يرجعون عن ما قالوا عنه » ويرغبون في معاينة ازواجهم ، او الى تأويلات أخرى ، هذا مع ان هذه الآية متصلة كل الاتصال بسابقتها التي جاء فيها (الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن امهاتهم ان امهاتهم اللاتي ولدنهم وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا وان الله لعفو غفور) . فلو لوحظ ذلك لما كان هناك محل لهذه الحيرة والاشكال والتأويل . فالآية الاولى نددت بالمظاهرين والظهار وعدته محرما منكرا ثم انتهت بقطع (وان الله لعفو غفور) فكأنما تقدمت باستنكار الظهار من حيث المبدأ وتقرر أن الله يعفو ويفقر للظاهرين قبل نزول هذا الاستنكار وبالتالي قبل نزول الايتين على اعتبار انه لم

يكن مستكراً ومنياً عنه ثم اعقبتها الثانية لتقرر الحكم الاسلامي فالذين يعودون الى ما نهوا عنه واستنكر اي الظهار بعد ذلك الاستنكار والوصف تجب عليهم الكفارة قبل معاينة أزواجهم لانهم يكونون قد أتوا بعمل هذه القرآن منكراً وذوراً . وطبيعي ان الحكم الاسلامي صار حكماً لازماً لكل مظاهر وان الغفوة عن المظاهر ظل خاصاً بمن ظاهر قبل نزول الآية الاولى وهي حالة خصوصية الزمن لا تتكرر . ولقد احتوت السورة نفسها نفس الحروف في الآية (٨) التي جاء فيها (ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول ، واذا جاؤوك حيوك بما لم يحبك به الله ويقولون في انفسهم لولا يعبئنا الله بما نقول حسبهم جهنم بما عملوا وبئس المصير) حيث يأتي المعنى فيها واضحاً بأن العودة هي لانهي عنه وان الوعيد هو للعائد الى التناجي بعد النهي عنه ، ولا فرق بين الجلتين كما هو ظاهر .

وهناك أمثلة كثيرة اخرى بالنسبة لايات وارودة في السور الطويلة والمتوسطة مما نهى عنها في سياق التفسير . فبينما تكون المجموعة او الفصل القرآني مفهوماً سائفاً يبدو عليه الانسجام والترابط التامات سبباً وموضوعاً اذا قرئ . ونظر فيه ككل اضطرب على الناظر في القرآن فهمه وقامت في ذهنه بلبلة او مشكلة او حيرة في مداه ومدلوله إذا اخذه آية آية او عبارة عبارة .

وبما يجدر التنبيه عليه في هذا المقام ان هناك روايات كثيرة تورد كأسباب لنزول آيات منفردة او جزء من آية في حين ان سياق الآية ومفهومها لا يتفقان مع الرواية كسبب للنزول ، وبلهان ان الآية منسجمة

الأجزاء ، وأنها متصلة اتصالا وثيقا بما قبلها أو بعدها في السياق ، وكل ما يمكن فرضه في امر الرواية في حالة صحتها أن تكون الآية أوردت على سبيل الاستشهاد على حادث ما وقع بعد نزولها ، أو يكون الحادث قد وقع قبل نزولها بمدة ما فجاءت الإشارة اليه في السياق العام الذي أنت فيه الآية على سبيل التشريع أو التذكير أو التنبيه أو التوبيخ أو العظة الخ ، فالتبس الامر على الراوي وظن ان الحادث هو سبب النزول . فقد روي مثلاً عن ابن مسعود قوله : « لما امرنا بالصدقة كننا نتعامل فجاء ابو عقيل بنصف صاع وجاء انسان بأكثر منه فقال المنافقون ان الله اغني عن صدقة ذلك وإن ما فعله الآخر ليس الا رياء ، فنزلت » الذين يلزمون المطرعين من المؤمنين بالصدقات والذين لا يجهدون الا جهدهم فيسخرّون منهم يسخر الله منهم ولهم عذاب أليم . التوبة ٧٩

فهذه الرواية توهم ان الآية نزلت منفردة بسبب هذا الحادث مع انها متصلة بسياق عام سابق ولاحق بها أشد الاتصال ، وان في السياق قرائن تدل على ان الفصل الطويل الذي تقع فيه هذه الآية (٣٨ - ٩٩) قد نزل كاه أو جله في أثناء غزوة تبوك وظروفها وسببها .

وهناك رواية اخرى في البخاري عن ابن مسعود أن رجلين من قريش وختنا لهما من ثقيف كانوا في بيت فقال بعضهم لبعض أترون ان الله يسمع حديثنا قال بعضهم يسمع بعضه وقال بعضهم لئن كان يسمع بعضه لقد يسمعه كله فنزلت الآية « وما كنتم تستترون ان يشهد عليكم سمعكم ولا ابصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون » . فصلت ٢٢

مع ان الآية متصلة بسياق يحكي فيه محاوراة في الآخرة بين الكفار

وبين اعضاء ابدانهم التي تشهد عليهم اشد الاتصال وليس هناك تطابق ما بين مفهوم الرواية وعبرة الآية .

والفصول الاولى من سورة النساء من موارد وأنكحة مترابطة ومنسجمة ، والآية الاولى في السورة بمثابة براءة استهلال لما تضمنته من هذه الفصول ، وروح آيات الفصول يلهم أنها وحدة تشريعية ، في حين أن هناك روايات تكاد تجعل لكل آية مناسبة نزول مستقلة ونوم ام انزلت منفردة بسببها . ويقال هذا في فصول سورة الحجرات ايضا . وامثال ذلك كثيرة جداً نبهنا عليها في سياق التفسير .

فملاحظة السياق والتناسب والترابط بين الفصول والمجموعات القرآنية ضرورية ومفيدة جداً في فهم مدى القرآن ومواضيعه وأهدافه من جهة وفي لمس ناحية من نواحي الروعة والاعجاز والاتقان فيه ، لانها يظهران الناظر في القرآن على ما هو عليه من ترتيب وانسجام وترابط نظماً وموضوعاً من جهة ثانية ، وعلى نقاط الضعف في روايات كثيرة وردت في سياق الايات القرآنية وخاصة في مكية بعض الايات في السور المدنية ومدنية بعض الايات في السور المكية من جهة ثالثة ، وتربلات ما هو عالق في الذهن خطأ من ان الفصول القرآنية فوضى لا ترتيب ولا انسجام بينها من جهة رابعة .

ومن فوائد هذه الملاحظة المهمة إزالة وهم التعارض والتناقض في نصوص القرآن وتقرير انه المتكررة بأبواب متنوعة حسب المواقف والمناسبات وخاصة في القصص والمواعظ والانتذار والتبشير والمشاهد الكونية والاخرية ، وبنوع أخص في عبارات وجلل المدابة والضلال والكفر والايمان وتزيين الاعمال والطبع على القلب وتسليط الشياطين

والاغواء ومستولية الانسان عن عمله وحكمة الله في عدم خلق الناس أمة واحدة الخ ، ففي تدبر سياق كل مناسبة وكل جملة قرآنية من هذا القبيل يمكن أن يلمح الناظر في القرآن حكمة ودوره كل منها بالاسلوب الذي وردت به والمناسبة التي جاء فيها والمعنى الذي أريد منها والمهدف الذي استهدفه ، وكل هذا قد يكون متنوعا بتنوع المواقف والاساليب والمضامين والسياق ، فيطمئن بسلامة المعنى وحكمة النص الوارد في السياق الذي ورد فيه ، ويؤول وهم التعارض والتناقض وما يؤدي اليه من الحيرة أحيانا ، ويجعل عليه من التكاليف والتجوز والتخريج والجدل على غير ضرورة ولا طائل وعلى غير انساق مع المهدف القرآني ونطاقه . فأنت مثلا إذا اخذت جملة « يضل من يشاء » ويهدي من يشاء » في آية فاطر (٨) وجملة « كذلك يضل الله من يشاء » ويهدي من يشاء » في آية المدثر (٣١) وقعت في حيرة لان هناك آيات كثيرة جاء في بعضها « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . . » الكهف ٢٩ وفي بعضها « قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها . . » يونس ١٠٨

ولكنك إذا قرأت سياق آيتي فاطر والمدثر «وحدة (٣ - ١٠ فاطر) و (١ - ٣١ المدثر) ظهر لك المعنى سائغاً مفهوماً ، وبدالك أنهما استهدفنا فيما استهدفناه التنديد بالكافرين والضالين والحلة عليهم من جهة والتنويه بالمؤمنين الصالحين وطمينتهم وتبشيرهم من جهة ونسلية النبي فيما ألم به من حزن وحسرة على مكابرة الكافرين وعنادهم من جهة ، بل ظهر لك أن تلك المعاني التي تقررها آيات الكهف ويونس منطوية في نفس سياق جلتي سورتي فاطر والمدثر حيث احتوى سياق آية فاطر « يا أيها

الناس إن وعد الله حق فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير . الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير . أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . وحيث احتوى سياق آية المدثر : إنما لأحدى الكبر . نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر . كل نفس بما كسبت رهينة ، . ويطرد هذا في امثال كثيرة مثل آية البقرة (١٦) مع سياقها وآية النحل (٩٣) مع سياقها وآية القصص (٥٦) مع سياقها وآية يونس (٩٩ - ١٠٠) مع سياقها الخ بما عليه في التفسير عند مناسباته .

وأنت اذا اخذت مثلاً جملة : إنما جعلنا على قلوبهم أكمة أن يفقهوه وفي اذانهم وقراً وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا ابداً ، في سورة الكهف الآية ٥٨ لخدمتها وجدت نفسك امام مشكلة محيرة لانها توهم ان الله قد صرف الكفار عن فهم القرآن والتأثر به وحتم عليهم عدم الاجابة والاهتداء ، ولكنك إذا تدبرت سياق الآية جميعه (الآيات ٤٥ - ٥٩) بل اول الآية التي وردت فيها ظهرك قصد وصف مكابرة الكفار وعنادهم والتسليمية عن النبي ازاء هذه المكابرة والعناد . ويطرد هذا كذلك في امثال كثيرة كآيات هود ١١٨ والرعد ٣١ والبقرة ٧ ويس ٩ وسياقها . ونقول امستطراداً إن هذه الامثلة قد كانت موضوع أخذ ورد وجدل في كتب التفسير بسبب صلتها بالموضوع الخلافى الكلامي في صدق فعل الانسان وكسبه وارادته ، حيث ذهب فريق الى ما يفيد ان الانسان مجبور على انعاله وانها محتمة عليه في الازل لا معدى له عنها ولا اختيار له فيها من كفر وإيمان وفساد وصلاح وشروخير ، وان العقاب والثواب

بنالان الناس ببعض مشيئة الله وفضله ، ولا صلة ولا اثر لامعالمهم فيها في حقيقة الامر ، وحيث ذهب فريق اخر إلى ما يفيد أن الانسان خالق أفعال نفسه فيؤمن ويكفر ويفسق ويصلح بإرادته واختياره ، وإن الله لا يصح عليه إرادة الكفر والفسق من العبد ولا تقديرها عليه ، بل ولا يصح ان يكون مريداً للقيح وأنه يجب عليه الاصلاح لعباده ، وأن الانسان يعاقب ويثاب على أفعاله حقاً وعدلاً ، وحيث توسط فريق فذهب إلى ما يفيد أن الله هو خالق أفعال عباده من كفر وإيمان وعصيان وطاعة ومنكرات ومصلحات ، وكل إرادته ومشيئته وقضائه وتقديره في حدود عموم تأثير صفاته الإزلية ، وإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء بمعنى خلقه الضلال والهدى ، وأنه لا يجب عليه الاصلاح ، وقرروا مع ذلك للانسان فعلاً اختيارياً يثاب عليه إذا كان طاعة وصلاًها ويعاقب عليه إذا كان معصية وفساداً ، وقالوا ان معنى ان الله أراد من الكافر كفره ومن الفاسق فسقه ومن المؤمن إيمانه ومن الطائع طاعته أنه أرادها باختيار الناس وكسبهم ، وتشاد الجميع حول هذه المواضع كل يؤيد رأيه ويرد على رأي الآخرين بأساليب جدلية من جهة وعبارات قرآنية من جهة أخرى مقتطعة من آيات أو سياق دوت تدبر في بقية الآية أو السياق ، ويؤول ما هناك من نصوص تناقض رأيه في ظاهرها ولا تتسق معه على ما هو مبسوط في كتب المتكلمين المسلمين على اختلاف مذاهبهم .

والموضوع في أصله أي كون الانسان مخيراً أو مسيراً عويص وموضوع جدلي عام لا ينحصر التشادحوله في المذاهب الاسلامية الكلامية وله جبهات متنوعة ولا يدخل التبسط فيه في موضوع هذا الكتاب ، غير ان المقام يتعمل بعض القول بسبب ما احتواه القرآن من آيات

كثيرة جداً اتخذها علماء المذاهب الكلامية الإسلامية مستنداً لمذاهبهم
 المختلفة في هذا الموضوع. ومع أن من المسلم به أن النصوص القرآنية هي
 سند رئيسي في الدلائل والشرائع والأحكام الإسلامية فالذي نعتقده أن
 الناظر في الآيات القرآنية إذا أخذ المجموعة القرآنية وحدة ولم يقل سباقها
 وظروف نزولها وهدفها ، ولم يقطع منها الجمل وينظر فيها على حدة كما
 يفعل أصحاب المذاهب الكلامية في تشاؤم ومجادلاتهم فيما بينهم - وهذا
 هو موضوع هذا المبحث في الأصل - يستطيع أن يتبين أهداف القرآن
 في العبارات الواردة تبيناً يزول معه من نفسه ما قد يقوم من وهم التعارض
 والتناقض في آياته ، والقرآن يري من التعارض والتناقض بنص صريح
 فيه جاء في آية النساء ٨٢ وأفلا يتدبرون القرآن ولو كانت من عند غير الله
 لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً . ويجد حلاً لما يبدو من إشكال وتعليل
 سائلاً لما يورم ظاهرة من معان متعارضة فيه ، ويظهر له أن كثيراً مما دار
 ويدور من جدل ونقاش وحجاج وخلاف لا تتعمله عبارات القرآن
 ولا تقتضيه ، وليس من ورائه طائل ولا ضرورة . وإن هذه العبارات
 ليست في صدد هذه التقريرات الكلامية ، وفي الأمثلة التي أوردناها دلائل
 كافية ، وهي مطردة في سائر فصول القرآن ومجموعاته التي وردت
 أمثالها فيها ، ثم يجد وهذا مهم جداً - أن النصوص والأهداف القرآنية
 تجري في مدى هداية الناس ودعوتهم إلى الخير وأصلاحهم وتوجيههم إلى
 أفضل الجهات وانفعها ، والتنويه بالمستجيبين المهتدين الصالحين المتقين
 المحسنين وتبشيرهم وتطمينهم. والتحذير من الفساد والاثم والفاحشة وإنكار
 الله ووحدته وكمال صفاته والتدبير بالضالين الآثمين المذنبين المنساقين
 الظالمين وإنذارهم ، ولا تجري في أي حال في مجرى التقريرات الكلامية

التي بدور حولها الخلاف والجدل المذهبي ، وهذا هو أسلوب الحكيم الذي يعلمنا آياه القرآن في جميع الامور ، المتسق مع طبائع الاشياء وحقائقها ونعني كون القرآن يخاطب بشراً معروف على انهم ذرو قابليات وكسب واختيار ، وان لهم أثراً فيما يصدر عنهم من اعمال واقرار ومواقف وفقاً لما غلبه عليهم عقولهم وميولهم ومداركهم وتقديراتهم ومنافعهم وظروفهم الخاصة والعامة ، وانهم متفاوتون في كل هذا وانهم ذرو تميز للغير والشر والحسن والقيبح في نطاق تلك العقول والميول والمدارك والتقدير والمنافع والظروف والقابليات المتفاوتة ، وان المهم في الامر هو دعوتهم الى الهدى والخير واخراجهم من الظلمات الى النور وانقاذهم من الضلال واثارة نفوسهم وايفاظ ضمائرهم ، ونبشير المستجيبين والنداء المكابرين وارشاد الضالين الجاهلين منهم ، وان من الممكن ان تؤثر فيهم الدعوة فيستجيبوا تسليماً واذعاناً وادراكاً او خوفاً وطعماً ورغبة ورهبة وان الانحراف عن هذا النطاق والمدي الى الجدل في ما وراء ذلك تكلف وتجاوز وبعد عن مقاصد القرآن وأهدافه ، ومؤدية الى البلبلة والحييرة والنشويش على هذه المقاصد والاهداف وعلى الراغبين في تفهم القرآن والناظرين فيه .

- ١١ -

فهم القرآن من القرآن :

حادي عشر : ان الاوثق والاوكد والوسيلة الفضلى لفهم هدى القرآن ودلالاته وتلقيحاته بل وظروف نزوله ومناسباته تفسير بعض القران ببعض ، وعطف بعضه على بعض ، وربط بعضه ببعض كلما كان ذلك ممكناً لفة أو مدلولاً أو حادثاً أو منامية أو سبكاً أو حكماً أو موقفاً أو

تقريراً ، وسواء ذلك ما يدخل في نطاق الاسس والاهداف أو الوسائل والتدعيمات . وامكانيات ذلك قائمة على نطاق واسع في مختلف فصول القرآن المكية والمدنية . فان القرآن يكاد يكون سلسلة تامة يتصل بعضها ببعض أوثق اتصال في ما يمثل من ادوار السيرة النبوية في عهدها كما ان من شأن عباراته وجمله وأحكامه ومشاهدته وقصصه ومواعظه وحججه ان يفسر بعضها بعضاً وان يدعم بعضها بعضاً .

وفائدة هذه الملاحظة عظيمة كما يتضح عند التدبر ، حيث يمكن ان تغني الناظر في القرآن عن الفروض والتكلف والتخمين ، وتحول بينه وبين التورط في مرممات التعارض والاشكالات اللغوية وغير اللغوية . وكثيراً ما تساق على تمييز القوي من الضعيف والصحيح من الباطل من الاقوال والروايات الواردة في تفسير كثير من الايات أو في مناسبات تزولها وأسبابها . وهذا باب واسع الشمول والمدي . وانضرب مثلاً لذلك آية وردت في سورة الانعام جاء فيها « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شريفاً لست منهم في شيء » انما امرهم الى الله ثم ينبتهم بما كانوا يفعلون ١٥٩ فقد قال غير واحد من المفسرين وعلماء المذاهب اقوالاً يستفاد منها ان الآية قد احتوت أخباراً غيبية بما نجم بعد النبي من خلافات ومنازعات وفرق وشيع وبدع الخ ، في حين انه جاء في سورة الروم جملة مثلها مسبوقة بجملة فيها صراحة بأنها تعني المشركين كما ترى « منيبين اليه وانفوه واقصوا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون . ٣١ - ٢٢ »

فلو لوحظ هاتان الايتان وربط بينها وبين آية الانعام لما كان محل لتلك الاقوال التي تبدو فيها رائحة ما نجم من تلك الخلافات والمنازعات

والفرق والشيع والبذع بعد وفاة النبي بسنين قليلة ، بل لوحظ سياق اية الانعام على ما نهينا عليه في المبحث السابق وخاصة الايتين ١٥٥ - ١٥٦ لظهور انه احتوي تنديداً بالمشركين وموافقهم من الدعوة والقران ولبدا الانساق واضحا بين آيات السورتين القرآنيتين ولما كان محل لتلك الاقوال ايضا ؛ ومن الامثلة التي تساق في صدد المبحث الحالي ما روي عن ابن عباس في الآية : « واذا قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففشق عن امر ربه فقتلوه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا . الكهف ٤٩

وهو قوله ان الجن طائفة من الملائكة وان النسبية من الاختفاء الذي يشمل الملائكة كما يشمل الجن ، وهذا في حين ان الآية جمعت بين الملائكة والجن على اعتبارهما خلقين مستقلين ، وان هناك آيات قرآنية عديدة حكمت قول ابليس انه مخلوق من النار . واخرى قررت ان الجن قد خلقوا من النار ، فملاحظة هذا الاشتراك تظهر عدم صحة الرواية لان هذا ليس بما يمكن ان يخفى عن ابن عباس الذي يوصف بما يوصف به من سعة العلم وقوة الذكاء والاحاطة بالقران ، وتساعد على القول الحامم في جنية ابليس في النصوص القرآنية .

ويمكن ان تساق الآيات التي نصت على ان الله عدي من يشاء وبضل من يشاء ، ولا نريد ان نكرر ما قلناه قبل قليل في هذا الامر . ولكننا نريد ان ننبه على ان في القران آيات من هذا الباب فيها ايضاح من شأنه ان يضع الامر في نصاب الحق بالنسبة لاطلاق العبارة في آيات اخرى . ففي سورة البقرة : « يضل به كثيراً وعدي به كثيراً وما يضل به الا الفاسقين . ٣٦ » وفي سورة الرعد : « قل إن الله يضل من يشاء وعدي اليه

من انا ب . ٢٧ ، وفي سورة ابراهيم « ثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء . ٢٧ » فهذه الايات حينما تلاحظ اثناء تلاوة وتفسير الايات التي جاءت عبارتها مطلقة وتفسر بها يزول كل ما يدور حول هذا الموضوع الكلامي من اسباب الجحاج والنقاش ويبدو قصد تفرير كون هدى الله انما يكون لمن استدار قلبه وحسنت نيته ورغب في الانابة الى الله ، وكون الضلال انما يكون للظالمين والفاسقين وأردباء النية والخلق ، وكون الهدى والضلال منوطين بحسن نوايا الناس وسوئها والرغبة في الانابة الى الله والمسايرة فيها ، ويسوق الناظر الى التماس سبب مجيء العبارة مطلقة في الايات التي جاءت فيها مطلقة في اسلوبها وسياقها على ما ذكرناه قبل .

ويمكن ان تساق اية الشورى هذه كمثل آخر :

« ذلك الذي يبشر الله عباده الذين امنوا وعملوا الصالحات قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ان الله غفور شكور .

٢٣

فان بعض المفسرين وخاصة مفسري الشيعة فسرروا الآية على انها تفيد ايجاب محبة اقارب النبي الاذنين والبرهم وطاعتهم ، في حين ان هناك ايات قرآنية عديدة (١) امرت النبي بالقول انه لا يسألكم اجرا دون أي استثناء . فملاحظة ذلك تجعل الناظر في القرآن يحمل ما جاء في اية الشورى من استثناء على محمل اخر يبعد عن القرآن وم التعارض ، وينزه الله ونبيه عن تقاضي الاجر على هداية الناس وايجابه بالنسبة لذريته او اقاربه الاذنين ، ولا يتورط في تأويل يؤيد الاستثناء والاجر

(١) آيات يوسف ١٠٤ والمؤمنون ٧٧ والفرقان ٥٧ وسبأ ٤٧ وص ٨٦ والقلم ٤٦

الذين بشيوان حيرة وإشكالا . هذا بقطع النظر عن ما في ذلك التفسير من قمل ونجوز لا يتحملها مضمون الآية ، وعن ما هنالك من رواية مأثورة عن ابن عباس في صدها فجعلها متسقة كل الاتساق مع النصوص القرآنية الأخرى وتفيد ان قصد الآية تقرير كون حرص النبي على هداية قومه لا يمكن ان يتم لانه لا يطلب عليها اجراً وكون مرد هذا الحرص هو ما بين النبي وقريش من أوشاج القربى حيث لم يكن بطن من بطون قريش الا وبينه وبين النبي قرابة . وهناك تأويل آخر جاء في تفسير ابن كثير المشهور وهو ان الآية بمعنى أفي لا اريد منكم شيئا الا ان تحرموا قرابتي لكم وتوادوني من أجلها وتكفوا عن الأذى والصد والتعطيل وهو تأويل وجيه ومتسق مع روح القرآن واللغة . وننبه على أننا هنا في صده فهم نصوص القرآن واسنا في صده نفى واجب المسلمين في بر ومودة الصالحين الاتقياء الذين ليست نسبتهم الى بضعة الرسول محل شك وريب من اجل هذه النسبة الشريفة الكريمة .

ومن فوائده ملاحظة ما هو موضوع هذا البحث أنها تساعد على معرفة الناسخ والمنسوخ وصور التطورات المتنوعة في سير الدعوة النبوية والسيرة النبوية والتشريع القرآني . فآيات النساء ١٥ - ١٦ مثلاً تشير الى جريمة الزنا وتعين نصاب شهود ثبوتها ولكنها لا تعين حداً وتكتفي بالامر بامساك النساء في البيوت واذية الزناة بعبارة مطلقة ، في حين ان آية سورة النور الثانية تعين حداً للزانيين والزانيات مثلاً جلدة . فملاحظة آيات النساء والنور معاً في النظر والتفسير تساعد على معرفة كون آيات النساء قد نزلت قبل آيات النور ، وأن آيات النور هي المحكمة في جريمة الزنا دون آيات النساء ، وان في نزول آيات النور بعد آيات النساء تطوراً

في التشريع القرآني . وفي آية النساء (٢٥) جملة تنص على ان حد الاماء المحصنات (المتزوجات) اذا زنين هو نصف حد الحرائر المحصنات وهم هذه ، فاذا احصن فإن اتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، فملاحظة آية النور في تفسير هذه الجملة تساعد على معرفة ان هذه الجملة نزلت بعد آيات النور ، بعكس الآيات السابقة حيث نزلت آيات النساء قبل آيات النور ، وانما وضعت في محلها للتناسب الموجود في سلسلة احكام الانكحة والامرة والمواريث الواردة في سورة النساء ؛ وتساعد كذلك على معرفة صورة من صور التأليف القرآني : كذلك اذا قرأنا آيتي سورة المنافقون هاتين « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزانة السماوات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل والله العزة لرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون . ٧ - ٨ » ثم قرأنا آيتي سورة الزوبة هاتين : « ويخافون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون مائداً او مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمعون . ٥٦ - ٥٧ » . استطعنا ان نتبين من ملاحظة آيات السورتين ان المنافقين في المدينة كانوا في أوائل العهد المدني معتدين بقوتهم ومالهم ومركزهم بينما صاروا في أواخر هذا العهد الى حالة الخوف والضعف ؛ وان نلصق صورة تطورية من صور السيرة النبوية ، وان نحكم على تهافت الرواية التي ذكرت ان معسكر المنافقين عند الاستعداد لغزوة تبوك كان يعادل في سمته وعدده معسكر المؤمنين المحلصين .

والامثلة في هذا الباب كثيرة جداً ومنبثة في السور والفضول القرآنية

مكيها ومدنيها نبينا عليها في التفسير . وهذه الكثرة تظهر فائدة هذه الملاحظة في حسن فهم القرآن وتفسيره كما هو واضح .

- ١٢ -

ولا ادعي بأن هذه الملاحظات جديدة وغير مسبقة ، ففي الاتقان للسيوطي لنفسه ولغيره من العلماء والمؤلفين نبذ عديدة في شروط التفسير وأصوله احتوت غير واحدة من هذه الملاحظات ، كما ان كثيراً من العلماء والباحثين والمفسرين نبهوا عليها بأساليب متنوعة ، ومنهم من فعل ذلك في مقدمات كتبهم التفسيرية او في ما كتبوه عن القرآن من كتب خاصة بل ومنهم من سار عليها قليلا او كثيراً غير أنني لم أر في ما تبسر لي من الاطلاع عليه من كتب التفسير (١) العديدة القديمة والحديثة أن هذه الملاحظات قد لوحظت جميعها معا في تفسير واحد ، وان صح القول إنها لوحظت متفرقة وبسعة او ايجاز حيث يمكن ان يكون مفسر لاحظ بعضها وسار عليه واخر لاحظ بعضها وسار عليه مع ان ملاحظتها جميعا والسير وفقها جوهري جداً فيما اعتقد لهم القرآن فيها صحيحاً وخدمته خدمة فضلى ، هذا مع اعترافي بالتقصير إزاء ما احرزه الذين بحثوا في القرآن

(١) من كتب التفسير التي اطلعت قراءة او تصفحا على جميع او بعض أجزائها التفسير الميزان الى ابن عباس رواية أبي صالح وباب التفسير في البخاري وتفسير الطبري والنسفي وأبي السعود والطوسي والحازن والرازي والزمخشري والطبرسي والبيضاوي والجوهري وفريد وجدى ورشيد رضا والالوسي وابي حيان وابن كثير والبنوي والقرطبي والمراغي والمادلي .

وعلموه وألقوا فيه وفسروه قديما وحديثا من علم واطلاع وتمكن وبممارسة
طويلة وتفرغ أطول وخاصة في علوم الصرف والنحو والبلاغة واللغة
وأصول الفقه والحديث والرواية والخلافات المذهبية والكلامية ؛ ومع
اعترافي بالمجهود الذي بذله كل منهم في خدمة القرآن وتفسيره ؛ وما
لكثير من كتب التفسير من خصوصيات مفيدة إما من حيث الاسهاب
والإيجاز أو من حيث اللغة والبلاغة ، والفوائد النحوية والصرفية ، أو
من حيث التنويه بالمعاني والقضايا وتفريعاتها ، أو من حيث الأحكام
واستنباطها ، أو من حيث إبراز ما في القرآن من إشراق وبعده مدى
وقوة تلقين وتوجيه ، أو من حيث روايات المناسبات وأسباب النزول
والناسخ والمنسوخ ، أو من حيث التعليق على ما فيه من قصص
وإيضاحها ، أو من حيث شرح المذاهب الكلامية والفقهية وجدلياتها .

الفصل الرابع

نظرات وتعليقات على كتب المفسرين ومناهجهم

تمهيد

ومع ما ذكرناه في صدد كتب المفسرين فإن الناظر في كثير منها يلحظ نقرات عديدة تنقص من قيمة تلك الفوائد التي احتوتها والجهود التي بذلت فيها قليلا أو كثيراً ، وتجعلها غير شافية للنفس شفاء تاما .

- ١ -

روايات أسباب النزول :

فأولا إن هناك روايات كثيرة في أسباب النزول ومناسباته وقد حشرت في كثير من كتب التفسير التي كتبت في مختلف الادوار لا تثبت على النقد والتمحيص طويلا ، سواء بسبب ما فيها من تعدد وتناقض ومغايرة أو من عدم الاتساق مع روح الآيات التي وودت فيها وسياقها بل ونصوصها أحيانا ، ومع آيات أخرى متصلة بوضعها أو موضوعة لها أو عاطفة عليها ، حتى ان الناقد البصير يرى في كثير من هذه الروايات أثر ما كان من القرون الاسلامية الثلاثة الاولى من خلافات سياسية ومذهبية وعنصرية وفقهية وكلامية قوي البروز ، وحتى يقع في نفسه ان كثيرا منها منحول أو مدسوس أو مخرف عن سوء نية وقصد تشويش وتشويه ودعاية ونكاية وحجاج وتشهير ، أو قصد تأييد رأي على رأي ، وضبعة على شبعة .

والمتبادر انه لما كان عهد التدوين الذي راجت فيه الرواية تلقف المدونون من الافواه الفث والسجين والصحيح والفاقد والمعقول وغير المعقول والملقى والمنحول والمحرف فدونوه وتناقلوه ، وجعله المفسرون القديمون من عهد تفسيرهم ، بل كان وظل الركن الاقوى والاوسع في التفسير ، فكان هذا التساهل من جانب المدونين اولا والمفسرين المتقدمين ثانياً باعثاً على تسلسل الدور وانتقال الروايات من عهد الى عهد من دون تحفظ او تمحيص الا قليلا حتى صارت كأنها قضايا مسلمة او نصوص نقلية يجب الوقوف عندها والتقيدها او التوفيق بينها الخ ، وأدى هذا الى الوقوع في اخطاء وتشويشات وفارقات كثيرة ، سواء كان في صده السيرة النبوية وأحداثها او ظروف ما قبل البعثة ، او المفهومات والدلالات والاحكام القرآنية . ولقد كان هذا في احيان كثيرة مستنداً من مستندات أعداء العرب والاسلام المنعقبين للثغرات فيهم ، فتمسكوا بكثير من الروايات الواردة في التفسير مع ما هي عليه من وهن وتهافت فأساؤا فهم القرآن وخلطوا فيه عن عمد او غير عمد ، شأنهم في ذلك شأنهم في التمسك بكثير من الروايات الواردة عن السيرة النبوية والبيئة النبوية وظروفها وما بعدها من احداث الحركة الاسلامية وظروفها وتاريخها . والامثلة على ذلك كثيرة جداً ، وقد نبهنا عليها في سياق التفسير ، واليك بعضها على سبيل التمثيل والايضاح :

(١) فقد نقل الخازن (١) في تفسيره أوائل سورة التوبة عن محمد بن

(١) ان اشارتنا الى كتب تفسير بعينها في هذا الفصل وغيره لا تعني أن عدا هذه الكتب خال من الثغرات التي تنبه عليها ونمثل لها . فان أكثر ما اطلعنا عليه من هذه الكتب ينطوي على واحدة او أكثر من هذه الثغرات ، وبعضها ينقل عن بعض حرفياً وبعضها يعزو الى بعض والقليل منها تعليق على ما يورده او ينقله أو يعزوه وكثير منها يورد فيها بدون تعليق كأنما يتبناه أو لينس له اعتراض وتعليق عليه .

اسحاق ومجاهد وغيرهما ان النبي عليه السلام امر ابا بكر على الحج في
 اول حج بعد فتح مكة وبعث معه اربعين آية من سورة براءة ليقرأها
 على اهل الموسم ، ثم بعث بعده عليا ليقرأ على الناس صدر براءة ويؤذن
 بمكة ومنى ان قد بوئت ذمة الله وذمة رسوله من كل مشرك ، وان لا
 يطوف بالبيت عريان ، وان ابا بكر رجع فقال يا رسول الله بأبي انت
 وامي انزل في شأنى شيئا قال لا ولكن لا ينبغي ان يبلغ هذا الرجل
 من اهلي ، هذا بيننا ورد في البخاري حديث عن ابي هريرة ان ابا بكر
 بعث في الحجة التي امره رسول الله عليها في رهط يؤذن في الناس يوم النحر
 ان لا يحج بعد العام مشرك ويطوف بالبيت عريان . وفي الحديث الثاني
 تعارض مع الاول كما هو ظاهر ، واقد كان الحديث الاول موضع تأويل
 متقابل من الشيعة والسنة ، فالاولون احتجوا به لصواب مذهبهم لانه
 مؤيد لحق علي في القيام مقام النبي بعده ، وكون ما تم هو مخالف لتلقين
 النبي ، والآخرين قالوا مقابل ذلك انما بعث النبي عليا في هذه الرسالة
 حتى يصلي خلف ابي بكر ويراد الناس انه تحت امرته ويكون في ذلك
 تنبيه على امامة ابي بكر بعد رسول الله ، وان الامير على الناس كان
 ابا بكر ولم يكن عليا وان في هذا تقدما له عليه ، ولم يكاف من هؤلاء
 واولئك نفسه غناء البحث في متن الرواية ، فان ما احتواه حديث بعث
 النبي مع ابي بكر اربعين آية من صدر سورة براءة يجعل الحديث موضع
 نظر وتوقف لان هذا العدد من صدر السورة احتوى مواضع متنوعة
 ومنها ما نزل في شؤون اخرى ، ومنها ما هو متصل بسلسلة طويلة من
 بعده ، بل ومنها ما نزل قبل الفتح المكي على ما ذكرته من روايات
 اخرى يؤيدها او يقوم قرينة عليها نصوص بعض هذه الايات ، هذا فضلا

عن رائعة التشاد الحزبي بين الشيعة والسنة القوية في الحديثين وما يمكن أن تعنيه من وضعها لتأييد كل رأي وتجريح رأي خصمه هجومًا ودفاعًا (١) وقد روى السدي عن الزبير على ما جاء في كشف الزعشري أنه قال إن آية «وانقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . الانقار ٢٥» نزلت فينا ، وأنه كان يساور النبي يوماً فأقبل عليه فضعك له الزبير فقال رسول الله كيف حبك لعلني فقال يا رسول الله بأبي أنت وأمي إني أحبه كحبي لولدي أو أشد قال فكيف أنت إذا مرت إليه فقاتله . هذا في حين أن الآية شديدة الانسجام مع سابقاتها ولحقاتها ، وإن السياق في صدد تثبيت المسلمين وتذكيرهم وتحذيرهم وعظمتهم على أثر التشاد الذي كان بينهم حول غنائم بدر وفي سبيل توطيد طاعة للنبي في نفوسهم ، وفي حين أنه لا يبدو قط أي انساق وصلة بين الرواية والآية معنى أو موضوعاً أو مدى ، فضلاً عما يلفت النظر فيها من أثر الفتنة التي نجمت مذ مقتل عثمان ومن عدم احتمال صدورهما عن الزبير لأن فيها أدانة له .

ومن هذا الباب روايات كثيرة في أسباب نزول آيات كثيرة تضمنت صرف الآيات إلى بعض الصحابة وتشم فيها رائعة الخلاف السني الشيعي ولا تتسق في حال مع الآيات وظروف نزولها وسياقها ، فقد روى بعض الشيعة رواية بأن آية «والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون الزمر ٢٣» قد نزلت بحق علي ، وروى بعض السنيين رواية بأنها نزلت في حق أبي بكر ، والسياق يدل على أنها مع ما سبقها ولحقها عامة متصلة بظروف الدعوة في العهد المكي الذي لم يكن علي في أولائه إلا صيلاً . ومن ذلك ما رواه بعض السنيين من أن آية «يا أيها النبي حسبك

الله ومن اتبعك من المؤمنين . الانفال ٦٤ ، قد نزلت عند اسلام عمر ، ومن ان جملة ، وشاورهم في الامر . آل عمران ، نزلت في ايجاب مشاورة أبي بكر وعمر ، مع ان آية الانفال مدنية ومتصلة بظروف الجهاد في العهد المدني وجزء من سياق منسجم ، وان جملة آية آل عمران من آية يدل مضمونها نفسه على انها متصلة بوقف بعض المسلمين والمتأففين في ظروف وقعة احد فضلا عن انها جزء من سياق منسجم في ظروف هذه الوقعة ، ومن ذلك ما رواه الشيعة من ان آية وقفهم انهم مسئولون . الصافات ٢٤ ، قد نزلت في الذين ينكرون حق علي في الولاية مع ان السياق عام متصل بظروف الدعوة في العهد المكي ، وفيه حكاية عن ما يراه الكافرون والمؤمنون من المشاهد الاخروية ترهيباً وترغيباً .

(٣) وجاء في البخاري عن انس ان عمر بن الخطاب قال يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو امرت امهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله اية الحجاب ، بينما جاء في البخاري عن انس ايضا أنه لما تزوج رسول الله زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون واذا هو كأنه يتسبباً للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبي ليدخل فاذا القوم جلوس ثم انهم قاموا فانطلقت فأخبرت النبي انهم انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه وانزل الله يا ايها الذين امنوا لا تدخلوا بيوت النبي الى اخر اية الاحزاب ٥٣ وهي الاية التي ذكر فيها الحجاب والتي توصف بأنها اية الحجاب والتي نزلت بناء على مراجعة عمر كما جاء في الرواية الاولى ، وجاء كذلك في البخاري عن عائشة أن عمر بن الخطاب كان يقول لرسول الله احجب

نساءك فلم يفعل وكان ازواج النبي يخرجن لبلا قبل المناصع (١)، فخرجت
سودة بنت زمعة وكانت امرأة طويلة فراها عمر وهو في المجلس فقال عرفتك
ياسودة حرمي على ان ينزل الحجاب قالت فأنزل الله اية الحجاب . وجاء في البخاري
ايضا عن عائشة قالت خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها وكانت
امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها فراها عمر بن الخطاب فقال اما
والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين قالت فانكفأت راجعة الى
رسول الله في بيتي وانه لينتشى وفي يده عرق فدخلت فقالت يا رسول
الله خرجت لبعض حاجتي فقال عمر كذا وكذا قلت فأوحى الله اليه ثم
رفع عنه وان العرق في يده ما وضعه فقال انه اذن لكن ان تخرجين .
فهذه اربعة احاديث بخارية حول الحجاب ، وثلاثة منها في مناسبة نزول
اية الحجاب في سورة الاحزاب ، وفيها ما فيها من التغيرات في هذه المناسبة
وكل هذا في حين ان الحجاب المذكور في الاية يعني الستر على باب البيت
كما رواه انس في احد احاديثه السابقة وامر الناس بأن يطلبوا ما يكون
لهم من حاجات من زوجات النبي من روائه ولا يدخلوا عليهم بسبب
ذلك كما ان الابه لم تنزل خاصة في الحجاب حتى تسمى ابنته كما يظهر ذلك
لمن ينعم النظر فيها .

(٤) وروى الضعاك عن ابن عباس على ما جاء في الحازن ان اية د اغما
جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا . الخ .
المائدة ٣٣ ، نزلت في قوم من اهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله
عهد وميثاق فنقضوا عهد الله وافتقدوا في الارض فخير الله رسوله ان

يشأ يقتل وان يشأ يصلب وان يشأ يقطع الايدي والارجل من خلاف
 بينا روى السكبي عن ابن عباس ايضا انها نزلت في قوم هلال بن عويمر
 وذلك ان النبي وادع هلالا على ان لا يعينه ولا يعين عليه وان من مر
 بهلال الى النبي فهو امن ، فرقوم من بني كنانة يريدون الاسلام يقوم
 هلال فشدوا عليهم فقتلوه واخذوا اموالهم نزل جبريل بالقضاء فيهم
 بهذه الآية ، وهذا وذاك في حين ان رواية عن سعيد بن جبير تقول ان
 الآية نزلت في قوم من عربيه وعكل اتوا رسول الله وابعوه على الاسلام
 وهم كذبة ، فاستوخوا المدينة فبعثهم رسول الله الى ابل الصدقة فارتدوا
 وقتلوا الراعي واستافوا الابل . فهذه ثلاث روايات في سبب نزول آية
 كل منها يخالف للآخرى من حيث القصة وكل منها يفيد ان الآية نزلت
 مستقلة بسبب حادث معين ، واثنان منها على تخالفها مرويتان عن ابن
 عباس ، مع ان الذي ينعم النظر في سياق الآية يجدها غير منفصلة عن
 السياق السابق الذي يدور الحديث فيه عن اليهود والتنديد بهم ويربط
 حاضرهم باضيمهم ، ثم يجد في الآية للتالية لها ما يدل على ان الذين هم
 موضوع الكلام ليسوا في متناول يد النبي وان ما نسب اليهم انما صدر
 عنهم في ظرف كفرهم ، وانما امرت بقبول توبتهم اي اسلامهم اذا تابوا
 قبل ان يقعوا في متناول يد النبي ويجد السياق التالي لها متصلا بالسياق
 السابق ايضا (الايات ٣٢ - ٣٧ المائدة) .

ولقد روى البخاري حديثا عن انس بن مالك في قصة عرب عكل
 وعربيه التي ذكرت في الرواية المعزوة الى سعيد بن جبير جاء فيه ان
 النبي سمر اعيينهم - كواها بأصباخ للنار وقطع ايديهم وارجلهم وتركهم
 وتركهم في ناحية الحرة حتى ماتوا ، ولم يره في هذا الحديث ان الآية

نزلت فيهم كما انها لا تحتوي تسمير العينين ومحال أن يخالف النبي نص
الاية لو انها نزلت فيهم .

- ٢ -

روايات التفسير :

ثانيا ان هناك اولا تفسيراً كاملاً معزوا الى ابن عباس رواية أبي صالح
عن السكابي احتوى تفسيرات لغوية وكثيراً من اسباب النزول وتأويلات
للقصص والتعابير والمشاهد والافصاف القرآنية وتعليقات عليها ، وثانياً
أقوالاً كثيرة جداً في كتب التفسير معزوة الى ابن عباس منها ما ورد
في ذلك التفسير ومنها ما لم يرد ، واحتوت هي الاخرى تفسيرات لغوية
واسباب نزول وتأويلات للقصص والتعابير والمشاهد والافصاف القرآنية
وتعليقات عليها . وثالثاً اقوالاً كثيرة جداً كذلك في كتب التفسير
معزوة الى علماء من التابعين وتابعي التابعين امثال مجاهد والضحاك
وقنادة والحسن البصري وعكرمة وسعيد ومسروق ومحمد القرظي وسفيان
بن عيينه وعطاء الخ فيها كذلك تفسيرات لغوية واسباب نزول وتعليقات
وتأويلات بل وهناك روايات عن كتب تفسير معزوة الى بعض هؤلاء
مثل مجاهد والضحاك وقنادة وسفيان ، وقد وصف السبوطي ما ورد عن
ابن عباس من روايات تفسيرية بكلمة « لا تحصى » دلالة على كثرتها ،
وذكر ان عدد مثل هذه الروايات المروية عن الصدر الاول قد بلغ
بضعة عشر الفا ، والارجح ان هذا العدد لا يشمل ما يرويه الشيعة بطرقهم
وشروطهم الخاصة التي لا يستقيم كثير منها عند السنيين ولا يحتجون بها
والتي ربما بلغ عددها نفس العدد او زاد ، وكثير من الاقوال المنسوبة
الى هذا الصدر ومن يليه يصح عليها ما قلناه في الفقرة السابقة من انه

لا يثبت على النقد والتعويض للأسباب التي ذكرناها ، ومن حيث ما يقع في النفس من تلفها من الاقواء وتدوينها في عهد رواج الرواية فاختلط حابلها بنابلها وغتها بسمينها وصحيحها بباطلها ، وظهر على كثير منها أثر تلك الخلافات السياسية والحزبية والكلامية والمذهبية والعنصرية ، ومن حيث ما يقع في النفس من قصد التشويش والتشويه في بعضها وتعمد النحل والتلفيق في بعض آخر منها ، وفي بعضها ما هو ادخل في باب الحرافة منه في باب الحقيقة او الاحتمال كما أن كثيراً منها لا يصح تصديق صدره عن صحابة وتابعين وتابعي تابعين وخاصة من علمائهم الاجلاء المشهورين في سلامة المنطق والفهم والذكاء والدراية والورع . ويؤيد هذا قول الامام الشافعي بأنه لم يثبت عن ابن عباس بما عزي اليه من روايات التفسير الا نحو مئة ، بينما المنسوب اليه يبلغ بضعة آلاف ، ويؤيده كذلك موقف الامام الحنبل من هذه الروايات حيث يسلك روايات التفسير المعزوة إلى الصحابة والتابعين - وكل ذلك بما يدخل في شمول كتب الحديث - في سلك روايات الملاحم والمغازي من حيث غلبة احتمال تسرب الاخطاء والمبالغات وعدم صحة السند فيقول انها لا أصل لها .

ومع ذلك فقد صارت هي الاخرى من عهد المفسرين القديين وكتبهم وانتقلت من دور الى دور حتى استفاضت في كتب التفسير جميعها تقريباً وغدت نصوحاً نقلياً يوقف عندها ويتقيد بها بل ويحتج بها بسبب مكانة المصدر الذي نسبت اليه بدءاً ، ولم تحظ الا بقليل من النقد والتعويض ، بل وان ما جرح منها ظل ينتقل من دور الى دور ويستفيض في كتب التفسير ، ويورد في سياق الآيات من جملة الاقوال والتأويلات ، ومنها ما لا يذكر

جرحه ، ولقد جرح بنض علماء القرآن والرواية رواية ابن الكلبي بل سماه بعضهم بالكذاب ، ولكن كثيرا ما رواه أخذه المفسرون القدماء وتقول عنهم دوراً بعد دور ، منه ما ذكر راوية ومنه ما لم يذكر ، ودخل كذلك في عداد النصوص المروية التي يوقف عندها وينقيد ويحتج بها ، وهذا شأن كثير من الروايات المجروحة أيضا ، فأدى ذلك كله الى اخطاء وتشويشات وتشبهات ومفارقات ومجاذلات كثيرة ، وكانت وسيلة من وسائل غمز الاغبار والباحثين المستشرقين وطعنهم ايضا كما كان ذلك في روايات الاسباب والمناسبات على ما ذكرناه قبل والامثلة على ذلك كثيرة جداً نورد بعضها فيما يلي للتشثيل والايضاح :

(١) ففي تفسير سورة القلم من تفسير ابن عباس المذكور ان النون هو السمكة التي تحمل الارضين على ظهرها ، وهي في الماء وتحتها الثور وتحت الثور صخرة وتحت الصخرة الثرى ولا يعلم ما تحت الثرى الا الله - كأن هذا من العلم الذي عرفه البشر - وان اسم السمكة ليواش ويقال ليوتي واسم الثور يلهوت ويقال يلهوى ويقال ليوتاه ، وهي في بحر يقال له عصوص وهو كالصور الصغير في البحر العظيم ، وهذا البحر في صخرة جوفاء ، وفي هذه الصخرة أربعة آلاف خرق يخرج منها الماء . وقد وردت هذه الاقوال بعينها أو مزيداً عليها أو مبدلة بعض الشيء في كتب عديدة من كتب التفسير منها ما عزي الى ابن عباس عن أبي صالح عن الكلبي ومنها ما لم يذكر راوية ومصدره .

(٢) وقد صرفت كلمة «ربك» في هذا التفسير في جملة « اذهب انت وربك فقاتلا » الى هارون .

(٣) ولقد علق فيه على جملة « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، بأن الله قد صور آدم بين مكة والطائف .

(١) وقد صرف فيه المقصود من آيتي الاعراف « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما نفساها حملت حملاً خفيفاً فرث به فلما اثقلت دعوا الله وبها لئن اتيتن صالحاً لنكونن من الشاكرين فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها فتعـالى الى الله عما يشركون ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، الى آدم وحواء وروى فيه أنها جعلاً لله شركاء في ما آتاها حيث سمى احد اولادها عبد الله والآخر عبد الحارث . وقد ورد هذا القول في الحازن عن ابن عباس بغير ذكر الكلبي بهذا النص : كانت حواء تلد لآدم اولاداً فيسميهم عبد الله وعبيد لله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت فأتاها إبليس فقال ان مر كما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث - يعني نفسه - فولدت ولداً فسمياه كذلك فعاش ! (٥) وذكر فيه نسب غرود هكذا : غرود بن كنعان بن سنهاريب بن كوش .

(٦) وعلق فيه على جملة « فيها من كل شيء موزون ، كل شيء يوزن مثل الذهب والفضة والحديد والصفير والنحاس .

(٧) وفسرت فيه كلمتا « نعمي » و « امنية » الواردتان في آية الحج « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في امنيته ٥٢ » بمعنى قرأ وقراءته فكان هذا التفسير من اركان الاقوال والروايات التي قبلت ورويت في قصة الغرانيق وكوث الشيطان هو الذي اجري على لسان النبي الجملتين « تلك الغرانيق العلى . وان شفاعتهن لترجي » في اثناء تلاوة سورة النجم في صلاة اقامها بالمؤمنين في فناء

الكعبة ، وكون آيات الحج هي بسبيل نسخ تلك العبارات والتنبيه على انها من القاء الشيطان ، بما كان مثار اخذ ورد ومغامز ومطاعن في حين ان عبارات آيات الحج ٥٢ ٥٤ وروحها وسياقها لا يتسق مع ذلك التفسير ولا مع تلك الاقوال قط على ما فصلناه في سياق تفسيرها (١) ، فضلا عما هناك من رواية تفيد ان هذه الآيات نزلت على النبي بطريق هجرته الى المدينة .

(٨) وقد أولت فيه آيات زواج النبي بمطرفة متنبية الواردة في سورة الاحزاب فأوياً تنزه رسول الله عنه من عشقه لزینب ومخادعته لزيد كان مثار اخذ ورد ومغامز ومطاعن ايضا في حين ان عبارة الايات وظروفها تناقض هذا التأويل . كما فصلناه كذلك في سياق تفسيرها (٢) .

(٩) وبما نقل عن ابن عباس من غير طريق ابن الكلبي واشترك معه غيره من الصحابة والتابعين ما نقله الخازن عن قصة هاروت وماروت العجيبة والشائقة معاً حيث جاء فيها انها كانا عبد الملائكة وانها غيرا الله في خلقه البشر على عصيانهم وان الله قد نكحهما ان يشتا اذا ركب فيها طبائع البشر ، ولما انقلبوا بشرأ زنيا وشربا الخمر وقتلا النفس وسجدا للأصنام واساء استعمال اسم الله الاعظم الخ بتفصيل طويل ، بما لا يتسق مع منطق من جهة وفيه ما فيه من موقف نحو الله من جهة اخرى . ولقد صارت هذه القصة وسيلة لجدل كلامي في عصمة الملائكة ، واحتج القائلون بعدمها بالقصة كحجة نقلية مروية بألفاظ متقاربة عن ابن عباس وعلي ابن أبي طالب وابن مسعود وكعب الاحبار والسدي والربيع ومجاهد ا

(١) و (٢) اقرأ ايضا كتاب سيرة الرسول الجزء الاول غنيه بحث ونجس .

(١٠) ومن ذلك ان لحمة العرش قرونا وان ما بين اخص اعدم الى كعبه مسيرة خمسة عام ومن كعبه الى ركبته مسيرة خمسة عام ومن ترقوته الى موضع القوط منه مسيرة خمسة عام .

(١١) وروى الكشاف عن عكرمة في تأويله كزرع اخرج شطاه فأزره فاستفاظ فاستوى على سوقه ، ان هذا مثل ضربه الله نداء الاسلام وترقيه فأخرج شطاه بأي بكرة وأزره بغير واستغلف بعثان واستوى على سوقه . بملي . واثر المقاتلات الخلافة في ترتيب الخلفاء الراشدين ظاهر القول .

(١٢) وروى الكشاف معزواً الى الحسن في صدد خلق الارض والسماء ان الله خلق الارض في موضع بيت المقدس كهية القهر عليها دخان ملتق بها ثم اصعد الدخان وخلق منها السموات وأمسك النهر في موضعه وبسط منه الارض فذلك قوله «كانتا رتقا ففتقناهما» الانبياء ٣٠ . وروى الحازن معزواً الى عبد الله بن عمر أن الذين يحملون العرش ما بين سوق اعدم الى مؤخر عينيه خمسة عام .

(١٣) وروى الحازن ايضا معزواً الى عروة بن الزبير ان من حلة العرش من صورته على صورة الانسان ومنهم من صورته على صورة النسر ومنهم من صورته على صورة الثور ومنهم من صورته على صورة الاسد .

(١٤) وروى ايضا معزواً الى نوفل البكالي في وصف السلسلة التي ذكرت في سورة الحاقة «ثم في سلسلة ذرعا سبعون ذراعا فاسلكوه» ٣٧ . أن كل ذراع سبعون باعا وكل باع أبعد ما بينك وبين مكة وكان هو في رجة الكوفة .

(١٥) وروى روايات شيعية عن مقاتل عن أبي عبد الله انه وجد في

كتاب علي بن ابي طالب ان آدم لما هبط إلى الارض كانت وجلاه بئنية الصفا ورأسه دون افق السماء وانه شكاه حرارة الشمس فأوحى الى جبريل ان اغمره فغمره فصير طوله سبعين ذراعاً بذراعه ثم غمر حواء غمرة فصير طولها خمسة وثلاثين ذراعاً بذراعها . وقد رأينا تعليقاً على رواية تقصير آدم وحواء لمؤلف شيعي آخر حاول فيه ان يعلل أذى الشمس بأن حرارتها تكون من غير جهة الانعكاس وتكون قائمة آدم طويلاً بحيث تتجاوز طبقة الزمهرير ! ثم ايد صحة طول ادم واحتمال تأذيه من حرارة الشمس بقصة عوج بن عناق فذكر كيف كان يأخذ السمكة من قاع البحر ويشويها في عين الشمس ، ولم يكتف المؤلف بهذا فقد اخذ بورده احتمالات ووجوها من طرائفها أن جبريل غمر آدم فجعله سبعين لا سبعين وغمر حواء فجعلها خمسين وثلاثين الخمس لا خمسة وثلاثين وإن من المحتمل ان يكون الناقل وهم في القراءة . .

(١٧) وجاء في تفسير القرطبي معزواً الى ابن عباس انه كان يوضع لسليمان سترة كرمي ثم يحيى اشراف الانس فيجلسون بما يليه ثم يأتي اشراف الجن فيجلسون بما يلي الانس ثم يدعو الطير فتظللهم ثم يدعو الريح فتقلهم وتسير بالغداة الواحدة مسيرة شهر .

(١٨) وجاء فيه معزواً الى جابر بن عبد الله الى النبي عليه السلام انه كان نقش خاتم سليمان بن داود « لا اله الا الله محمد رسول الله » .

(١٩) وجاء فيه ايضا معزواً الى الحسن ان الجياد المذكورة في قصة سليمان في سورة ص « اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد » ٣١ « خرجت من البحر لها أجنحة ، ومعزواً الى الضحاك انها كانت منقوشة ذات أجنحة ، ومعزواً الى علي ان الشيطان أخرجهما من مروج البحر وكانت عشرين فرساً .

(٢٠) وفي الحازن عن البغوي عن الثعلبي عن كعب الاحبار ان موسى نظر في التوراة فقال اني اجد امة هي خير امة اخرجت للناس يأمررون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الاول والآخر ويقاتلون اهل الضلالة حتى يقاتلون الاعور الدجال ، رب اجعلهم امتي قال هي امة محمد يا موسى . قال رب اني اجد امة هم المحادون المحكمون اذا ارادوا امرا قالوا نفعل ان شاء الله فاجعلهم امتي قال هي امة محمد . قال رب اني اجد في التوراة امة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم - وكان الاولون يحرقون كفاراتهم بالنار - وهم المستجيبيون والمستجاب لهم الشافعون والمشفوع لهم فاجعلهم امتي . قال هي امة محمد . ويستمر الكلام فيتناول بضع صور اخرى من هذا القبيل . ونقول بهذه المناسبة ان المفسرين كثيرا ما نقلوا عبارات وجمل على انها واردة في التوراة والانجيل ومنها ما يشبه بعض آيات وعبارات القرآن ، ويعزون ذلك الى كعب الاحبار أو عبد الله بن سلام أو ابن عباس أو بعض التابعين ومن جملة ذلك ما رواه البيهقي عن ابن عباس ان سورة الكهف تسمى في التوراة الحائلة وسورة يس المعة كأنما كل سورة في القرآن لها ما يقابلها أو لها ذكر في التوراة .

(٢١) وجاء في الحازن أن سعيداً ابن جبير قال عن ألواح موسى انها من ياقوتة حمراء ، وان الكلبي قال انها من زبرجدة خضراء ، وان ابن جريج قال انها من زمرد وان الله امر جبريل فجاء بها من الجنة عدن وكتبها بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد - أي اخذ الحبر - من نهر النور ، وان الربيع بن انس قال ان الألواح كانت من زبرجد ، وان وهبا قال : ان الله امر جبريل فقطعها من صخرة حمراء عيناها له ثم شقها

الله بأصبعه وسمع موسى صريف الاقلام بالكلمات العشر وكان ذلك اول يوم من ذي الحجة ، وكان طول الالواح عشرة أذرع على طول موسى واختلفوا في عدد الالواح فروي عن ابن عباس انها كانت سبعة وروى عنه رواية أخرى انها لوحان ورجعه الفراء وقال انما جمعت على عادة العرب في اطلاق الجمع على الاثنين ، وان وهباً قال انها عشرة وان قاتلاً قال انها تسعة ، وان الربيع بن انس قال انها كانت وقر سبعين بهيراً يقرأ الجزء منها في سنة ولم يقرأها الا اربعة نفر موسى وبوشع وعزير وعيسى .

(٢٢) وجاء في الخازن عن الربيع ابن انس ان درجات الجنة سبعون ما بين الدرجتين حضر الفرس المضر سبعين سنة .

(٢٣) وجاء فيه عن ابن مسعود ان ما بين السماء والارض مسيرة خمسة عام وما بين كل سماء وسماء خمسة عام وفضاء كل سماء وارض خمسة عام وما بين السماء السابعة والكرسي خمسة عام وما بين الكرسي والماء خمسة عام والعرش على الماء والله على العرش . وهناك خبر عن ابن عباس ان المسافة ؟

فحاول احد المفسرين التوفيق بين القولين فقال أن الخلاف في قدر المسافة على اختلاف سير الدواب .

(٢٤) وجاء فيه معزوا الى ابن عمر ان السور الذي ذكر في القرآن « ف ضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . الحديد ١٣ » هو سور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد وظاهره من قبله العذاب وادي جهنم .

وهذا قليل جداً من كثير جداً مما ورد من هذا الباب معزوا مثل ما تقدم الى صحابة وتابعين عن الخلق والتكوين والقصص وتأويل الآيات

والأحداث المتصلة بالسيرة النبوية وظروف الدعوة .

وهذا غير ما روي من روايات تأويلية وتفسيرية كثيرة جداً في كتب السنة والشيعية معزوة الى صحابة أو تابعين ممن عرفوا بالعلم والدرابة والورع وسلامة المنطق متناقضة من جهة ويبرز فيها أثر الخلافات الحزبية والمذهبية والسياسية بروزاً واضحاً من جهة أخرى . وفي كل هذا ما هو ظاهر من الاغراب والتخمين بل والتخريف وعدم الاتساق مع مرامي الآيات ومضومها وظروفها ، ودلائل الجهل بحقائق الكتب المنزلة ومحتوياتها وبما هو معروف اذ ذاك من الحقائق العلمية والتاريخية والجغرافية بما يشوش على الراغب في تفهم القرآن ويجعل القرآن عرضة للحجاج والجدل والاخذ والرد ، ويشوه اسماء كثير من اصحاب رسول الله وتابعيهم ، ويجعل المسلم يقف موقف الحيرة والبلبلة بما نقل عنهم .

- ٣ -

تعليقات المفسرين على القصص :

ثالثاً إن كثيراً من المفسرين قد ولعوا بالتعليق على ما ورد في القرآن من قصص ولماً كبيراً تجاوزوا فيه حدود الروايات المنسوبة الى الصحابة والتابعين على عتلات كثير من هذه الروايات ، وجالوا في ساحات التخمين والتخرص والتكلف والتزويد والمبالغة جولات اسمية حيناً وموجزة حيناً آخر ، ومنسوبة الى رواة من غير تلك الطبقة بالاسماء حيناً وبدون اسماء حيناً وحادة عنهم او موهمة انها كذلك حيناً آخر ، حتى يقع في نفس القارئ من شعوى عباراتهم واساليب ايادهم احياناً انهم يعنون ان القصص القرآنية او بعضها على الاقل قد وردت في القرآن لذاتها ، وبقصد الاخبار والماهيات والحقائق اكثر من قصد العظة والتذكير ،

وكثير بما اورده لا يتفق مع دلالات الايات ولا تتحملة امدانها ولا تقتضيه عباراتها كما فيه مفارقات كثيرة وما هو ادخل في باب الخرافة منها في باب الحقائق . واليك بعض الامثلة من ذلك للتشيل والايضاح .
(١) فهذه سلسلة بما ورد عن ذي القرنين وبأجوج ومأجوج منقولة عن الخازن وابي السعود والبيضاوي والكشاف ، واكثرها بتعبير روي وقيل واحيانا بدون ذلك وقليل منها معزول لقائل معين :

- ١ - ان الله انما ذكر ذا القرنين لان حكمته شادت تخليد اسمه في القرآن على مر الدهور لما بلغه من عظمة السلطان وسعة الملك .
- ٢ - ان ذا القرنين دخل الظلمة في طلب عين الحياة ، وان الحضر كان من رجال جيشه فوقع على العين فاغتسل وشرب منها .
- ٣ - ان عمر ذي القرنين الف وثلاثون سنة .
- ٤ - وقال ابن جريج كان عند العين الحنة مدينة يقال لها الجاسوس لها اثنا عشر الف باب وسكانها من نسل ثمود الذين آمنوا بصالح ولولا ضجيج أهلها لسمع الناس وجيب الشمس حين تغيب .
- ٥ - ان بأجوج امة ومأجوج امة ، وكل امة اربعة آلاف امة ، ولا يموت الرجل منهم حتى يرى من صلبه الف رجل قد حمل السلاح ، وهم ثلاثة أصناف صنف منهم امثال الارز شجر بالشام طوله عشرون ومئة ذراع ، وصنف منهم عرضه وطوله سواء عشرون ومئة ذراع وهؤلاء لا يقوم لهم جسد ولا حديد ، وصنف منهم يفتش احدهم اذنه ويلتحف بالآخرى ، ولا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ، ومنهم من طوله شبر . وقال كعب ان آدم احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتواب

فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج ، فهم متصلون بنا من
جهة الاب دون الام .

٦ - كان لذي القرنين قرنان فأمر قومه بتقوى الله فضربوه على قرنه
الايمن فمات فأحياه الله ثم بعثه فأمرهم بتقوى الله فضربوه على
قرنه الايسر فمات فأحياه الله .

٧ - سخر الله لذي القرنين السحاب فجعل عليه ، ومد له الاسباب
وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء . وخاطبه
قائلاً إني باعتك الى امم مختلفة الستهم ، منهم اتمان بينهما طول
الارض أحدهما عند مغرب الشمس يقال لها فاسك والآخرى
عند مطلعها يقال لها منسك ، ومنهم اتمان بينهما عرض الارض
إحدهما في القطر الايمن يقال لها هاريل والآخرى في قطر
الارض الايسر يقال لها تاريل ، ومنهم امم في وسط الارض
منهم الجن والانس ويأجوج ومأجوج ! فقال بأي قوة اكبدم
وبأي جمع اكثروهم وبأي لسان اناطقهم ، فقال الله اني ساقبوك
وأبسط لسانك وأشد عضدك فلا هو انك شيء ، والبسك الهيبة
فلا يرو عنك شيء ، واسخر لك النور والظلمة واجعلهما من جنودك .
فالنور يديك من امامك والظلمة تحوطك من ورائك

٨ - انه الاسكندر الذي ملك الدنيا . وقبل ملكها مؤمنان وهما
ذو القرنين وسليمان وكافران وهما نمرود وبختنصر .

٩ - قيل انه كان عبداً صالحاً ملكه الله الارض وأعطاه العلم
والحكمة وسخر له النور والظلمة ، فاذا سرى عليه النور من أمامه
ونحوه الظلمة من ورائه . وقيل كان نبياً وقيل كان ملكاً من الملائكة .

وعن علي انه ليس بملك ولا نبي ولكنه عبد صالح ضرب على
قرنه الايمن في طاعة الله فمات ثم بعته الله فضربه على قرنه الايسر
فمات فبعته الله فسمي ذا القرنين ، وان فيكم لمثله . وعلق
المفسر قائلا ان عليا اراد نفسه .

١٠ - ان معاوية قرأ جملة « عين حجة » « عين حامية » فقرأها ابن
عباس « عين حجة » فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأها
فقال كما يقرأ امير المؤمنين ، ثم ان معاوية وجه الى كعب
الاحبار كيف تجد الشمس تغرب في التوراة قال في ماء وطين
فوافق قول ابن عباس .

(٢) وهذه سلسلة اخرى في سياق قصص موسى وفرعون وبني اسرائيل
وسليمان منقولة عن الكشف . وقد وردت في كتب تفسير أخرى مقاربة
او نصاً كما جاءت في الكشف :

١ - قبل ان بني اسرائيل لما قتلوا انبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر
سبطاً تبرأ سبط منهم بما صنعوا واعتذروا وسألوا الله ان يفرق بينهم
وبين اخوانهم ففتح الله لهم نفقاً في الارض فساروا فيه سنة ونصفاً
حتى خرجوا من وراء الصين ، وهم هناك خائفاء مسلمون يستقبلون
قبلتنا . وذكر عن النبي ان جبريل ذهب به ليلة الاسراء نحوهم
فكلهم فقال لهم جبريل هل تعرفون من تكلمون قالوا لا قال
هذا محمد النبي الامي فآمنوا به ، ثم قالوا يا رسول الله انت موسى
او صانا من اولئك منكم احمد فليقرأه مني السلام فرد محمد على موسى
السلام ، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن
نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة وامرهم ان يقيموا مكانهم ، وكانوا
يسبتون فامرهم ان يجمعوا ويتركوا السبت .

٢ - روي ان معسكر سليمان كان مئة فرسخ في مئة . خمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للانس وخمسة وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش ، وكان له الف بيت من قوارير على الحشب فيها ثلثمئة زوجة وسبعمئة مربية ، وقد نسج له الجن بساطا من ذهب وابريسم فرسغا في فرسخ ، وكان منبره يوضع في وسطه ، وهو من ذهب فيقعده عليه وحوله مئمة الف كرسي من ذهب وفضة فيقعده الانبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة ، وحولهم الانس وحول الانس الجن والشياطين ، وتظلمهم الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليهم الشمس ، وترفع الريح البساط فتسير به مسيرة شهر في يوم وان الله أوحى اليه مرة وهو يسير بين الارض والسماء اني قد زدت في ملكك فلا يتكلم احد بشيء الا القته الريح في سمعك ، فيحكى انه مر بمحراث فقال لقد أوتي آل داود ملكا عظيما فألقته الريح في اذنه فنزل ومشى الى الحراث وقال إنما مشيت اليك لثلاث تمني ما لا تقدر عليه . وكان من امره أن سمع كلام النملة من ثلاثة اميال . وقد ذكر بعض المفسرين في سياق هدهد سليمان انه كان مكلفا بالتنقيب عن مواضع المياه للبعوش اللجة التي تسير مع سليمان لان الارض في عيني الهدهد ككرة من زجاج شفاف يرى ظاهرها وباطنها .

٣ - كانت عند شعيب عصي الانبياء ، فأمر موسى ان يدخل ويأخذ له عصا ، فوقع يده على عصاه وكان آدم مبط بها من الجنة ولم يزل الانبياء يتوارثونها ، ففضن بها على موسى وألقاها بين العصي أولا وقانيا وثالثا الى السابعة وكانت في كل مرة تقع في يده فوقع في نفس شعيب ان له شانا فأعطاها له .

٤ - ارسل فرعون خلف بني امراييل الف الف وخمسة الف ملك ، ومع كل ملك الف ، وخرج فرعون في جمع عظيم ، وكانت مقدمته سبعة الف كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة . وعن ابن عباس أن فرعون خرج في الف الف حصان سوى الاثاث ، وهذا سبب استقلاله قوم موسى وقوله عنهم : « إنهم أشدمة قليلون . . سورة الشعراء » مع ان عددهم ستة الف وسبعون الفا .

٥ - ان بلقيس كانت من الجن ، وان الجن خشوا ان يتزوجها سليمان فيجتمع في ابنه منها فطنة الانس والجن فدسوا له عنها وشتموا له سيقاتها فامتنعها بالصرح المرد ، ولما ظهر له كذبهم استنكحها وكان يزورها في الشهر مرة .

٦ - حينما كانت العصا تنقلب ثعبانا في يد موسى كان يبدو أنه ثعبان ذكر اشعر فاغراً فاه بين لحية ثمانون ذراعا ، وقد وضع حينما القاه بين يدي فرعون لاول مرة لحية الاسفل في الارض ولحية الاعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون لياخذه فوثب من سريره وهرب وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك ، وهرب الناس وصاحوا ، وحمل على الناس فانهمزوا فمات منهم خمسة وعشرون الفا قتل بعضهم بعضا .

٧ - كان عدد السحرة سبعين الفا وقيل ثمانين الفا وقيل بضعة وثلاثين الفا .

٨ - في الجزء الخامس عشر من تفسير القرطبي المعروف بجامع احكام القرآن اثنتان وثلاثون صحيفة في تفسير الآيات الواردة في سورة ص عن داود محشوة خشباً عجيباً بالتفصيص عن داود وسليمان والاقوال التي تدور حول هذه القصص ، وفيها من الاغراب ما يثير

الدهشة . منها ما جاء في صدد توبة داود معزواً الى عطاء الخراساني
 ان داود سجد اربعين يوماً حتى نبت المرعى حول وجهه وغمر
 رأسه فتودي أجائع فطعم وعار فتكسى فتعجب نجة هاج المرعى
 من حرجوفه فغفر له وستر بها ذنبه ؛ فقال يا رب هذا ذنبي فيها
 بيني وبينك قد غفرت فكيف بفلان وكيف بفلان وكذا وكذا
 رجلا من بني اسرائيل تركت أولادهم ايتاما ونساءم ارامل ، قال
 يا داود لا يجاوزني يوم القيامة ظلم أمكته منك ثم استوهبك منه
 بثواب الجنة . . ثم قيل يا داود ارفع رأسك فذهب ليرفع رأسه
 فإذا به قد نشب في الارض فأثاه جبريل فاقتلعه عن وجه الارض .
 كما يقتلع من الشجرة صمغها . رواه الوليد بن مسلم عن ابن جابر
 عن عطاء . . قال الوليد واخبرني منير بن الزبير قال فلزق مواضع
 مساجده على الارض من فروة وجهه ما شاء الله . . وقال وهب إن
 داود نودي اني قد غفرت لك فلم يرفع رأسه حتى جاءه جبريل فقال
 لم لا ترفع رأسك وربك قد غفر لك . قال يا رب كيف وانت لا
 تبظلم احداً فقال الله لجبريل اذهب الى داود فقل له يذهب الى قبر
 اوريا فيتحلل منه فسأسمعه نداه . فلبس داود المسوح وجلس عند
 قبر اوريا ونادى يا اوريا فقال لبيك من هذا الذي قطع علي لذتي
 وايقظني فقال أنا أخوك داود أسألك ان تجعلني في حل ، فاني
 عرضتك للقتل قال عرضتني للجنة فأنت في حل . وفي الخبر وكان
 داود يقعد على سبعة افرشة من الليف محشوة بالرماد فكانت تستنقع
 دموعه تحت رجله حتى تنفذ من الافرشه كلها ، وكان اذا جاء يوم
 نواحه نادى مناديه في الطرق والاسواق والادوية والشعاب وعلى

دؤوس الجبال وافواء الغيران الا ان هذا يوم نوح داود فمن اراد
 ان يبكي على ذنبه فليات داود فيسده فيبسط الناس من الغيران
 والادوية وتربج الاصوات حول منبره والوحوش والسباع والطير
 عكفت وبنو اسرائيل حوله فاذا اخذ في العويل والنواح وأثارت
 الحرفات منابع دموعه صارت الجماعة ضجة واحدة نوحا وبكاء حتى
 يموت حول منبره بشر كثير في مثل ذلك اليوم . . وفي هذا الجزء
 من تفسير القرطبي اربع عشرة صحيفة اخرى محشوة بمثل هذه الاقوال
 في سياق الآيات الواردة في سورة ص كذلك عن سليمان تثير الدهشة
 في اغرابها وتفصيلاتها وخاصة في وصف كرسي سليمان وانتقال
 موكبها بواسطة الريح وشباطينه المسخرة والمصفدة والبنائين
 والنواصين وخاتم سليمان والجسد الذي التقى على كرسيه ونسائه
 منها ما هو معزى الى رواية ومصادر معينة ومنها ما هو مروي بصيغة
 المجهول بما يطول الامر بنقله .

وهذا الذي نقلناه غيض من فيض وقطرة من بحر مما اورده
 المفسرون في سياق القصص القرآنية . ولقد كان امرهم ان استغرقوا فيها
 حتى هاروا يحاولون التوفيق بين مختلف الروايات الواردة فيها والجدل
 في ذلك بالاضافة الى محاولات التوفيق والتلفيق والتأليف بين ما جاء
 فيها وبين ما يبدو من مناقضة العبارات القرآنية لبعض ما فيها ، او لما يجب
 من حق الله والانبياء والملائكة وبضاف الى هذا محاولتهم أخذ ببعض الاحداث
 القصصية كحجة لاحكام فقهية في الاسلام مثل ما فعلوا في قصة ايوب
 واستنباط جواز الحيلة في التعلل من اليأس لان القصة احتوت امرا
 لاايوب بضرب زوجته بغضت من حشيش بدلا من جلدها بالسوط مئة
 مرة كما اقسم ، ومثل تجويز ان تكون اجرة الراعي صداقا وعدم تعيين

البنات التي آجر موسى نفسه مقابل تكاثرها في قصة موسى وشعب . .
 وهكذا كاه القرآن يخرج من نطاق قدسيته من الموعظة والدعوة والتذكير
 الى نطاق بحوث في التاريخ والوقائع المروية وفي نطاق هذه الروايات
 العجيبة التي أوردت على هامش القصص القرآنية والتي لا يتفق كثير منها
 مع ما ورد في انفرآن منها ، ويتعرض بذلك الى الاحـذ والرد والنفي
 والاثبات والجدل والتصويب والتخطئة ، بل ويدخل محتويات بعض
 قصصه مثل قصص آدم وإبليس ويوسف مع امرأة العزيز ويونس في مغاضبته
 وإبراهيم في طلبه من الله لإرادته كيف يحيا الموتى وموسى في طلبه
 رؤية الله وفي قتله القبطي ، والملائكة في مراجعتهم الله في شأن خلقه آدم
 في نطاق الجدل بين اصحاب المذاهب الكلامية من نواح متعددة مخطئة
 وتصويباً وتخريجاً وتأويلاً ، كما يدخل محتويات بعض قصصه مثل حقيقة
 وإمام مؤمن آل فرعون وإيمان امرأة فرعون ، وحقيقة الذبيح ، والدرهم
 التي بيع بها يوسف والاذى الذي أؤذي به موسى واسماء أهل الكهف
 وكلهم ، واسماء امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون والذي أماته الله هو
 وحماره ثم بعته وعفريت سليمان والذي عنده علم الكتاب والذي استوى
 يوسف وامراته وفرعون والفلـام الذي قتله العبد الصالح وأبويه والغلـامين
 اليتيمين ورهط قوم صالح وعافر الناقة وابن لقمان والشيطان الذي القى
 على كرسي سليمان وشيطان أيوب ونفر الجن الذين استمعوا القرآن الخ
 الخ في نطاق البحث والنقاش واستنباط حقائق التاريخ لذاتها ، وإيراد
 الاقوال والروايات في هذه الشؤون التي فيها كثير من التكاف والمفارقات
 والتخمين والاعراب والتخريف ، بما هو منبث بكثرة في كثير من كتب

التفسير ، وما يجعل المرء يندهش ويحار من روايتها وإيرادها من قبل علماء اعلام وجوازهة عليهم ، وما ظل أثره مستمراً متمكناً الى عصرنا هذا ، حيث كان كثير من هذه القصص بالاضافة الى القصص القرآنية مواضيع كتب خاصة عليها طابع الكتب التاريخية وتحمل اسم « قصص الانبياء » ، وحيث يتجادل الباحثون على صفحات المجلات في ذى القرنين وماهيته وما هو معروف عن تاريخ الاسكندر ، وفي ما إذا كان بنو إسرائيل قد ورثوا ملك فرعون في مصر وملكوها بعد أن فرق هو وجنوده اجمعون الخ ويتكلفون بما لا طائل من ورائه .

وكل هذا مؤد كما هو ظاهر الى التشويش على الناظر في القرآن ومراميه في القصص وعلى أهدافه السامية والى غدر كتب تفسيره معرضاً للكثير من المفارقات والمباينات والتعجلات والمجادلات والمنحولات والمدسوسات وغدر القرآن بذلك عرضة للغمز والجرح من قبل الاغيار ايضاً . كما أن ذلك قد أدى الى استعواذ قصة القرآنية لذاتها على افكار السواد الاعظم من المسلمين بل وخاصتهم ، وصارت عندهم كذلك موضوعاً ذاتياً ومجالاً واسعاً الأخذ والرد والسؤال والاستفتاء والاستقصاء والجهاج والاحتجاج والتصويب والمناظرة الخ ، بما كاد يضيع معه مواضع العبرة في القصة وقصد القرآن الجوهرى منها .

- ٤ -

تعليقات المفسرين على مشاهد الكون والجن والملائكة :

رابعاً : إن كثيراً من المفسرين قد ولعوا ايضاً بالتعليق على ما ورد في القرآن من تعابير وإشارات وتذكيرات وتنبهات وتقريرات حول

مشاهد الكون ونواميسه ، وحول ما ورد كذلك في صده الملائكة والجن والبلس وخلقة آدم ولما تجاوزوا فيه حدود الروايات المنسوبة الى الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وجالوا في ساحات التخمين والتكلف والتزيد والاغراب ، وأوردوا اقوالا منسوبة الى رواة ومصادر من غير تلك الطبقة باسماء وبدون اسماء وصادرة احيانا عنهم أو موهمة انها كذلك ، حتى يقع في نفس القارئ انهم يعنون ان ما ورد في القرآن في هذه الشؤون كله أو بعضه قد ورد لذاته وبقصد تقرير الماهيات والحقائق اكثر من قصد الدعوة والتذكير والتدعيم به وفي كثير مما نقلوه وقالوه ما لا يتفق مع دلالات الآيات ولا تتحمله أهدافها ولا تقتضيه عباراتها كما ان فيه مفارقات كثيرة هي ادخل في باب الحرافة منها في باب الحقيقة . واليك بعض الامثلة على سبيل الايضاح ، منقولة عن كتب تفسيرية متعددة :

- (١) ان سماء الدنيا سوح مكفوف والثانية مرمرة بيضاء والثالثة حديد والرابعة صفر وقيل نحاس والخامسة فضة والسادسة ذهب والسابعة ياقوتة حمراء وما بين السابعة الى الحجب صغار من نور .
- (٢) ان وجهي الشمس والقمر متجهان الى السماوات وضوءهما فيهن جميعا وافقيتهما نحو الارض .
- (٣) ان اللوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والارض وعرضه ما بين المشرق والمغرب وحافته الدر والياقوت ودفتاه ياقوتة حمراء وقلبه من نور واصله في حجر ملك .
- (٤) ان الانهار التي انزلها الله من عين من عيون الجنة واستودعها الجبال واجراها على الارض وهي سيعون وجيعون ودجلة والفرات والنيل هي التي غلبت في الآية « وانزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الارض » . (سورة المؤمنون)

(٥) لما خلق الله الارض وفتحها سبع ارضين بعث من تحت العرش ملكا فهبط الى الارض حتى دخل تحت الارضين السبع وضطها فلم يكن لقدميه موضع قرار فأهبط الله من الفردوس نور له أربعون الف قرن وأربعون الف قاعة وجعل قرار قدم الملك على سنامته فاستقرت ، وقرون ذلك الثور خارجة من اقطار الارض ومنغاره في البحر ، فهو يتنفس كل يوم نفسا فإذا تنفس كان مد البحر وإذا رد نفسه كان جزره ، ولم يكن لقوائم الثور قرار فخلق الله صخرة كغط سبع سموات وسبع ارضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهي الصخرة التي قال لقهاث لابنه « انها إن تك متقال حبة من خردل فتكن في صخرة . سورة لقهاث ، » ولم يكن للصخرة مستقر فخلق الله نونا وهو الحوت العظيم فوضعت الصخرة على ظهره والحوت على البحر والبحر على متن الريح والريح على القدرة ، ولقد تغفل ابليس الى الحوت فوسوس اليه فقال اتدري ما على ظهرك يا لبوتا من الامم والدواب والشجر والجبال لو نفضتهم لالقيتهم عن ظهرك ، فهم لبوتا أن يفعل فبعث الله له دابة فدخلت منخره فوصلت الى دماغه فضج الحوت الى الله منها فأذن لها فخرجت ، وإنما لتنظر اليه وينظر اليها إن هم بشيء من ذلك عادت كما كانت .

(٦) إن القلم من نور وإن طوله ما بين السماء والارض . وقد نظر الله اليه أول ما خلقه فانشق نصفين ثم قال له اجريا هوكائين الى يوم القيامة فجرى على اللوح المحفوظ . والناس إنما يجرون على أمر قد فرغ منه .

(٧) إن بين كل سمانين مسيرة خمسمئة عام وغلظ كل سماء كذلك ، والارضون مثل ذلك ، وإن الصخرة التي تحت الارض السابعة والتي منتهى علم الخلائق على ارجائها يحيطها اربعة من الملائكة لكل منهم اربعة وجوه وجه انسان ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر . فهم قيام عليها قد احاطوا بالسموات والارض ودورهم تحت العرش .

(٨) إن الناس ينادون يوم القيامة من صخرة القدس لانها اقرب الى السماء بانفي عشر ميلا وانها في وسط الارض . .

(٩) إن المطر ينزل من السماء كل عام بقدر واحد لا يزيد ولا ينقص

(١٠) ان في العرش شمال ما خلق الله في البر والبحر وذلك تأويل

قوله تعالى « وان من شيء الا عندنا خزائنه . سورة الحجر »

(١١) ان سدة المنتهى شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش

ثمها كقلال هجر وورقها كآذان الفيل . ينبع من اصلها الانهار التي

ذكرها الله في القرآن ويسير الراكب في ظلها سبعين عاما لا يقطعها .

(١٢) ان جبريل نزل بالميزان فدفعه الى نوح وقال مر قومك يزوابه

(١٣) ان آدم نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد وهي السندان

والكلبستان والمطرقة والابرة والمهقة وقيل ان معه كذلك المرو والمسحاة

(١٤) اختلف في عدد عوالم الله فقيل انها الف عالم ستمئة في البحر

وأربعمئة في البر ، وقيل ثمانون الف عالم أربعون الفا في البر ومثلهم في

البحر ، وقيل ثمانية عشر الفا منها عالم الدنيا عالم واحد ، وما العمران

في الحراب الا كفساطط في صحراء

(١٥) لما اراد الله أن يخلق آدم اوحى الى الارض اني خالق منك

خليقة منهم من يطيعني ومنهم من يعصاني فمن اطاعني ادخلته الجنة ومن

عصاني ادخلته النار . قالت الارض اتخلق مني خلقاً يكون للنار . قال

نعم . فبكت الارض فأنفجرت منها العيون الى يوم القيامة . وبعث الله

جبريل ليأتيه بقبضة منها احمرها واسودها وطيبها وخبيثها ، فلما اتاها

ليقبض منها قالت أعوذ بعزة الله الذي ارسلك أن لا تأخذ مني شيئاً .

فرجع جبريل الى مكانه وقال يا رب استعاذت بك مني فكرومت ان

اقدم عليها . فقال الله لميكائيل انطلق فأنتي بقبضة منها فلما اتاهما قالت
 له مثل ما قالت لجبريل فرجع الى ربه فقال ما قالت له . فقال الله
 لعزرائيل انطلق فأنتي بقبضة منها فلما اتاهما قالت له ما قالت لجبريل وميكائيل
 فقال وانا اعوذ بعزته ان اعصي له امراً فقبض منها قبضة من جميع
 بقاعها من عذمها ومالحها وحلوها ومرها وطيبها وخبثها وصعد بها الى
 السماء ، فقال له ربه وهو أعلم بما صنع فأخبره بما قالت له الارض وبما رد
 عليها فقال الله وعزتي وجلالي لا خلقن بما جئت به خلقاً ولا سلطانك على
 قبض ارواحهم اقله رحمتك ، ثم جعل الله تلك القبضة نصفها في الجنة
 ونصفها في النار ثم تركها ما شاء الله ثم اخرجها فمجئها طينا
 لازبا مدة ثم حمأ مسنونا مدة ثم صلصالاً (١) ثم جعلها جسداً والقاه على باب
 الجنة . فكانت الملائكة يعجبون من صفة صورته لانهم لم يكونوا رأوا
 مثله . وكان ابليس يمر به ويقول لامر ما خلق هذا . فنظر اليه فاذا هو
 اجوف فقال هذا خلق لا يتمالك ، وقال يوما للملائكة ان فضل عليكم
 ماذا تصنعون . قالوا نطيع ربنا ولا نعصاه . فقال ابليس في نفسه لئن
 فضل علي لاعصينه ، ولئن فضلت عليه لاهلكه . فلما اراد الله ان ينفخ
 فيه الروح امرها ان تدخل في جسد آدم فنظرت فرأت مدخلا ضيقا
 فقالت يا رب كيف ادخل هذا الجسد قال الله ادخله كرها ومستخرجين

(١) يظهر ان القائل أراد ان يوفق بين التعابير القرآنية حيث جاء في احدها
 ان الله خلق البشر من طين لازب وفي احدها من حمأ مسنون وفي احدها من صلصال .

منه كرها ، فدخلت يافوخه فوصلت الى عينيه فجعل ينظر الى ساثر جسده
حطينا ، فسارت الى ان وصلت الى منخربيه فغطس فلما بلغت لسانه قال
الحمد لله رب العالمين ، وهي اول كلمة قالها فناداه الله ربك يا ابا
محمد ، ولهذا خلقتك . ولما بلغت الروح الى ركبتيه هم ليقيم فلم يقدر
فقال الله خلق الانسان من عجل . فلما بلغت الساقين والقدمين استوى
قائما بشراً سوياً لحماً ودماً وعظاماً وعروقاً وعصباً واحشاً وكسي لباساً
من ظفر يزداد جسده جمالاً وحسناً كل يوم .

(١٦) ان الملائكة الذين ذكروا في آية البقرة (٣٠) هم الذين كانوا
في الارض . وذلك ان الله خلق الارض والسماء وخلق الملائكة والجن
فأسكن الملائكة السماء وأسكن الجن الارض فعبدوا دهرأ طويلاً ، ثم
ظهر فيهم الحسد والبغي فأفسدوا واقتتلوا فبعث الله عليهم جنداً من
الملائكة يقال لهم الجن ورأسهم ابليس وهم خزان الجنان فهبطوا الى
الارض وطردهوا الجن الى جزائر البعار وشعاب الجبال ، وسكنوا
الارض ، وخفف الله عنهم العبادة ، واعطى ابليس ملك الارض وملك
السماء الدنيا وخزانة الجنة وكان رئيسهم واكثرهم علماً . فكان يعبد
الله تارة في الارض وتارة في السماء وتارة في الجنة . فدخله العجب وقال
في نفسه ما اعطاني الله هذا الملك الا لاني اكرم الملائكة عليه فقال له
ولجنده اني جاعل في الارض خليفة بدلاً منكم ورافعكم الي فكرهوا
ذلك لانهم كانوا اهلون الملائكة عبادة .

(١٧) كان ابليس من حي من الملائكة وقيل من الجن بمن يولد له
ويأكلون ويشربون بمنزلة آدميين ، ومن الجن من هو بمنزلة الربيع
لا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون . وقيل ان ابليس يدخل ذنبه في

دهره فيبيض فتتفلق البيضة عن جماعة من الشياطين ، وان من أولاده
 لاقيس ولهاب والمفاف ومرة وزنبور وبتر والاعور ومطوس وداسم ،
 ومنهم من يتولى إفساد الصلاة وآخر يتولى التنجيس وآخر يزين اللغو
 والايان السكاذبة وآخر يغري بالزنا فينفخ في إحليل الرجل وعجيزة المرأة .
 وهذا قليل من كثير من هذا الباب مما يكاد يكون من عمد أكثر كتب
 التفسير القديمة ، وفيه ما هو ظاهر من الاغراق والمفارقات ودلائل الجمل
 بما كان معروفا من الحقائق الكونية حتى ليدش المرء من جوازه على
 علماء اعلام ونقلم اياه بأساليب وسياقات تدل على انهم مندججون فيه
 ومنزلوه منزلة الحقائق او على الأقل غير شاكين فيه ولا مكذبيين ، وانهم
 يرمون او يرمي بعضهم الى التوفيق بين مختلف الآيات والتعابير القرآنية
 والى شرحها وتعليل مداها ، وفي ذلك ما هو واضح من اسباب التشويش
 على اهداف القرآن وحرف الذهن عن مراميه ، وجعل كتب التفسير
 معرضا لكثير من المفارقات والمبالغات والمنتحلات والمدسوسات .

وما هو جدير بلفت النظر ان بعض الباحثين والناظرين في القرآن
 بل ومفسريه من المتأخرين والمعاصرين قد أولعوا بمثل ذلك الولع مع تعديل
 اقنضته تطورات العلوم والمفاهيم ، حيث نراهم يحاولون استنباط النواميس
 العلمية والفنية واستخراج نظريات الدورات الشمسية والقمرية والارضية
 وكروية الارض ونظام الافلاك والمطر وأطوار النشوء وغو الاحياء
 وانفتاح الارض والسماء والذرة والكهرباء الخ الخ من بعض الآيات
 اقرآنية ، أو يحاولون تطبيق النظريات العلمية والفنية المتصلة بنواميس
 الكون والتكوين والشمس والقمر والسماء والارض والحياة والكهرباء
 والبرق والبرق الخ الخ على بعض الآيات القرآنية ليدلوا على احتواء

القرآن أسس هذه النظريات أو نواتها بما أخذ يستفيض في الكتب والمجلات بل والمصحف منذ أواخر القرن السابق . وتفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهرى الذي صدر في أوائل القرن الحاضر مثال عجيب لهذه المحاولات والتطبيقات .

والشجرة في هذا هو ما يفيد ويومه هذا الوله كما ذكرنا هذا في ما تقدم من أن ما ورد في القرآن من الاشارات والتنبيهات والتعابير مقصود لذاته وماهياته ، وما يؤدي هذا اليه من صرف هذه الاشارات والتنبيهات والتعابير عن هدفها الرعطي والتدعيمي للدعوة أولا ، ومن اخراج محتويات القرآن في نطاق هذا الهدف وقدسيته الى نطاق البعد والبحث والنفي والاثبات في حقائق النظريات العلمية والفنية الكونية ، وما تتعرض له هذه النظريات من تبدل وتطور وجدل ثانياً ، في حين ان تلك المحاورات او بالاحرى التمهلات قائمة على الظن والتخمين ومنها ما هو متهافت جدا من جهة ، وان اسلوب الآيات القرآنية من جهة اخرى واضح الدلالة على اقتصار ما احتوته على الهدف المذكور ، وعدم استهدافه التقارير العلمية والفنية في ماهية الخلق والتكوين ونواميسها ، حيث هو اسلوب خطابي موجه الى مختلف طبقات الناس بقصد ايقاظ ضائرهم ولفت انظارهم الى ما يقع تحت مشاهدتهم من مشاهد الكون العظيمة ، وما يرويه من مظاهر نواميسه ، وما يتمتعون به من مختلف تلك المشاهد وهذه النواميس في مختلف حياتهم على الوجه الذي يفهمونه منها ، وتتلئ اذهانهم بها ، وبقطع النظر عن ماهياتها لذاتها ، والتدليل بهذا الاسلوب العام الموجه الى مختلف الطبقات على وجود الله وعظمته وقدرته وشمول حكمه وتصرفه ووحدته واستحقاقه وحده الخضوع والعبادة وصحة

الدعوة إليه وواجب طاعته في ما يأمر وينهى بواسطة انبيائه وتنزيله ،
 بما يستطيع ان يسه كل من انعم النظر في الآيات والفصول القرآنية .
 وما احسن ما قاله الامام الغزالي في تماث الفلاسفة من كلام قوي
 حكيم يتصل بهذا الموضوع حيث قال في صدد تقسيم مذاهب الفلاسفة
 والقسم الثاني ما لا يصدم مذهبهم فيه احلام اصول الدين وليس من
 ضرورة تصديق الانبياء والرسل منازعتهم فيه كقولهم ان خسوف القمر
 عبارة عن احواء ضوئه بتوسط الارض بينه وبين الشمس من حيث انه
 يمتص نوره من الشمس ، والارض كرة ، والسما محيطة بهم من الجوانب
 فاذا وقع القمر في ظل الارض انقطع عنه نور الشمس ، وكقولهم ان
 كسوف الشمس معناه وقوع جرم القمر بين الناظر والشمس وذلك عند
 اجتماعها في العقدين على دقيقة واحدة . وهذا الفن ايضا لسنا نخوض في
 ابطاله اذ لا يتعلق به غرض . ومن ظن ان المناظرة في ابطال هذا من
 الدين فقد جنى على الدين وضعف امره ، فان هذه الامور تقوم على براهين
 هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة في من يطلع عليها ويتحقق ادلتها حتى
 يخبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرهما ومدة بقائها الى الانجلاء قبل
 وقوعها ، واذا قيل له ان هذا على خلاف الشرع لم يستوب فيه وانما
 يستريب في الشرع . وضرر الشرع بمن ينصره بغير طريقه اكثر ممن يطعن
 عليه بطريقه وكما قيل عدو عاقل خير من صديق جاهل .

ونضيف الى هذا ان عظمة شأن القرآن هي في روحانيته القوية
 النافذة وفي قوة هدايته الخالدة وفي ما احتواه من اسس ومبادئ ومثل
 عليها تستجيب لحاجات الانسانية المتنوعة على كثر الدهور ومتنوع
 الظروف ، وان الواجب الاعظم هو التزام حدود هذه الاسس والمبادئ .

والمثل ونجليتها وازالة كل ما يشوش عليها ويعرقل بروجها او اعماله
والانصراف عنه .

٥ -

التشاد المذهبي في سياق التفسير :

خامسا : ان بعض المفسرين قد اتخذوا التفسير وسيلة من وسائل الجدل
المذهبي وخاصة في علم الكلام . فقد تجاذبوا وتشادوا حول العبارات
القرآنية التي جاءت عن ذات الله وصفاته وافعاله وأعضائه ونزوله
وعروجه واستوائه نفيا وتأويلا واثباتا وتسايا . وقد تجاذبوا كذلك
وتشادوا حول ما جاء عن اعمال الانسان وسلوكه وإيمانه وكفره وذنوبه
وحسناته وثوابه وعقابه واختلاف الناس الطبيعي او الخلفي ، فقرر بعضهم
قدرة الانسان على العمل وكسبه اياه وقابليته الذاتية على التمييز بين
الحق والباطل والحسن والقيبح واختياره ما يختاره منها واستحقاقه الثواب
والعقاب عدلا وحقا نتيجة لذلك وبقصد تنزيه الله عن الظلم والتناقض ،
في حين ان آخرين رأوا في ذلك تفاسيرا مع قدرة الله ومطلق تصرفه
ونقضا لعلمه الازلي ولكونه المؤثر الحقيقي في كل شيء فقرروا ان افعال
الانسان مكتوبة عليه في الازل لا معدى له عنها ، وان الله لا يسأل عما
يفعل ، وانه لا يصح ان يقاس ما يجريه بمقياس البشر في الحسن والقيبح
والعدل والظلم الخ . وقد تجاذبوا وتشادوا حول ما ورد من عبارات في
توبة التائب وغفران الذنوب بدون قيد فقرر بعضهم أنه لا غفران بدون
توبة وان اصحاب الكبائر مخلصون في النار وان الله كتب على نفسه قبول
التوبة فصار واجبا عليه قبولها ، في حين ان آخرين قرروا ان الله لا يجب
عليه نحو خلقه شيء وانه يغفر لمن يشاء ما يشاء دون قيد وشرط ، وان

المؤمن لا يخلد في النار ولو كان صاحب كبيرة . وتجاوزوا وتشادوا في ما يجوز على الله وما لا يجوز وما يجب وما لا يجب في عصاة الانبياء المطلقة وامكان صدور الاخطاء منهم ووقوع السحر عليهم ، وفي المفاضلة بينهم وبين الملائكة ، وفي عصاة الملائكة المطلقة وامكان صدور المفوات والاططاء عنهم ، وفي خلق القرآن ، وفي صفات الله وكونها ذات الله أو غير ذاته ، وفي امكان رؤية الله أو رؤية الجن والملائكة الخ من المسائل الكلامية الخلافية الكثيرة .

واستند كل فريق الى آيات قرآنية تؤيد رأيه في كل مسألة من تلك المسائل ، وأول ما استند اليه الفريق الآخر من الآيات التي يتعارض ظاهرها مع رأيه ، واستغرق الفريقان في الجدل والنشاد والتجادب كل يؤيد مذهبه ويندد بالمذهب المخالف حتى خرجا في احيان كثيرة عن وقار العلم بما وجوهه الى بعضهم من الشبهة والتسفيه والغمز والانتقاص بل والتكفير ، وحتى يبدو للذي ينعم النظر ان كلا الفريقين بصرف احيانا الكلام عن وجه الحق ويتجاوز ويتكلف فيه عصبية للجزئية المذهبية ان صح التعبير مع ان كلا منهم في الاصل صادق الايمان والاخلاص مستهدف تنزيه الله وتوقيره .

وفي تفسير الكشاف للزمخشري وهو من اعلام علماء القرن السادس الهجري ويمثل مذهب الاعتزال او ما يسميه مذهب أهل العدل والتوحيد وفي تعليقات القاضي ابن المنير عليه وهو من علماء القرن السابع ويمثل مذهب الاشاعرة من أهل السنة أمثلة كثيرة على ذلك حتى ليصح ان يقال ان التفسير والتعليق قد استهدفا هذه الوجهة في الدرجة الأولى . يقول الزمخشري في سياق تفسير جملة « كالذي يتخطه الشيطان

من المس . سورة البقرة ، ونحبط الشيطان من زعمات العرب ، حيث يزعمون ان الشيطان يتخبط الانسان فيصرعه ، ثم يستطرد فيقول ورايت لهم - ويقصد أهل السنة - قصصا واخباراً وعجائب في الجن ، وانكار ذلك عندم كانكار المشاهدات ، فيعلق ابن المنير على هذا القول فيقول انه على الحقيقة من تخبط الشيطان بالقدرية - يعني المعتزلة - في زعماتهم المردودة بقواطع الشرع فاحذرهم قائلهم الله .

ويقول الزمخشري في سياق تفسير جملة « كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران » . سورة الانعام ، ان هذا جاء على ما كانت تزعمه العرب فيعلق ابن المنير قائلا ومن انكر استيلاء الجن على بعض الناس واستهواهم حتى يحدث من ذلك الحبط والصرع فهو بمن استهوته الشياطين في مهامه الضلال الفلسفي .

ويقول الزمخشري في سياق تفسير جملة « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة » . سورة النساء ، بوجود قبول التوبة على الله فيعلق ابن المنير قائلا انه اطلاق يتقيد عنه لسان العاقل ويقشعر منه جلده استبشاعا لسماعه ويتمتع القلم عند تسطيره . على ان من لطف الله انه لم يجعل حاكمي الكفر كافرا وحاكمي البدعة لضرورة ردها مبتدعا .

ويقول الزمخشري في سياق تفسير جملة « يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم » . سورة المائدة ، ان غلوهم كغلوا الاشاعرة في جعلهم لله صفات أفعال فهم كالنصارى ، فيرد عليه قائلا ان التشبيه بهم اولى ، فالنصارى غلوا فجعلوا الاله ثلاثة ولكن المعتزلة غلوا فجعلوا كل آدمي خالفا وشريكا لله .

وفي سياق تفسير معنى استواء الله ووجهه ويده وتزوله وعروجه يورد
الزمخشري الايات المشهورة :

وجاعة سموا هوام سنة جماعة حمر لعمرى مؤكفة
قد شبهوه بخلفه وتخوفوا شنع الوري فتستروا بالملكفة (١)
فيورد ابن المنير رداً عليه الايات التالية :

وجاعة كفروا بروية ربهم حقاً ووعده الله ما انت يخلفه
وتلقبوا الناجين كلا انهم ان لم يكونوا في لظى فعلى شفه

ويذكر الزمخشري رواية عن طاووس التابعي جاء فيها انه طرد
رجلاً من مجلسه يقول بالقدر قليل له هذا فقيه فقال ابليس افقه منه لانه قال
فما اغويتني وهذا يقول اني اغوي نفسي ، ثم يقول ان الرواية من تكاذيب
المخيرة الذين بلغ بهم من تم الكم على اضافة القبائح الى الله انت افقوا
الا كاذيب على الرسول والصحابة والتابعين ، فيرد ابن المنير فيقول ان
كلامه حيدان عن العقيدة الصحيحة ، وان ذنب اهل السنة انهم يؤمنون
بخالق واحد في حين ان القدرة ينهالكون حتى لبشر كون كل شخص مع
الله في الخلق .

ويحمل الزمخشري على الاشاعة في سياق تفسير جملة « ومن الناس
من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . سورة الحج » فيقول
وما ارى رؤساء اهل الاهواء والبدع والحشوية المتلقين بالامامة في دين
الله الا داخلين تحت هذا دخولا اوليا ، بل هم اسد الشياطين ضلالا واقطعهم

(١) منقوطة عن جملة « بلا كيف » يعني ان الاشاعة يقولون ان الله استوى
على العرش ولكن دون ان يعرف احد كيفية هذا الاستواء .

لطريق الحق حيث دونوا الضلال تدويناً واقتدوا أشباعهم تلقيناً وكانهم
ساطوه بلعومهم ودمائهم .

ويزدد بمخضومه في صدد تفسير جملة « يفقر لمن يشاء ويعذب من يشاء »
فيقول إن أهل الأهواء والبدع يتصامون عن آيات الله فيضطربون خبط
عشواء ويضطربون لأنفسهم بما يفترون على ابن عباس في قولهم هذا ، وإن
انتظار الغفران بدون توبة وانتظار الشفاعة بدون سبب غرور
وحق وجهالة .

وفي إحدى المناسبات يشبه ابن المنير المعتزلة بالمشركين ويقول أنهم
يقولون هذا لله يزعمهم وهذا شركائنا حيث يثبتون خالفاً غير الله ولا
يأنفون عن اثبات رازق غيره فأنى يؤفكون .

وفي سبيل الهوى المذهبي يصرف الزمخشري جملة « وكلم الله موسى
تكليماً . سورة النساء » إلى معنى جرحه الله بمخالف قدرته . ثم ينسى
هذا فيقول في سياق آية « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه . سورة
الاعراف » اسمعه الله كلاماً وحروفاً واصواتاً خلقها في ما حوله .

وبينما يؤول الزمخشري « عرش الله » في سياق آيات عديدة بعظيم
قدرته وملكه يقول في سياق آية « وكان عرشه على الماء . سورة هود »
إن فيها لدليلاً على أن العرش والماء قد خلقا قبل السموات والأرض ،
فيعتوف بذلك بوجود مادي للعرش يناقض تأويله الأول .

وهذا قليل متنوع المدى من كثير جداً في الكشف وتعليقات ابن
المنير عليه يكفي لإيضاح ما قصدنا إليه . وليس معنى اكتفائنا بنقل
ما جاء في الكشف والتعليقات أنها الوحيدتان في هذا الباب ، فإن
المدقق في مختلف كتب التفسير كالخازن والبيضاوي وأبي السعود

والرازي وغيرها يجد غمزات شديدة وخفية في مناسبة كثير من العبارات
القرآنية ، وتنبيهات على ما فيها من دلائل ضد مذهب مخالفينهم ، او
على ما في استناد هؤلاء التحالفين اليها من وهن كما يجد توجيهات وتأويلات
تتسق مع مذهبهم وتؤيده سلباً او ايجاباً . ومن ذكرهم صاحب الاتفاقان
على غلط الزمخشري في اتخاذ تفاسيرهم وسيلة الى طرح مذاهبهم وتأيدها
والطعن على غيرهم عبد الرحمن بن كيسان الاحم والجبائي وعبد الجبار
الرماني .

وهذا عدا ما احتوته الكتب الكلامية والخلافية والنحلية والمذهبية
الاخرى من التشاد والتعاذب حول العبارات القرآنية وصرفها من جانب
كل فريق الى مذهبه تقريراً او تأريلاً بما هو خارج عن مدى الموضوع
الذي نحن بسبيل التنبيه عليه وان يكن فرعاً من اصل .

وليس بعيننا هنا بيان المصيب او تأييد مذهب على مذهب ، وانما
يعيننا الثغرة في الاسلوب ، وبيان ما صارت اليه كتب التفسير بسببه
من معارض تشاد وتنفية ومهاورة وتكلف في صدد الجدل الكلامي .
ومع ان من المسلم به ان النصوص القرآنية في حد ذاتها مستند للعقائد
والاحكام والتشريع الاسلامي ، الا اننا نعتقد ان اصحاب المذاهب
الكلامية والخلافية قد تكلفوا وعملوا في كثير مما تعاذبوا وتشادوا فيه
على غير طائل ولا ضرورة ، وانهم حملوا العبارات القرآنية ما لا محل
لتحميلها اياه ولا يقتضيه السياق الذي جاءت فيه ، وان هذا قد نشأ بنوع
خاص من اخذهم اياها مستقلة لذاتها في حين تكون قد جاءت متصلة
بسياق لا تفهم على وجهها الا معه ، وبمناسبة لا تلغ حكمة صيغتها الا
بملاحظتها ، او على سبيل التقريب والتمثيل ، او على سبيل التسلية

والتطمين او التنديد والتسفيه او الحجاج والالزام او الحكاية النع تبعاً
 لتنوع الاساليب والمناسبات القرآنية ومواقف واحداث السيرة النبوية
 مما يمكن ان يتبينه كل من اتمعن النظر في المجموعات القرآنية التي وردت
 فيها العبارات التي تكون موضوع التشاد والتجاذب ، وان العبارات
 القرآنية اذا ما نظر فيها مع سياقها السابق او اللاحق او كليهما زال الموم
 فيها وانسقت التقريرات والمعاني القرآنية ، وان محاولات اهل المذاهب
 الكلامية والخلافية هذه تجعل القرآن يناقض بعضه بعضاً مما يجب نزع
 عنه وبما هو . نزع عنه فعلاً بنص القرآن .

وبما يحسن ابراده هنا ما جاء في تفسير الرازي حيث قال في احدى
 المناسبات ان الرافضة يعني الشيعة - قالت ان هذا الذي عندنا ليس
 هو القرآن الذي جاء به محمد بل غير وبدل ، والدليل عليه اشتاله على هذه
 المناقضات التي ظهرت بسبب المناظرات الدائرة بين اهل الجبر واهل
 القدر . واطلاق الرازي كلمته يوم ان الشيعيين جميعاً يقولون هذا ،
 وهو غير صحيح لان الشيعة والامامية خاصة تعترف بالقرآن الموجودين
 دفني المصحف اعترافاً تاماً ، وقد نقلنا في مناسبة سابقة كلمة احد اعلام
 مفسرهم القدماء الشيخ الطوسي في هذا الصدد ، ولا يمنع هذا ان تكون
 احدى فرقهم الغالبة قد قالت هذا لان من هذه الفرق من تعدد هدم
 الاسلام والتشكيك في القرآن تعدياً . وعلى كل حال فان كلمة الرازي
 حدى لما كان من تجاذب وتشاد حول العبارات القرآنية في سبيل الخلاف
 المذهبي وتأييد لما نحن في صدده من ضرر ذلك وخطاه ، واعتباره ثغرة
 خطيرة في تفسير القرآن .

وما ذكرناه هو ما يتصل بالخلاف المذهبي الكلامي . وهناك تفسير

عديدة احتوت اشياء كثيرة مما يتصل بالخلاف الشيعي السني ومنه ما اتخذ وسيلة الى تقريرات وتاويلات متصلة بهذا الخلاف ، مما يبت الى الثغرة التي نحن بصدده التنبيه عليها ، وبما ينسحب عليه الكلام الذي قلناه آنفا بطبيعة الحال . ولقد اشرنا الى بعض هذه التقريرات والتاويلات في مناسبات متنوعة ، ونكتفي هنا بايراد شيء منها منقول عن تفسير التبيان للشيخ الطوسي .

ففي سياق تفسير آية آل عمران المعروفة بآية المباهلة ، فان حاجوك من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابنناكم وابنائكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين - ٦١ ، قال الشيخ دون استثناء الى حديث او رواية ولما نزلت الآية اخذ النبي بيد علي وفاطمة والحسن والحسين ثم دعا النصارى الى المباهلة . ثم قال واستدل اصحابنا بهذه الآية على ان امير المؤمنين - يعني عليا - كان افضل الصحابة من وجهين احدهما ان موضوع المباهلة هو تمييز الحق من الباطل وذلك لا يصح ان يكون الا بمن هو مأمون الباطن مقطوعا على صحة عقيدته وافضل الناس عند الله ، والثاني انه جعله مثل نفسه بقوله وانفسنا وانفسكم والآية تدل على ان الحسن والحسين ابنا النبي بلا خلاف لانها تقول ابنانا وتدل على ان تعبير نساء النبي بقوله نساءنا قد صرف الى فاطمة فقط ، واذ جعل النبي امير المؤمنين مثل نفسه وجب الا يدانيه احد في الفضل والابتناء به ، ومتى قيل انه ادخل في المباهلة الحسن والحسين مع كونها غير بالغين وغير مستحقين للثواب ، وان كانا مستحقين للثواب لم يكونا افضل الصحابة قال لهم اصحابنا ان الحسن والحسين كانا بالغين مكلفين لان البلوغ وكمال العقل لا يقتصران الى شرط مخصوص ، وقد تكلم عيسى

في المهد بما دل على كونه مكلفاً عاقلاً ، وقد ذكر الشيخ في سياق آية
 « اليوم اكملت لكم دينكم . سورة المائدة » أنه روي عن أبي جعفر وأبي
 عبد الله أن الآية نزلت بعد أن نصب النبي علياً علماً للامة يوم غدیر خم
 منصرفه من حجة الوداع ، كما ذكر في سياق آية « يا أيها الرسول بلغ
 ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته . سورة المائدة »
 أنه روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله أن الله لما أوحى إلى النبي أن يستخلف
 علياً كان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من اصحابه فأنزل الله هذه الآية
 تشجيعاً له . . . والمهوى الحزبي ظاهر البروز في ذلك كله .

- ٦ -

الولع بأسرار القرآن ورموزه ومنطوياته :

سادساً : ان بعض المفسرين والمشتغلين بالقرآن قد ولعوا بتخمين
 انطواء القرآن على اسرار ورموز ، واستغرقوا في استقراء الحروف
 والكلمات والتراكيب القرآنية بقصد الكشف عن تلك الاسرار والرموز
 واتسع مجال التفريع والتكلف والاعراب في هذا المجال كثيراً .

ولعل أصل هذا الولع يرجع الى بعض روايات في الحروف المتقطعة
 المنفردة التي جاءت في مطالع نحو ربيع السور القرآنية مكية ومدنية .
 فمع ان القسم الأكبر من هذه المطالع قد أعقبه ذكر القرآن والكتاب
 وتنزيله وإحكامه وحكمته قسماً أو بياناً أو تنوعاً أو تنبيهاً (١) ، ومع

(١) هي سورة الفلم و ق و ص والاعراف ويس وطه والشعراء والنمل والقصص
 ويونس وهود ويوسف والحجر ولقان وغافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان
 والجنابة والاحقاف وابراهيم والسجدة والبقرة وآل عمران والرعء . اما السور التي
 مطلعها حروف متقطعة منفردة ولم تعقب بالاشارة الى القرآن فهي سورة مريم والروم والعنكبوت

ان روحا نلهم انها جاءت بسبيل التوكيد والتنبيه واستوعاء الاسماع الى القرآن وآياته وعبره وحكمته وإحكامه مما قرره غير واحد من اعلام علماء القرآن من ابن عباس فما بعد وما تطنثن اليه النفوس ويتسق مع مهمة الذي انزل عليه القرآن وخطاب القرآن لجميع الفئات وتوكيده انه واضح مبين لا عوج فيه ولا امت ولا تمقيد ولا اختلاف فقد روى في سياق البحث في الحروف المذكورة رواية مفادها ان اليهود جاؤوا الى النبي فسألوه عما أوتيه من امر الدنيا فقال لهم (ا ل م) فحسبوا فجاءت (٧١) في الحساب المعروف بالحساب الجمل والذي هو حساب يودي بقوم على ترتيب الاحرف المعانيه العبرانية (ا ب ج د ه و ز الى اخره) فقالوا ثم ماذا فقال لهم (ا ل م) ثانية ثم (ا ل م ص) الى آخر السور فحسبوا حساب الحروف جميعها فبلغ سبعين و كسوراً من السنين (١) فأقروا بالامر تسليماً بأن النبي قد بعث بين يدي الساعة . ومع ان هذه الرواية ليست موثقة ولا يثبت مضمونها ومدادها على نقد وتخصيص من وجوه عديدة فقد تنوقلت واستفاضت في جملة ما تنوقل واستفاض في مختلف كتب التفسير والقرآن .

ومثل هذه الرواية أقوال مروية اخرى معزوة الى بعض الصحابة والتابعين ومستفيضة في كتب التفسير وليست هي الاخرى موثقة او من شأنها ان تثبت على نقد وتخصيص ذكر فيها ان هذه الحروف ترمز الى بعض اسماء الله واسماء النبي ، وانها تحتوي امراة القرآن وسر اسم الله الاعظم . ومن هذه الروايات روايتان اوردهما الرازي في سياق تفسير اول البقرة احدهما معزوة الى ابي بكر جاء فيها ان لكل كتاب سرّاً

(١) حساب الحروف جميعها يتجاوز الثلاثة آلاف والمائتين !

وسر القرآن في ارائل سورة ، وثانيتها معزوة الى علي ابن ابي طالب جاء فيها ان لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي . وهناك روايات وأقوال شيعية المصدر جاء في بعضها ان الحروف تحتوي وموداً للنبي وعلي والحسن والحسين ، وفي بعضها ان كل مطلع من المطالع المنقطعة يشير الى دور من أدوار التاريخ المنصلة بالآلة ، العلويين ، ومن ذلك ان مطلع سورة آل عمران يشير الى حادث الحسين ومطلع سورة الاعراف يشير الى دور العباسيين . وقد نقل عن تفسير الطبري ان مطلع سورة الشورى يشير الى أحداث تاريخية عظيمة في مدينتين من مدن المشرق وملكين من ملوكها ، وقد ذكر السيوطي في الاتقان ان لمحمد بن حمزة الكرماني كتاباً في مجلدين سماه العجائب والغرائب وضمنه أقوالاً ذكرت في الحروف المنقطعة . مثل (ح س ع س ق) مطلع سورة الشورى حيث ترمز الحاء الى حرب علي ومعاداة والميم الى الدولة المروانية والعين الى الدولة العباسية والسين الى الدولة السفينية والقاف الى الدولة المهدوية اللتين تظهران في آخر الزمان .

ثم اتسع القول في مدى هذه الحروف ودلالاتها الفنية والنظمية فتراى الزمخشري مثلاً بعض أسرارها ، فهي نصف حروف المعجم ، وعدد السور التي تبتدئ بها على قدر حروف المعجم ، وهي تحتوي نصف الحروف المهمة ونصف الحروف المجهورة ، وتحتوي كذلك نصف الحروف المستعلية ونصف حروف المنخفضة ونصف حروف الفلقة . وتراى لصاحب كتاب البرهان على ما ذكره السيوطي في الاتقان ان كل سورة بدأت بحرف منها فان أكثر كلماتها وحروفها مماثل له ، وحق لكل سورة منها ان لا يناسبها الا الحروف الواردة فيها ، وذكر على سبيل المثال سورة ق

حيث كان ذلك لان حرف القاف قد تكرر كثيرا في كلمات السورة ،
وسورة ص حيث كان ذلك لانها احتوت خصومات عديدة خصومة النبي مع
الكفار وخصومة الحصين امام دارود وخصومة اهل النار وخصومة ابليس ،
وسورة يونس حيث بدأت بحروف الالف واللام والراء بسبب تكرر
هذه الحروف وخاصة الراء فيها الى اخره ، والتكلف شديد البروز وفي
هذه الاقوال عند امعان النظر كما أنها غير مطردة عند التطبيق حيث
فيها النقص والزيادة والخلاف (١).

ثم اتسع القول فقال قائل انه ما من شيء الا يمكن استخراج منه
القرآن ، وانه لو ضاع عقل بعير لوجدته في كتاب الله ، واستنبط بعضهم

(١) نقول من قبيل الاستطراد اننا اطلعنا على بحث وجيز للاستاذ نصح الطاهر
تبيين تقرير كون الحروف المتقطعة تشير الى عدد آيات السور . ولم ينفذ فيها جاء
في مقاله الموجز شفاء يساعد على القطع برأي حاسم في صحة النظرية وبطلانها ، ثم في
صواب شمول الامثلة لجميع السور ذات الحروف المتقطعة على ما يقول به صاحب
النظرية . وقد تراأى لنا من الامثلة الواردة ان هناك تجورا وتحكما في حساب
الآيات ودمج بعض السور في بعض وترجيحا بغير مرجح لروايات الايات المدنية
في السور المكية والايات المكية في السور المدنية ، ولروايات اخرى في صدد عدد
وحجم بعض السور واسقاط بعض سور مشاجة في مطلعها لسور اخرى كاسقاط سورة
الحجر مع انها تبدأ بجملة «الر» واسقاط سورة الاحقاف مع انها تبدأ بجملة «حم»
وكل ذلك رغبة في التوفيق والتطبيق بسبب صدقة في حساب آيات او وحدات
وانطباق على حساب الروايات . وقد وعد الاستاذ بنشر البحث تاما شاملا لجميع
السور البدوية الحروف المتقطعة والتي يقول ان نظريته وحسابه قد صح فيها جميعا
فلنتنظر وفاء بما وعد حتى تتمكن من القطع في النظرية . وقد كتبنا هذا من قبيل
الاستطراد وليس من شأنه ان يؤثر في البحث الذي بحثناه حول ما دار في صدد
أسرار القرآن او الفاظه او رموزه وآثارها كما هو واضح .

حمر النبي ثلاثا وستين سنة من سورة المنافقون لانها الثالثة والستون من
 السور وفق ترتيب المصحف وقد جاء فيها آية « ولن يؤخر الله نفسا اذا
 جاء اجلها » وقال قائل ان نصوص القرآن ليست على ظاهرها ، وان لها
 معاني باطنة مجبوبة عن غير الواصلين والمعلمين ، وقال قائل ان علوم
 القرآن خمسون علما واربعمئة علم وسبعة آلاف علم او سبعون الف علم على
 عدد كلم القرآن مضروبة في اربعة اذ لكل كلمة ظهر وبطن وحد ومطلع
 وقال قائل انه ما من كائن ويكون من احداث الدنيا منذ بدنها الى
 منتهاها الا احتوت حروف القرآن وكلماته عليها وفيها ، وانه احتوى
 جميع علوم الاولين والآخرين ، وقال قائل ان لكل آية ستين الف فهم
 وروى رار عن علي ابن ابي طالب انه لو اراد ان يوفر حمل سبعين بعير آمن
 تفسير أم القرآن - يعني الفاتحة لفعل ، وفصل بعضهم وفود العلوم
 المستنبطة من القرآن إستناداً الى ما ورد من بعض كلمات لها صلة ما
 لغة أو معنى بعلم أو فن أو صناعة ما من العلوم والفنون والصناعات المعروفة
 فقال ان في القرآن أصل علم الهندسة مستنبطاً من جملة « ظل ذي
 ثلاث شعب . . سورة المرسلات ، وأصل علم الجبر والمقابلة
 مستنبطاً من اوائل السور التي فيها ذكر مدد امم سائلة واعوامها
 وأيامها وقواريجها وتاريخ ومدة أيام الدنيا وما مضى وما بقي بعضها
 ببعض ، وأصل علم الطب مستنبطاً من ثلاث آيات وهي آية الفرقان
 « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » وآية الاسراء
 « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، وآية النحل « يخرج من
 بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » وأصل علم الهيئة مستنبطاً
 مما ورد من ذكر ملكوت السماوات والارضين وما بث في العالم العلوي

والسفلي من المخلوقات ، وأصل علم المواقيت مستنبطاً من آيات الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبروج والمنازل ، وأصل علم التنجيم مستنبطاً من جملة «أو أثاره من علم سورة الاحقاف» وأصل علم تغيير الرؤيا مستنبطاً من قصة يوسف ، وأصل علم الحساب مستنبط بما فيه من ضروب الجمع والقسمة والضرب والاعداد والموافقة والتأليف والمناسبة والتنصيف والمضافة ، وأصل كل من علوم النحو والصرف والبيان والبديع والجدل والمنطق والتاريخ والقصص والقضاء والتشريع والفقه والفرائض مستنبطاً بما فيه من قواعد صرفية ونحوية ونظم بياني وبديعي وجدلي ومنطقي وقصصي وتاريخي واحكام وحدود وانكحة وموارث الخ ، وأصل صناعات التجارة والحداثة والزجاجة والقضارة والبناء والحياطة والصباغة والفلاحة والنحت والفخارة والكميالة والرمي والصيطة والصباغة والملاحة مستنبطاً من كلمات وآيات وردت فيها أشارات إلى هذه الصناعات أو ما يتصل بها (١)

ورأي مفسرو الشيعة ويأخضون في كثير من آيات القرآن وعباياته إشارات ورموزاً إلى علي وفاطمة والحسن والحسين مثل جملة «مرج البحرين يلتقيان سورة الرحمن» حيث ترمز إلى علي وفاطمة وجملة «يخرج منها اللاذق والمرجان» نفس السورة «حيث ترمز إلى الحسن والحسين» وجملة «الف شهر في سورة القدر» حيث ترمز إلى مدة الدولة الاموية وجملة «هذان خصمان اختصموا في ربهم سورة الحج» حيث ترمز إلى علي وخصومته لدى زبه بما وقع عليه من حيف في الخلافة، وجملة «يؤمنون

جميع هذه الاقوال واردة في الاثنان للشيخ

بالغيب سورة البقرة حيث ترمز إلى المهدي المنتظر ، وجملة « وخديناه
 بذنوب عظيم . سورة الصافات حيث ترمز إلى الحسين ، وجملة « اخرجنا لهم
 حاباة الارض نكلمهم . سورة النمل » حيث ترمز الى علي يوم رجعه ،
 وجملة « ومن عنده علم الكتاب سورة الرعد » حيث الى علي ، وجملة
 « رأيت إن متعناهم سنين - سورة الشعراء حيث ترمز الى الامويين
 وجملة « سبعا من المثاني سورة الحجر حيث ترمز الى الائمة السبعة وجملة
 « حملته أمه » كرها سورة الاحقاف حيث ترمز الى الحسين وفاطمة وجملة
 « وانه لعلم للساعة - سورة الزخرف » حيث ترمز الى المهدي وجل
 « ورددنا لكم الكرة عليهم سورة الاسراء » ويوم نخسر من كل امة فوجا
 « من يكذب بآياتنا سورة النمل » وانا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة
 الدنيا ويوم يقوم الاشهاد سورة غافر » وربما يود الذين كفروا لو كانوا
 مسلمين . سورة الحجر و « نريد ان نغن على الذين استضعفوا في الارض
 ونجعلهم أئمة » ونجعلهم الوارثين - سورة القصص » حيث ترمز الى
 الرجعة والدور الذي يكون فيه الائمة الفاطميون اصحاب السلطان
 ويتمكنون فيه من الانتقام من خصومهم وسالبي حقوقهم . حتى ان
 الناظر في ما كتبه بعضهم ايجد ان كثيراً من محتويات القرآن مصروف
 الى الائمة وذرية فاطمة ، ومحول على تأييد اقوالهم ومذاهبهم وانهم
 ورجعتهم وخصومهم وفيه من الغرائب والمفارقات العجيبة ما لا يتسع
 له اي حوصلة .

ولعل بما يتصل بهذا الباب ما أدير من الاقوال حول احاديث تزول
 القرآن على سبعة احرف فقد ورد عدة احاديث في ذلك منها ان عثمان
 بن عفان وقف على المنبر فقال أذكر الله رجلا سمع النبي قال إن القرآن

أنزل على سبعة أحرف كلها شاف وكاف الاقام فقاموا حتى لم يحصوا
 فشهدوا فقال وأنا اشهد معهم ، ومنها عن ابن عباس أن النبي قال أقرأني
 جبريل على حرف فراجعته فلم ازل أستزيدة ويزيدني حتى انتهي الى سبعة
 أحرف ومنها حديث نبوي رواه النسائي ان جبريل وميكائيل أتيا في
 فقع جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري فقال جبريل اقرأ القرآن على
 حرف فقال ميكائيل استزده حتى بلغ سبعة احرف ، وفي حديث مروي
 عن أبي بكر زيادة مفادها انه لما بلغ سبعة أحرف نظرت الى ميكائيل
 فسكت فعلمت أنه قد انتهت العدة . ومنها عن أبي عن النبي قال ارسل
 الى ربي أن أقرأ القرآن على حرف فرددت عليه أن هون على أمي فأرسل
 الى أن أقرأه على حرفين فرددت عليه أن هون على أمي فأرسل الى أن
 أقرأه على سبعة احرف ومنها حديث آخر عن أبي قال لقي رسول الله
 جبريل فقال يا جبريل اني بعثت الى امة اميين منهم العجوز والشبيخ الكبير
 والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتابا قط قال يا محمد إن القرآن
 أنزل على سبعة احرف ومنها حديث ابن مسعود أن النبي قال كان للكتاب
 الاول ينزل من باب واحد على حرف واحد ونزل القرآن من سبعة
 ابواب على سبعة احرف زجر وأمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه
 وأمثال ، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما
 نهيت عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بحكمته وآمنوا متشابهه وقولوا آمنا
 كل من عند ربنا . ومنها حديث جاء في الموطأ قال عمر سمعت هشام
 ابن حكيم ابن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأها وكان رسول
 الله أقرأنيها فكذت ان أعجل عليه ثم امهلت حتى انصرف يعني اتم صلاته
 ثم لبسته بردائه فبعثت به رسول الله فقلت يا رسول الله اني سمعت هذا

يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتها ، فقال رسول الله أرسله ثم قال
اقرأ فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ فقال رسول الله هكذا أنزلت ، ثم قال
لي اقرأ فقرأت فقال هكذا أنزلت ثم قال إن القرآن نزل على سبعة
أحرف فأقرأوا منه ما تيسر .

فمع ان هذه الاحاديث المروية ومدادها وظروفها بوجه الاجمال باستثناء
حديث ابن مسعود الذي يتحمل نصه التوقف والنظر اكثر من غيره لانه لا يتسق
مع سائر الاحاديث الواردة وفيه تقسيم وتصنيف علميين يشبهان تقسيم
العلماء المتأخرين عن عهد النبي كثيراً تلهم أنما في صدد التيسير والتسهيل
في قراءة القرآن نطقاً واداء وعدم الاحراج والاعتات في ذلك وهذا بما
قرره غير واحد من العلماء - فان البحث حولها اتسع حتى خرج عن
هذا النطاق ودخل في نطاق آخر يتصل بما ذكرناه من التخمينات حول
أسرار القرآن ومكوناته وشموله . ولقد عد صاحب الاتقان خمسة
وثلاثين قولاً في هذه الاحاديث أقلها متصل بتسهيل القراءة وأكثرها من
قبل تلك التخمينات كما ترى في هذه السلسلة .

١ - سبعة أوجه للقراءة

٢ - سبعة أوجه يقع فيها تغاير في فتح ورفع وكسر وتقديم وتأخير
وتخفيف وتشديد وادغام .

٣ - سبعة أنواع من الآيات : اية في صفات الله واية تفسيرها في اية
اخرى واية بيانها في السنة الصحيحة وآية في قصة الانبياء والرسل
واية في خلق الاشياء وآية في وصف الجنة واية في وصف النار

٤ - سبع جهات من صفات الله .

٥ - سبعة أنواع أخرى من الآيات اية في وصف الصانع واية في
إثبات الوجدانية له واية في إثبات صفاته واية في إثبات رساله واية

اثبات كنه واية في اثبات الاسلام واية في اثبات الكفر

٦ - سبع قراءات لسبعة من الصحابة وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي
وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب .

٧ - ظهر وبطن وفرض وندب وخصوص وعموم وأمثال .

٨ - نصريف ومصادر وعروض وغريب وسجع ولغات مختلفة
كلها في واحد .

٩ - سبعة ألفاظ عام أريد به الخاص وخاص أريد به العام ، وعام

أريد به العام وخاص أريد به الخاص ولفظ يستغنى تنزيهه عن
تأويله ولفظ لا يعلم تأويله الا الراسخون ولفظ لا يعلم تأويله الا الله .

١٠ - المطلق والمقيد والعام والخاص والنص والمؤول والناسخ
والمسوخ والمجمل والمفسر والاستثناء وهذا قول الفقهاء .

١١ - الحذف والصلة ، والتقديم والتأخير ، والاستعارة والتكرار ،

والكناية والحقيقة والمجاز . والمجمل والمفسر ، والظاهر والغريب
وهذا قول علماء اللغة .

١٢ - التذكير والتأنيث ، والشرط والجزاء ، والنصريف والاعراب

والاقسام وجوابها ، والجمع والافراد والتصغير والتعظيم ؛
واختلاف الادوات وهو قول علماء النحو .

١٣ - الزهد والقناعة مع اليقين والجزم والخدمة مع الجاه (والكرم

والفتوة مع الفقر ، والمجاهدة والمراقبة مع الحرف ، والرجاء

والتضرع والاستغفار مع الرضى ، والشكر والصبر مع المحاسبة

والحبة والشوق مع المشاهدة وهذا قول الصوفية .

١٤ - امر ونهى وبشارة وانداز وأخبار وأمثال .

١٥ - علم الانشاء ، وعلم الایجاد ، وعلم التوحيد والتنزيه ، وعلم صفات الذات ، وعلم صفات الفعل ، وعلم صفات صفات العفو والعقاب ، وعلم الحشر والحساب ، وعلم النيات .
١٦ - المحکم والمتشابه والناسخ والمنسوخ والخصوص والعموم والقصص .

١٧ - سبع لغات لغة قریش ولغة اليمن ولغة جرم ولغة هوازت ولغة قضاة ولغة تيم ولغة طي .

١٨ - سبعة اوجه اعراب للكلمة الواحدة حتى يكون المعنى واحداً وان اختلف لفظاً .

١٩ - سبعة احرف هي امهات المعاء وهي الالف والباء والجيم والدال والزاي والسين والعين .

٢٠ - ان جبريل كان يكرر كل كلمة سبع مرات على سبعة اوجه .

٢١ - تقرير كون القرآن نزل بثمان منسوق مفهومها مختلف مسوعها

حيث يجوز التغاير اذا لم تبدل كلمة عذاب بكلمة راحة .

وروى القائلون في معرض تدليلهم على قولهم ان ابن مسعود

كان يقرأ امهلونا مكان انظرونا في سورة الحديد ، وأنت أيها

كان يقرأ سمعوا بدل مشوا في سورة البقرة ، وان ابن مسعود

أجاز لقارىء ان يقرأ طعام الفاجر بدل طعام الاثيم في سورة

الدخان لانه لم يكن يحسن النطق بكلمة الاثيم .

٢٢ - التسهيل في التقديم والتأخير مثل جاءت سكرة الحق بالموت

بدلاً من جاءت سكرة الموت بالحق في سورة ق .

رواضح ان في كل ما ذكرناه في هذا المبحث ثغرات عديدة من

شأنها للتشويش على القرآن ومداه وعلى الناظر فيه والراغب في تفهيمه ،
وصرف القلب عن روحانيته واهدافه الوعظية والارشادية والتذكيرية
والتوجيهية ، والاستغراق في هذه الناحية حتى تنقلب جمل القرآن وكمالاته
وحروفه الى معادلات جبرية ورياضية وكميائية وتنظيمية ومنطقية
وكلامية وجدلية الى اخره مما يخرجها عن قدسيته ولا يتسق مع طبيعة
توجيهه الى مختلف طبقات الناس ، وما تقتضيه هذه الطبيعة من عدم
انطوائه على أسرار ورموز وغوامض غيبت عن فئة دون فئة ، واخضعت
بها فئة دون فئة ، كما لا يتسق مع نصوص القرآن الصريحة بأنه انزل
ليكون موعظة وهدى ورحمة للناس كافة ، وبأن الناس جميعهم مدعوون
الى تفهيمه وتدبره والتزام حدوده الايجابية والسلبية ، وهذا فضلا عن ما
في الاقوال او كثير منها من التكلف والتزويد والتعجوز والتحكم ، وعن
ما يبدو في بعضها من آثار الخلافات الحزبية والسياسية والنعلية والمذهبية
من جهة وما يبدو في بعضها من جهة ثانية من مقاصد الدس على القرآن
والاسلام من بعض النحل والفرق التي حرصت ان تثبت في الازمان ان
للتكليفات الشرعية معاني واهدافا مكنونة تخالف ظاهرها ، وان تأثير
في النفوس نحو القرآن الشكوك والريب ، فضلا عن ما يبدو من جهة
ثالثة من مقاصد التجرئة على التبديل والتغيير في نظم القرآن وكمالاته من
ناحية ما هناك من روايات الخلافات اللفظية والنظمية ، ونسكاذم تجزم ان
كثيراً من هذه الروايات الكثيرة جداً والواردة في مختلف كتب التفسير
والقراءات والمعزوة الى الصحابة ، والتي تدور في نطاق الالفاظ والنظم
تبديلاً وتقديماً وتأخيراً وزيادة ونقصاً ونحواً وصرفاً مدسوس او محرف ،
وانه يمت الى هذه المقاصد الحيثة على اعتبار ان صحة صدور القرآن عن

التي منوطة بوحدة اللفظ والنظم ، وان تشويه هذه الوحدة كقبيل بالتشكيك في صحة صدور القرآن المتداول عن النبي ، مع التنبيه على لمن لا نرى ما يمنع ان يكون بين المندمجين في هذه الروايات والتخمينات اناس ذوي نيات حسنة وطويات سليمة ومقاصد يريثة .

- ٧ -

الولع بالتفريع والاستطراد :

سابعا ان بعض المفسرين قد ولع ولما غريباً في التفريع والتقسيم والاستطراد الى البحوث المتنوعة الآلية والعقلية والكونية والكلامية والطبيعية والفقهية والفلسفية .

والعلم البارز في هذا الباب من قدماء المفسرين الرازي في تفسيره « مقاتب الغيب » وهذا الولع ليس من نوع الولع بالرموز والاسرار والمغيبات ، وهذا ما جعلنا نقرده لبذة خاصة .

وقبل كل شيء نريد ان ننبه على ان تفسير هذا الامام من ناحية متناوله العلمي الاسلوبى القديم كثر غنى ومعللة كبرى يصح ان تكون مفعرة من مفاخر المؤلفين الاسلاميين وما بلغوا اليه من رفيع المستوى في البحث والعلم وسعة الاطلاع وشمولة وطول النفس ، ولو انه الف كتابه الذي يقع في اكثر من ستة آلاف صحيفة من القطع الكبير ذي الحرف الدقيق كعملة مرتبة على حروف الهجاء او الكلمات او المواضع لكان عملاً عظيماً لا غبار عليه ، ولكن التفرقة فيه انه كتبه في حدود تفسير القرآن في حين ان الناظر فيه يكاد ينسى انه يقرأ تفسيراً لكثرة التفريع وتداد المسائل والوجوه وتوالي الاستطرادات التي كثيراً ما لا تكون متصلة بالموضوع القرآني الا اتصالاً لفظياً .

وفي الصفحات الاولى لهذا التفسير يبدو ان الدافع اليه هو الرغبة في
تعداد كثرة المسائل التي تتفرع من كل فصل أو آية أو عبارة في القرآن
فيقول المؤلف مثلاً انه قال ان سورة الفاتحة يمكن ان يستنبط منها عشرة
آلاف مسألة فاستبعد هذا بعض ذوي الهمم القاصرة ، ثم يأخذ يحمل في
التعداد وفي انواع المسائل وما تحتويه من وجوه وامثلة حتى ينتهي به
القول الى ان الاستعادة وحدها تحتوي عشرة آلاف مسألة ، وان البسمة
وحدها تحتوي مثل ذلك ، وان الحمد لله رب العالمين تحتوي مثل ذلك ،
ثم يحمل فيقول ان سورة الفاتحة تحتوي ألف ألف - مبلوث - مسألة
او اكثر وليس عشرة آلاف كما قرر أولاً من باب التساهل ، فرب العالمين
مثلاً على اسلوبه تعني جميع المخلوقات السماوية والارضية من ملائكة ومسمارات
وكواكب وارضين وجن وانس ودواب وطيور وهوام ومعادن ومياه
وبحار ونباتات واشجار وما يتصل بكل ذلك من عادات ونواميس
ومعاش الى اخره ، حيث يبدو في هذا من الاغراق المعجيب في التجوز
والتوسع في سياق تفسير القرآن ما يشير العجب . ولقد بلغ عدد الصفحات
الكبيرة التي فسر فيها سورة الفاتحة مئتين وستاً وعشرين احتوت اكثر
من مئة ألف كلمة او بمقدار المصحف جميعه مرة ونصفاً . فيذكر الكلمة
من ناحية تركيبها المجازي عكساً وطردوا وتبديل مواقع حروف وثنائياً
وثلاثياً ورباعياً وخماسياً وستاسياً ، ثم من ناحية اشتقاقها ومعانيها في كل
هذه التركيبات المجازية والاوزان الصرفية ، ثم من ناحية صرفها ونحوها
ومداها الفلسفي والمنطقي والكلامي والجدي والذهني والاستعمالي والحسي
والنفسى والتصورى والفقهى ، مع استعراض اقوال وافتراض اسئلة
وايراد ردود واجوبة الى اخره ، فلا يلبث القاري كما قلنا ان ينسى انه

يقرئ تفسيراً للقرآن وإنما معناه فيها كل شيء بما حمل بعض العلماء على القول
ان فيه كل شيء عدا التفسير .

وبنفس هذا الاسلوب الاستطرادي ذي النفس الطويل يتناول البحث
في ماهية كل موضوع ، سواء أكان ذلك من مشاهد الكون والخلق
والتكوين ، ام من مشاهد الآخرة أم من مواضيع الملائكة والجن
والشياطين فيستعرض أقوال مختلف الفئات من طبيعيين والهيمن وفلاسفة
وملاحدة وفرق اسلامية في تلك المشاهد وهذه المواضيع وادلتهم
واعتراضات خصوم كل فئة وفرقة وادلتهم ويناقش ويجادل ويقرر
ويصوب ويخطئ .

وبنفس الاسلوب يدخل في بحوث جدلية كلامية فيورد أقوال مختلف
الفئات والفرق وادلتهم واعتراضاتهم على خصومهم ويناقش ويجادل
ويقرر ويصوب ويخطئ ايضا .

ومع ما على كلام المؤلف من طابع الاستقلال بوجه عام وما تدل
عليه استطراداته وتعليقاته واستدراكاته ومنقولاته من قوة العقل وسعة
الافق والنظر والمشاركة الواسعة في مختلف العلوم والمواضيع من نحو
وصرف وبلاغة ومنطق وجدل وفقه ورواية وفلسفة وطبيعيات وإلهيات
وطبيبات الى اخره فان المدقق فيها يجد كثيرا من التكلف والتحكم
والاضطراب والتخمين والمفارقة والمبالغة والاغراب في مواضع ومواضيع
كثيرة يرى القارئ شيئا منها في بعض الامثلة التي سنقلها عنه بعد قليل
وهذا بالاضافة الى نظره في القرآن جملة جملة وعبارة عبارة وسوقه
التعليقات والاستطرادات على هذا الاعتبار في الاعم الاغلب ، وإلى ما
في كتابه في صدد القصص القرآنية من تعليقات فيها ما في كتب غيره

من المبالغات والتهافت والمفارقات والاعراب ، والى ما في كتابه مع طابع الرأي والشخصية من الاحاديث الكثيرة المعزوة الى الصحابة والتابعين ومن الاحاديث النبوية التي اوردت في سياق التعليقات والاستطرادات ومناسبات النزول فيها شيء كثير لا يستند الى اسناد موثقة ولا يثبت على النقد والتبحيص .

والكتاب جميعه امثلة على ما قلناه آخذ بعضها بوقاب بعض حتى ان الناظر فيه لا يجد أي صعوبة في تلفف الامثلة في سياق اي جملة او عبارة قرآنية . ومع ان نقل غاذج في هذا المقام مؤد الى التطويل بسبب كثرة التداخل والتفرع والاستطراء وطول النفس فانتا رأينا ان نورد بعض المقطعات الموضوعية مع مثال اسلوبي واحد .

(١) تساؤل المؤلف في سياق جملة «او كصيب من السماء» - سورة البقرة - عن فائدة ذكر السماء مع ان الصيب لا يكون الا من السماء وأجاب بقوله ان ذلك لثلا بظن احتمال نزول الصيب من بعض جوانب السماء دون بعض ، فلما ذكرت السماء دل على انه عام مطبق آخذ بأفاق السماء جميعها . ثم استطرده فقال ان من الناس من قال ان المطر يحصل من ارتفاع البخار من الارض الى الهواء فتتفقد هناك من شدة برود الهواء ثم تنزل مرة اخرى فذاك هو المطر فأبطل الله ذلك المذهب حيث بين ان الصيب نزل من السماء ، واكد في آيات اخرى مثل «وانزلنا من السماء ماء طهوراً» . سورة الفرقان «و ينزل من السماء من جبال فيها من برود سورة النور ، والتكلف في التساؤل واضح كما انه ربط في استطراداته نظرية ماهية المطر بنصوص قرآنية وفي هذا تعريض للقرآن للنقاش الجدلي .

(٢) قال في سياق تعبير « يا ايها الناس .. سورة البقرة » انه روى
 عن علقمة والحسن انها قالوا ان كل شيء في القرآن بيده بهذا النداء فانه
 مكمل وما ابتداء ببدء المؤمنين فهو مدني . ثم قال ان القاضي قال ان
 هذا الذي ذكره ان كان مرجعه النقل فسلم به وان كان السبب فيه
 حصول المؤمنين في المدينة على الكثرة دون مكة فهو ضعيف لانه لا يجوز
 ان يخاطب المؤمنون مرة بصفتهم ومرة بجنسهم ، وقد يؤمر من ليس
 يؤمر بالعبادة كما يؤمر المؤمن بالاستمرار عليها فالخطاب في الجميع ممكن . وغفل
 هو والقاضي ومن نقل عن علقمة والحسن او هذان اذا كانا قالوا القول
 الذي نقل عنها عن واقعية وقطعية مدنية آيات فيها الخطاب ببدء المسلمين
 مثل آية النساء الاولى والآية (١٧٠) منها ومثل آية الحجرات (١٣) مثلا
 فأراد القائلون ان يحلوا المسئلة بالنطق او التسليم بالنقل مهما كان باذي
 الوهن دون الواقع الراهن .

(٣) قال في سياق جملة « الذي جعل لكم الأرض فراشا .. البقرة »
 انها دليل على ان الأرض ساكنة غير متحركة لا بالاستقامة ولا بالاستدارة
 فلو كانت متحركة بالاستقامة لما كانت فراشا على الإطلاق لان من ظفر
 من موضع عال يجب ان لا يصل الى الأرض لانها حاوية وذلك الانسان
 هاو والأرض اقل من الانسان والثقلان اذا توازلا كانت اقلها امرهما
 والإبطاء لا يلحق الامراع فثبت انها لو كانت حاوية لما كانت فراشا ..
 اما لو كانت حركتها بالاستدارة فلا يمكن انتفاعنا بها لان حركة الأرض
 اذا كانت الى المشرق مثلا والانسان يريد ان يتحرك الى جانب الغرب
 فيجب ان يبقى في مكانه ولا يستطيع ان يصل الى حيث يريد لان حركة

الارض اسرع ولما امكنه الوصول علمنا ان الارض غير متحركة بالاستدارة ايضا .

(٤) تسأل عن ايها افضل الارض ام السماء في سياق آية البقرة (٢٢) فأورد اربعة اقوال لمفضلي السماء على الارض هي (١) ان السماء متعبد الملائكة وما فيها بقعة عصى الله فيها احد (٢) ان آدم لما ارتكب المعصية قيل له اهبط من الجنة وقال الله لا يسكن في جوارى من عصائي (٣) ان ذكر السماء على الاغلب قد ورد مقدما والتقديم دليل التفضيل (٤) ان الله قال « وجعلنا السماء سقفا محفوظا . . سورة الانبياء » و « تبارك الذي جعل في السماء بروجا . . سورة الفرقان » ولم يذكر الارض في ذلك ، ثم أورد اقوال لمفضلي الارض وهي (١) ان الله وصف بقاعا من الارض بالبركة (٢) الله وصف جملة الارض بالبركة (٣) ان الله خلق الانبياء من الارض (٤) ان الله كرم الارض بالخلق منها في حين انه لم يخلق من السماء شيئا (٥) ان الله كرم نبيه فجعل له الارض كلها مسجداً وجعل له ترابها طهوراً .

(٥) وبما قاله في تعليل طلوع القمر وغيبابه ان الله جعل في كلا الحالتين مصلحة ، ففي غروبه نفع لمن هرب من عدوه فيستتره الظلام ويخفيه فلا يلحقه طالب فينجو ، وفي طلوعه نفع لمن ضل عنه شيء وانخفاء الظلام قبل الطلوع .

(٦) وقال فيما قاله في سياق جملة « اذ قال ربك للملائكة . . سورة البقرة » روى ان بني آدم عشر الجن وان الجن عشر حيوانات البر وهؤلاء كلهم عشر الطيور وهؤلاء كلهم عشر حيوانات البحر وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الارض الموكلين بها وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الدنيا ، وكل

هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية وعلى هذا الترتيب الى السماء السابعة ،
ثم الكل في مقابلة ملائكة الكرسي تزد قليل ، ثم كل هؤلاء عشر ملائكة
السرادق ، وعدد سرادقات العرش ستمئة الف وطول كل واحد وعرضه
وسمكه اذا قوبلت به السماوات والارضون وما فيها وما بينها فانها كلها
تكون شيئاً يسيراً وقدرأ صغيراً ، ثم كل هؤلاء في مقابلة الملائكة الذين
يحومون حول العرش كالقطرة من البحر ولا يعلم عددهم الا الله ، ثم هؤلاء
في مقابلة ملائكة اللوح الذين هم اشباع اسرافيل والملائكة الذين هم جنود
جبرائيل مثل ذلك . ثم استطرده فقال انه قرأ في بعض الكتب ان النبي
حين عرج به رأى الملائكة بمنزلة سوق بعضهم يمشي تجاه بعض فسأل
جبريل ابن يذهبون فقال لا أدري الا اني اراهم مذ خلقت ولا ارى واحداً
منهم قد رأيت قبل ذلك ، ثم سألوا واحداً منهم مذ كم خلقت فقال لا
أدري غير ان الله تعالى يخلق كوكبا كل اربعمئة الف سنة فخلق الله مثل
ذلك الكوكب منذ خلقت اربعمئة الف . وروى في سياق الجملة القرآنية
المذكورة عن ابن عباس ان النبي بينما كان في ناحية ومعه جبريل اذ انشق
افق السماء فأقبل جبريل يتضائل ويدخل بعضه في بعض ويدنو من
الارض فاذا ملك قد مثل بين يدي رسول الله فقال يا محمد ان ربك يقرأك
السلام ويخبرك بين ان تكون نبيا ملكا او نبيا عبداً قال عليه السلام
فأشار الي جبريل بيده ان تواضع فعرفت انه لي فاصح فقلت عبداً نبياً
فعرج ذلك الملك الى السماء ، فقلت يا جبريل قد كنت اردت ان أسألك
عن هذا فرأيت من حالك ما شغلني عن المسألة فمن هذا يا جبريل ، قال هذا
اسرافيل خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافاً قدميه لا يرفع طرفه وبينه وبين
الرب سبعون نوراً ما منها نور يدنو منه الا احترق ، وبين يديه الروح

لحفظ فاذا اذن الله في شيء من السماء أو من الارض ارتفع ذلك الروح
 بقرب جبينه فنظر اليه فان كان من عملي أمرني به ، وإن كان من عمل
 ميكايل أمره به وإن كان من عمل ملك الموت أمره به ، قلت
 على أي شيء انت يا جبريل قال على الرياح والجنود ، قلت على أي شيء
 ميكايل قال على النيات ، قلت على أي شيء ملك الموت ، قال على قبض
 الانفس ، وما ظننت أنه هبط الا لقيام الساعة ، وما ذاك الذي رأيت
 في الاخرفا من قيامها . .

وهذا مثال اصولي منه قال : ان جملة ديايا الناس اعبدوا ربكم
 سورة البقرة ، تحتوي مسائل (المسألة الاولى) طرز الخطاب وفيها
 فوائد (الفائدة الاولى) تحريك السمع (الثانية) توجيه الخطاب (الثالثة)
 الانتقال من الغيبة الى الحضور (الرابعة) الامر بالتكليف (المسألة الثانية)
 احتوت شرح كلمة الناس ومداها واشتقاقها (المسألة الثالثة) في النداء
 فذكر وجوه النداء وموافقه اولاً وثانياً وثالثاً (المسألة الرابعة) في
 حروف النداء (المسألة الخامسة) في صلة النداء (المسألة السادسة) في
 الامر الذي احتوته الجملة وفيها ابحاث (الاول) حرف التعريف ومداها الثاني
 موضع الخطاب (الثالث) شموله وعدم شموله للسامعين (الرابع) مدى
 الامر بالعبادة (الخامس) ما اذا كان يتناول الكفار (السادس) انكار
 التكليف واقوال المفكرين فأورد منها خمسة ورد على كل منها (السادس)
 استثنائات شمول التكليف (المسألة السابعة) حجب الدعوة للعبادة ومنها
 يستطرد الى الجملة الثانية من الآية الذي خلقكم ، وهذا الذي ذكرناه
 رؤوس اقوال فان المؤلف قد شرح كل مسألة وكل بحث وكل فائدة

احتوتها المسألة شرحاً وافياً بإيراد الوجوه ووجوه الافتراض والاقوال والادلة والرد عليها الخ واستغرق الكلام على هذه الجملة وحدها وهي نصف آية خمس صفحات كبيرة وهناك جل كثيرة جداً استغرق الكلام عليها أكثر مما استغرقه الكلام على هذه الجملة ، واستفاض الكلام فيها استفاضة أبعد عن الشروح اللغوية والنظمية ، وجاء فيها استطرادات ضخمة الصلة جداً بالجملة ومداها .

ونظن أننا في غنى عن القول إن هذا الأسلوب مشوش على الناظر في القرآن والراغب في تفهم مراميه ومبادئه واستيعاب توجيهاته وأحكامه وتلقياته الكافلة لسعادة الدارين والتي هي الأصل والجوهر فيه وفي الدعوة التي قامت عليه ، وهذا فضلاً عما فيه من مأخذ التكلف والتخمين والتزويد والاغراب وإيراد الأقوال والروايات المتهافة والاستغراق في الجدل والماهيات الكونية والفبسية والعقائدية .

وإذا كنا اختصنا تفسير الرازي بالكلام في هذه الفقرة فأننا لا نعني أنه هو وحده الذي سارع على هذا الأسلوب فهناك تفسيران عديدة وكثيرة التفريع والامتطراد إلى ما لا صلة له بتفسير القرآن إلا ما يمكن أن يكون من صلة بعيدة لغوية أو موضوعية ذكر الالتفات منها تفسير الزملي . وقد اطلعنا في إحدى مكتبات بورصة على تفسير مخطوط ضخمة وعديد المجلدات اسمه العادلي ينحو مؤلفه هذا النحو

ولعل تفسير المنار من التفسير الحديثة بما يصح أن يسلك في هذا السلك . فقد صدر منه اثنا عشر مجلداً تبلغ صفحاتها نحو ستة آلاف من القطع الكبير والحرف الدقيق لتفسير اثني عشر جزءاً من القرآن

أي ان الله لو فسح في حياة مؤلفه العظيم وانه لبلفت صفحات خمسة عشر الفا أي اكثر من ضعف تفسير الرازي ، ولعله يكون بذلك اضعف تفسير في القديم والحديث . وقد توسع مؤلفه في البحوث واكثر من الاستطرادات والتفريعات والتعليقات واكثر في كثير منها اسلوب المناظرة وخاصة بين الاسلام والنصرانية ومبشري النصرانية وكتابهم بحيث يكاد القارئ ينسى انه يقرأ تفسيراً بحيث يصعب التفرغ لقراءته ، فأبعده ذلك فيما نعتقد عن أن يكون التفسير المثالي ، مع ان التمهيص والتدقيق في بحوثه غاليان ، والتكلف والتهافت فيها قليلان وقد نّم عن فهم عميق لاهداف القرآن ومراميّه ، بحيث بعد بحق أحسن المؤلفات الاسلامية القرآنية الكبيرة واقومها وأقواها وأشدّها حرارة وحيوية . وهو من هذه الناحية معلّم اسلامية قرآنية عظيمة القدر ممن الحسرة أن يموت مؤلفها قبل انقائها ، وفرق كبير من ناحية التمهيص والتدقيق وقلة التكلف والتهافت والاغراب بينه وبين تفسير الرازي وغيره من التفاسير الكبيرة القديمة والحديثة .

ولقد اطلعنا على تفسير حديث نشر معظمه للاستاذ المراهقي (١) ومع ان قصد التحرز والتعاطي وعدم الاغراب والسير بأسلوب قريب المتناول على اوساط الافهام ملموس فيه فانه يأخذ كثيراً من الروايات والاقوال الضعيفة وغير المتسقة مع الآيات سنداً أو كقضايا مسلمة ولا يندمج في جو القرآن ونزوله وبيئته ، وليس فيه تلك الحرارة والحيوية اللتين تثيران الاهتمام والشوق فضلاً عن تفصيلات كثيرة لا طائل من وراءها أدخلته

(١) هو غير المرحوم شيخ الازهر

في عداد كتب التفسير الضخمة التي لا تسع لكثير من الراغبين بالاحاطة به واستيعابه حيث تبلغ صفحاته نحو سبعة آلاف ونيفا ، وكل ذلك لا يجعله تفسيراً مثاليا فيما نعتقد

- ٨ -

بالاضافة الى ما شرحناه من الثغرات وأوردناه من التعليقات والمآخذ حول كل مبحث من مباحث هذا الفصل فاث هناك مجوثا وآراء دارت حول القرآن ، وكانت فيما يتبادر لنا مظاهر عامة مشتركة بين هذه الثغرات يصح ان تشرح وأن يعلق عليها في هذا المقام

روايات نزول القرآن جملة واحدة واثروها

فاولا من ذلك الآثار المروية بأن القرآن قد نزل جملة واحدة الى السماء الدنيا ثم صار ينزل على النبي خلال مدة حياته بعد بعثته . فالذي يدولنا انه كان لهذه الآثار اثر قليل او كثير في بعض الثغرات التي ذكرناها او بالاحرى في أكثرها ، بحيث صارت عاملا بين حين وآخر وبقصد وغير قصد في اغفال صلة الفصول القرآنية بالسيرة والبيئة النبوية ، ومفهوم الاساليب الخطابية العربية ومدارك سامعي القرآن ومألوقاتهم ومتداولاتهم وعاملا كذلك في إسباغ معان خاصة أو مستقلة على الالفاظ والاساليب القرآنية ، واستخراج معان خاصة منها تباعد بينها وبين نزول القرآث وجو البيئة النبوية التي تتصل بالقرآن وتزوله واساليبه والفاظه اتصالا مباشراً ووثيقا على ما شرحناه في مناسبة سابقة

ومع ان من العلماء من توقف في التسليم بمدى هذه الآثار ورأى فيها تعارضا مع ما في القرآن من ناسخ ومنسوخ وجدل ، وقال إن

القرآن كان ينزل على قلب النبي من عند الله منجما حسب الحوادث فان كثيرا منهم اخذوا بها كما يبدو من التدقيق في مختلف الكتب والتفسير القديمة التي كانت عماد كتب التفسير التالية قليلا او كثيرا ، ومنهم من جمع بين الاخذ بها وبين القول بنزول القرآن حسب الحوادث معا : وجل هذه الآثار ان لم يكن كلها منسوب إلى ابن عباس مع اختلاف في النصوص والطرق :

١ - فقد اخرج الحاكم من احدى الطرق عن ابن عباس انه قال :
« انزل القرآن جملة واحدة الى سماء الدنيا ليلة القدر ثم انزل بعد ذلك في عشرين سنة ثم قرأ » وقال الذين كفروا لو لا انزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، سورة الفرقان ٣٢

٢ - واخرج الحاكم كذلك بطريق اخرى عن ابن عباس انه قال
« فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي

٣ - واخرج الطبراني من احدى الطرق عن ابن عباس قال « انزل

القرآن في ليلة القدر الى سماء الدنيا جملة واحدة ثم انزل نجوما

٤ - واخرج الطبراني كذلك عن ابن عباس من طريق اخرى انه

قال « انزل القرآن جملة واحدة حتى وضع في بيت العزة في السماء

الدنيا ونزله جبريل على محمد بجواب كلام العباد واعمالهم .

٥ - واخرج ابن ابي شيبة عن ابن عباس « ان القرآن دفع الى جبريل

في ليلة القدر جملة واحدة ثم جعل ينزله تنزيلا

٦ - واخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس انه قال « نزل القرآن

جملة واحدة من عند الله من اللوح المحفوظ الى السفرة الكرام
الكلابيين في السماء الدنيا فنزلت السفرة على جبريل عشرين ليلة
ونجمة جبريل على النبي عشرين سنة . وقد سبقت هذه الروايات
في سياق هذه الآيات :

- ١- شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن البقرة ١٨٥
- ٢- انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين الدخان ٣
- ٣- انا انزلناه في ليلة القدر القدر ١

ووردت متقاربة المدى مع بعض النباين في الصيغة في التفسير المنسوب
الى ابن عباس وفي تفاسير عديدة مثل الطبري والكشاف والحازن
وابن السعدي والبيضاوي جريا على العادة من اتخاذ المفسرين الروايات
الواردة في اغلب الاحيان عمادا للتفسير مهما كان امرها وروايتها على
ما شرحناه في مناسبة سابقة .

ولم يقتصر الامر على الروايات المعزوة الى ابن عباس فان بعض
العلماء رووا روايات وقالوا اقوالا اخرى في الموضوع فقال ابو شامة
وهو من علماء القرآن باحتمال ان يكون القرآن قد انزل الى السماء قبل
نبوة النبي . وروي عن عكرمة انه قال ان آية : فلا اقسم بمواقع النجوم
سورة الواقعة : تعني نزول القرآن منجما من السماء الاولى

وعلق بعض العلماء والمفسرين على ما تضمنته الروايات تعليقات
قطيعة وتوفيقية على اعتبار انها قضية مسلمة فقال ابو شامة ان السر في
انزاله الى السماء تفخيم امره وامر من نزل عليه ، وذلك باعلام سكان
السموات السبع ان هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لاشرف

الامم قد قربناه اليهم لتنزله عليهم ، ولولا ان الحكمة الالهية اقتضت
وحوله اليهم منجها حسب الوقائع لمبط به الارض جملة واحدة كسائر
الكتب المنزلة قبله ، ولكن الله باين بينه وبينها فجعل له الامرين بانزاله جملة
ثم انزاله مفردا . . . وقال الحاكم الترمذي انزل القرآن جملة واحدة الى
سما الدنيا تسليما منه للامة ما كان ابرز لهم من الحظ ببعث محمد ، وذلك ان
بعثة محمد كانت رحمة فلما خرجت الرحمة بفتح الباب جاءت بمحمد وبالقرآن
فوضع القرآن ببيت العزة في السماء الدنيا ليدخل في حد الدنيا ووضعت
للنبوة في قلب محمد ، وجاء جبريل بالرسالة ثم بالوحي ، كأنه تعالى اراد
ان يسلم هذه الرحمة التي كانت حظ هذه الامة من الله . . . وقال السخاوي
ان في انزاله الى السماء جملة واحدة تكريماً لبني آدم وتعظيماً لشأنهم عند
الملائكة ، وتعريفهم عناية الله بهم ورحمته لهم ، ولهذا امر سبعين الفا من
الملائكة ان تشيع سورة الانعام (١) ، وزاد سبعانه في هذا المعنى بان
امر جبريل بإملأه على السفرة الكرام وانساخهم اياه وتلاوتهم له ، وفيه
قوية بين نبينا وبين موسى في انزاله كتابه جملة ، والتفضيل لمحمد في
انزاله جملة ومنجها . . . ارجاء في تفسير الحازن في سياق سورة القدر
وبعد ايراد الروايات المذكورة سابقا : قيل انما انزله الى السماء الدنيا اشرف
الملائكة بذلك ولائها كالشرك بيننا وبين الملائكة فهي لهم سكن ولنا
مقف وزينة ، وذكر السيوطي في اتقانه انه ورد في تفسير النيسابوري
ان جماعة من العلماء قالوا نزل القرآن جملة ليلة القدر من اللوح المحفوظ
الى بيت يقال له بيت العزة فحفظ جبريل وغشي على اهل السماوات من
هيبة كلام الله فمرهم جبريل وقد افاقوا وقالوا ماذا انزل ربكم قالوا

(١) هناك حديث روى عن النبي بذلك .

الحق يعني القرآن وهو معنى قوله تعالى: حتى اذا فترع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير . . . سورة صبا ٢٣ ،
 فأتى به جبريل الى بيت العزة فأملأه على السفرة الكتبة يعني الملائكة
 وهو معنى قوله تعالى وبأيديهم سورة ، كرام سورة . . . عيسى ١٥ - ١٦ ، وآية صبا
 جاءت في سياق مشهد من مشاهد الآخرة وفيه انذار وتثديد بالكفار
 وحكي فيه موقف من مواقف الجدل بينهم وبين النبي ولا صلة قط بينه
 وبين المعنى أو المشهد الذي أورده النيسابوري ، وفي هذا مثل آخر لاخذ
 المفسرين الآيات آية أو جملة من آية وعدم ملاحظتهم السياق الذي جاءت
 فيه . . . ومنهم من ناقش ما اذا كانت جملة « انا انزلناه في ليلة القدر »
 من جملة القرآن الذي نزل جملة واحدة أم لا لانها تتضمن اخبارا وتوهم
 التعارض ، ثم خرجوها بأن معنى انزلناه في الجملة قضيناه وقدرناه (١) .
 كل هذا في حين ان هذه الاقوال وخاصة المعزوة الى ابن عباس وهي
 الاصل فيها ليست مرفوعة الى النبي ، وهي اخبار عن غيب متصل بعلم
 الله وسر ملكوته ووجوده لا يمكن العلم بها الا عن طريق النبي وهو ما
 لم يثبت فيما اطلعنا عليه ، ونستبعد صدورهما عن ابن عباس لما فيها من
 تخمين في امر لا يصح ان يلقى الكلام فيه جزافا ومن غير سند نبوي
 ثابت أو صراحة قرآنية .

وفي الروايات الوثيقة الواردة ان الوحي نزل لأول مرة على النبي
 بأول آيات القرآن في ليلة من ليالي رمضان وهو معتكف في غار حراء
 على عادته من الاعتكاف في هذا الشهر ، وما احتوته آيات البقرة والدخان
 والقدر هو فيما نعتقد إشارة الى هذا الحادث ، وقد جاءت كلمة القرآن

(١) الاقوال التي اوردناها قد وردت كلها في الاتقان للسيوطي .

في أوائل سورة المزمل التي هي من أوائل القرآن نزولاً ثم ظلت تتكرر في السور المكية والمدنية ، وكانت تعني بطبيعة الحال الجزء الذي تم نزوله على قلب النبي ، وفي هذا دليل على أن تعبير « انا انزلناه » في آية الدخان والقدر وجملة « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » في آية البقرة لا تقتضي أن تكون قصدت جميع القرآن بما يمكن أن يكون محل اشكاله أريد تحريمه على الوجه الذي خرج به .

ولقد أورد السيوطي في اتفاقه حديثاً نبوياً برواية وائلة ابن الاسفع جاء فيه أن النبي قال ان التوراة نزلت لست مضين من رمضان والانجيل لثلاث عشرة والزيور لثمان عشرة والقرآن لاربع وعشرين خلت منه ، ومسبق هذا الحديث في معرض تلك الآيات والروايات والاقوال ، ومما يمكن من أمره فليس من شأنه على فرض صحته أن يؤيد تلك الاقوال والروايات لانه ليس فيه مراحته ، وليس من المستبعد أن يكون أريد به الإشارة الى أول نزول الكتب السماوية بما فيها القرآن كما هو الواقع المروي في الاحاديث الصحيحة بالنسبة الى القرآن .

ومن الطريف ان بعض المعلقين استنبط على ما ذكره السيوطي من عدم الرد على الكفار فيما تحدوه من انزال القرآن جملة واحدة صحة ما قيل من أن الكتب السماوية نزلت جملة واحدة وقال إنها لو لم تكن نزلت جملة واحدة لكان القرآن رد على المتعدين .

واذا كان بعض العلماء توقف في ما اذا كانت جملة « انا انزلناه » في ليلة القدر ، هي من جملة القرآن الذي نزل جملة واحدة ام لا لانها تتضمن اخباراً وتوم التعارض فكم بالاحرى الآيات الكثيرة الماثلة ثم الفصول الكثيرة جداً الواردة في مختلف السور والتي تحكي حجاج الكفار

وجدلهم في القرآن وتحمديه أو تحكي مواقف الكفار من الدعوة النبوية ومن انذارات القرآن وتبشيراته باليوم الآخر وحسابه وثوابه وعقابه ، وهزؤهم بالنبي وتحمديه بأحداث المعجزات وانزال الملائكة الخ ، ثم التي تحكي وقائع السيرة الجهادية والنشورية ، ثم التي تندد بالكفار وتصور عذابهم وتحتم لهم الخلود في النار وتلك التي تذكر اسلام كثير منهم وتوبة الله إليهم وانتقالمهم من صف الكفار الى صف المسلمين ومن مصير الخلود في النار الى الخلود في الجنة وأمثال ذلك بما كان يقع نتيجة لسير الدعوة وظروفها الطارئة وبما يغلب عليه طابع الوسائل التوعيمية لاهداف القرآن وأسمه ودعوته . ولا ندري كيف سوغ القائلون لانفسهم بعد هذا ان يقولوا ان القرآن - وهم يعنون جميع ما بين الدفتين من أسس ووسائل - قد نزل جملة واحدة يوم بعثه النبي او قبله .

وعلى كل حال فان ما ساقه القائلون في حكمة انزال القرآن جملة واحدة الى السماء عند بدء النبوة او قبلها وكذلك ما علقوا به من تعليقات هي الاخرى أقوال تخمينية ، وفيها من التكاف والتزيد بل والتهاافت ما يستطيع ان يلمسه المدقق الذي ينعم النظر ، وان القول في اصله يظل غير مفهوم الحكمة ، وغير متسق مع طبائع الامور وحقائق الاشياء ، ولقد غاب عنهم فيما يتراءى لنا ان القرآن بصفته وحي الله قد تحققت فيه جميع معاني التعظيم والتفخيم والتكريم ، وانه ليس في حاجة الى المزيد بمثل هذه المظاهر كما غاب عنهم انهم يقررون ماهيات مادية عن السماء الاولى وبيت العزة والحفظة والسفرة والتوزيع على جبريل وتلقي جبريل عنهم ، ويصفون مشاهد ابصارية لا يصح القاء الكلام فيها جزافا ، وليس عندهم اي دليل نقلي ثابت وصحيح صادر عن النبي الذي هو وحده صاحب الحق في الاخبار عن الغيبيات .

ومها يكن من امر فان هذه الاقوال تدل على ان كثيراً من
 الناظرين في القرآن وعلمائه ومفسريه اعتبروا او يقع الوم بأنهم اعتبروا
 للقرآن - ومن جمله الفصول الواسطية والتدعيمية والوقائع الجهادية
 والاسئلة والاجوبة ومواقف التحدي والجدل والحجج المتقابلة -
 مستقلا في اصله عن الاحداث التي نزل بها ناسياها، وكون هذه الاحداث ليست
 الا ظروفا عابرة لنزوله حتى مع قولهم ان القرآن قد نزل منجما حسب
 الحوادث - لان هذا يبدو غريبا ازاء القول ان القرآن نزل في بدء نبوة
 النبي او قبلها جملة واحدة الى سماء الدنيا - فقالوا ما قالوه وولعوا بما
 ولعوا به من استمرار القرآن ، واستقراء حروفه ورموزه ومغيباته ،
 واستغراقها في ماهيات ما جاء فيه من مشاهد كونية وقصص تاريخية ،
 وحاولوا ان يستخرجوا حقائق ما كان ويكون من الوقائع والمعلوم
 ونظرياتنا ، وفي هذا ما فيه من النكاف والتجاوز والتشويش وتعريض
 القرآن للمغامز والمطاعن في حين انه لا طائل من ورائه ولا ضرورة له
 ولا اسناد وثيقة تدعمه .

- ٩ -

روايات نزول القرآن بالمعنى واثرها:

ثانياً ومن ذلك ما قاله بعض العلماء من نزول القرآن على قلب النبي
 بالمعنى لا باللفظ . فقد ذكر صاحب الانتان هذا الموضوع في فصل كيفية
 نزول القرآن على قلب النبي بالمعنى لا باللفظ . فقد ذكر صاحب الانتان
 هذا الموضوع في حل كيفية نزول القرآن ، وقال ان هناك اربعة اقوال
 (١) انه نزل باللفظ والمعنى وان جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ
 ونزل به (٢) ان جبريل انما نزل به بالمعاني خاصة وان النبي علم تلك المعاني

وعبر عنها بلفظ العرب ، واستند قائلو هذا القول بظاهر قوله تعالى : وتزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين . الشعراء ١٩٣ - ١٩٤ .
 (٣) ان القرآن ألقى الى جبريل بالمعنى وأنه عبر عن المعاني بالالفاظ العربية ، وما نزل على النبي ، وان أهل السماء يقرأونه بالعربية (٤) ان الوحي نزل باللفظ حيناً وبالمعنى حيناً فما نزل باللفظ فهو القرآن . وما نزل بالمعنى فهو السنة ، اي ان الاحاديث النبوية هي ايضا وحي رباني ولكنها نزلت بالمعنى ، وعلل اصحاب هذا القول انه كان يقصد التخفيف عن الامة ، ولذلك جازت رواية الاحاديث النبوية بالمعنى .

وبلاحظ ان هذه الاقوال تخمينية ، ولم يورد قائلوها اسنادا موثقة لها في حين ان الموضوع متصل بسر وحي الله وسر النبوة كذلك ، فهو امر غيبي ايماني لا يصح قول شيء فيه الا بنص صريح من قرآن او حديث ثابت عن النبي ، وما دام انه لم يرد شيء من ذلك ، وان النبي قد بلغ القرآن الموحى به اليه بالفاظه العربية التي دونت وحفظت عنه بالتواتر البقيني فليس من محل للقول ان القرآن اوحى اليه بالمعنى كما انه ليس من ورائه طائل ، وان الحق في هذا هو ما ينسق مع الواقع وحسب وهو ان ما بلغه النبي من ألفاظ القرآن هو ما نزل الوحي به على قلبه ، وأنه لا يصح ان يعدل عن هذا الى غيره بالظن والتخمين .

على ان النصوص القرآنية هي في جانب ما نقول ايضا اكثر منها في الجانب الآخر او في جانب السكوت . فأيات يوسف (٢) والزخرف (٣) والزمر (٢٨) وفصلت (٣ و ٤٤) التي تذكر تنزيل القرآن عربيا وجعله عربيا - وقد نقلناها في مناسبات سابقة - تحتوي قرائن بل دلائل قوية على قصد تقرير كون الالفاظ العربية التي بلغها النبي هي ما نزل الوحي به على قلبه .

ومن الغريب ان القائلين بنزول القرآن بالمعنى استندوا الى آيتي الشعراء ١٩٣ - ١٩٤ اللتين نقلناهما وغفلوا عن ما بعدها بنسنان عربي مبين ١٩٥ ، كما هي العادة من اخذ آية دون آية ودون سياق للتدليل بها على رأي ما في حين ان بعضهما اي الآية (١٩٥) يحتوي ما ينقض ذلك بصراحة ، ومن الغريب اكثر ان لا يحتاج القائلون بنزول القرآن بألفاظه بهذا النص القرآن في الصريح القاطع .

وبما يجدر التنبيه عليه في هذه المناسبة أن القول بأن الاحاديث النبوية بما كان ينزل به الوحي بالمعنى على اطلاقه لا يتسق مع الواقع والنصوص القرآنية . فقد احتوت آيات عديدة عتاباً للنبي على بعض الحوادث والوقائع والمواقف والاقوال التي صدرت منه بل وعلى بعض الافكار والخطرات التي دارت في ذهنه في العهد المكّي والعهد المدني على السواء بما تشير اليه آيات سورة عبس ١ - ١٠ والاسراء ٧٣ - ٧٥ وهود ١٢ والانفال ٦٧ - ٦٨ والنوبة ٤٣ و ١١٣ - ١١٧ والاحزاب ٣٧ والتحریم ١ - ٢ والنساء ١٠٥ - ١١٤ ، فلو كان كل ما قاله النبي وفعله وفكر فيه وحياً على اطلاق القول لما كان محل لمعاتبته . ولقد اثار عن النبي حوادث واخبار واحاديث كثيرة ووثيقة في تقرير كونه بشراً قد يخطئ ويصيب في اجتهاداته في امور الدنيا وسياساتها وفي ما يبدو له من ظواهر الامور التي لا يكون مطلعاً على بواطنها وملابساتها ، وانه لا يخلف على شيء فيرى ما هو خير الا كفر عن يمينه وأنى الذي هو خير الخ .

ولقد استند القائلون بالوحي العام الشامل الى آيتي سورة النجم وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى ٣ - ٤ ، مع ان روح الآيات وسياقها هما في صدد تأكيد صحة ما اخبر به النبي عن اتصال وحي الله

به بصورة عامة كما هو المتبادر منها ، وهو ما تكررت في صدره الآيات
واستهدفته ، وإن من التجوز تشميل مداها لكل قول صدر عن النبي
لتعارض ذلك مع الوقائع والنصوص .

وتريد أن تنبه على نقطة هامة ، فنحن لا نعني بما نقرره أن لا يكون
النبي في كثير مما قاله وفعله وأمر به ونهى عنه وخاصة بما لم ينزل فيه
قرآن نافض أو معدل أو معاتب ملها به من الله ، ففي القرآن دلائل
هديدة على أن كثيراً مما وقع من النبي قبل نزول قرآن به قد وقع بالهام
وباني ، وإن القرآن الذي نزل بذلك جاء مؤيداً له فيه ، كما أن جميع ما
ثبت عن النبي من سنن قولية وفعلية ، وأوامر ونواه مات عنها دون أن
ينقضها هو أو القرآن هو تشريع واجب الاتباع بنص القرآن (١) ، وإنما
الذي نعنيه التعليق على القول بأن جميع السنن النبوية القولية والفعلية وحي من جنس الوحي
القرآني مع فارق واحد وهو أن هذا باللفظ وذلك بالمعنى بما لم يرد ما
يؤيده من حديث نبوي ثابت أو نص قرآني صريح ، وبما لا يجوز الكلام
فيه بالظن والتخمين والاجتهاد . وفي القرآن مشاهد كثيرة تدل على أن
النبي كان يجتهد في أمر فينزل القرآن مؤيداً له ومثبتاً فيه ومنه دأب الذين
وقفوا منه موقف المخالفة أو التردد أو التمرد ، فلو كان ذلك وحياً من
جنس الوحي القرآني مع ذلك الفارق لكان يقتضي أن ينص عليه حين
صدوره عن النبي ، أو حين تثبيت النبي فيه قرآنياً بعد صدوره أنه كان
وحياً وبانياً وهذا لم يقع .

(١) اقرأ آيات الحشر ٧ والنساء ٨٠ وآل عمران ٣١

ولقد استهدف بعض الذين قالوا ذلك تقرير العصمة النبوية . وننبه على ان ما نقرره لا يمس هذه العصمة ، عدا أنه قائم على براهين محكمة قرآنية وواقعية . فالعصمة النبوية تتناول ما يبلغه النبي عن الله وآيات النجم مصوبتان على هذا المعنى ، والمبلغ عن الله بصراحة هو القرآن فقط ثم تتناول امتناع النبي عن اقتراح اثم او جرعة او فاحشة او مخالفة للقرآن قولاً وفعلًا ، ولا تتناول فيما نعتقد الاقوال والافعال والمواقف الاجتهادية والمادية التي لم تؤيد بقرآن وليس فيها اية الاثم والضرر والشر والمخالفة ، والتي قد يكون فيها الخطأ والصواب وخلاف الاولى الذي في علم الله والذي لا ينكشف للنبي الا بوحى . وفي القرآن مشاهد عديدة تدل على ان النبي كان يجتهد في امر فيصدر عنه قولاً او فعلاً فينزله القرآن معاتباً حيناً ومنبهاً او مذكراً حيناً بما هو الاولى كمشاهد امرى بدر وتحريم النبي على نفسه زواجه واستغفاره لاقاربه من المشركين واذنه للمعتزين عن الانضمام لحمة قبوك ، وزواجه بطلقة متنبية وحادث الاعمى وخطرات نفسه في التساهل مع المشركين مما احتوت الاشارات اليه سورة الانفال والتحريم والتوبة والاحزاب وعيسى والامراء ، مما لا يمكن ان يحتمل القول معه ان ذلك كان الهاماً رابانياً في معنى الوحي البتة . ونحن من المؤمنين بالعصمة النبوية ولكن لا على ذلك المعنى الذي يجعل النبي يمنع عليه ان يصدر منه أي اجتهاد في خلاف الاولى الغيب عنه علمه او اي خطأ يرتي بما لا يمكن ان ينتفي عن الطبيعة البشرية النبوية المقررة في القرآن ، وبما تنعدم به حكمة البناء العظيم الذي اثناء الله في القرآن على اخلاقه ، وحكمة اختصاصه من دون الناس بالرسالة، ولكن على المعنى الذي يتحقق في الكمال النبوي خلقاً وروحاً وعقلاً والذي

لم يصل النبي الى درجة الاصطفاء الرباني الا بعد ان وصل اليه ، فصار من
سمو الاخلاق وصفاء الروح وعظم القلب ورجاحة العقل الى ما يرتفع به
من كل ما يشين ، ثم على معنى عصمته من أي خطأ في تبليغ ما اوحى اليه
والتزاه له بكل دقة وامانة وضدق واستغراق .

ومها يكن من امر ، ومع ان كثيراً من العلماء على رأي ان القرآن
نزل بالفاظ عربية ، وان ما بلغه النبي من الفاظه هو ما القى اليه من
الوحي فالذي يتبادر لنا ان لتلك الاقوال أثراً في الروايات الكثيرة عن
خلافيات القراءة وخاصة الخلافات اللفظية والنظمية من بدل كلمة بكلمة
ومن تقديم وتأخير بما اوردها امثلة عديدة عنه في مناسبة سابقة ، او ان
الذين تداولوا ودنوا هذه الخلافات دون تحصيل ونقد قد تأثروا بهذه
الاقوال ، او ان الذين اخترعوا وفسوا هذه الخلافات او بعضها بقصد
التشكيك قد استغلوا وروجوا هذه الاقوال ، او ان كل هذا قد وقع
معاً ، كما انه بما يتبادر لنا ان تكون هذه الاقوال قد اثرت او تأثرت
بأحاديث الاحرف السبعة وتأويلاتها العجيبة التي ذكرنا بعضها سابقاً ،
وخاصة ما ورد في بعض وجوها من انها بقصد تقرير ان القرآن قد نزل
بمعان متسقة مفهومها ، مختلف مسموعها حيث يجوز التباين اذا لم تبدل كلمة
عذاب بكلمة رحمة .

ولعل ما عزي الى أبي حنيفة من تجويزه الصلاة بقراءة القرآن بالترجمة
الفارسية ، وتقريره ان المهم في القرآن هو المعنى متصل بهذه الاقوال
وهو ذكر الزمخشري ان أبا حنيفة استند الى ما روي عن ابن مسعود
من اجازته لقارئه بقراءة « طعام الفاجر » بدلا من « طعام الانيم » على
شرط ان يؤدي الترجمة المعاني على كمالها ، وعلق الزمخشري على هذا

بقوله ان هذا الشرط بمثابة المنع لان في كلام العرب وخصوصا القرآن الذي هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه واساليبه من لطائف المعاني والاعراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها ، ولم يكن ابو حنيفة مجنون الفارسية فلم يكن ذلك التقرير منه عن تحقيقه وتبصر ، ثم قال ان صاحبي ابي حنيفة انكروا جواز الصلاة بالقراءة الفارسية ، وان علي بن الجعد روى عن ابي يوسف ان ابا حنيفة هو على رأي صاحبيه في الانكار . ونسبه على اننا لسنا هنا في معرض منع ترجمة القرآن او عدم جوازه ، بل اننا نرى هذا مفيداً جداً وواجباً لازماً في سبيل نشر الدعوة الاسلامية القرآنية العظمى ، كما ان عموم الرسالة النبوية ، وعموم الخطاب القرآني لجميع الناس من الدلائل على هذا الوجوب ، على ان يقوم بها الاكفاء في فهم القرآن ولغته ولفه ترجمته ، وعلى ان يكون القصد منها النشر والدعوة والتبشير لا الصلاة بها ، حيث نعتقد بصواب رأي ابي يوسف والحسن صاحبي ابي حنيفة في انكار الصلاة بها وعدم جوازها الا بالالفاظ القرآنية العربية التي نزل القرآن بها ، لان القرآن قد وصف فيه بأنه قرآن عربي ولا يمكن ان يعتبر قرآناً تصح به صلاة الا بهذا الوصف .

- ١٠ -

الخلافاً على خلق القرآن وآثوره :

ثالثاً : ومن ذلك ما دار عليه الخلاف الكلامي المشهور من كون القرآن مخلوقاً او غير مخلوق . ومع ان هذه المسألة فرع من أصل موضوع صفات الله ومعانيها ومداهما فانما اشتهرت اكثر من غيرها لان الخلاف فيها ادى الى احداث تجاوزت الجدل الكلامي بين العلماء الى المبدات السياسية ، وكان من آثارها فتن عمياء اربقت فيها الدماء واضطهدت حرية

الرأي والعقيدة ، وأزدرى فيها العلماء واشترك فيها الفوغاء مع الساحة
في ساحة واحدة حتى صارت رئيسية ، وحتى قال بعضهم ان علم
الكلام قد سمي بهذا الاسم بسبب الخلاف الشديد المشهور على صفة
الكلام الالهي المنصبة بمسألة خلق القرآن وعدمه .

ولان الخلاف من حيث الاساس بين المعتزلة الذين سموا انفسهم اهل
العدل والتوحيد وبين اهل السنة الذين التزموا ما كان عليه السلف من
قول وما وردت به الاحاديث او دلت عليه الآيات ، او كانوا في موقف
يرون انفسهم فيه كذلك . على ان هؤلاء اختلفوا في القول حيث ان
ابن حنبل وأشباهه قالوا غير ما قاله أبو الحسن الاشعري وجماعته مثلاً ،
ومن اصول الخلاف بين المذهبين صفات الله ، فالمعتزلة قالوا ان صفات
الله هي ذات الله فهو عالم بذاته قادر بذاته متكلم بذاته الخ اي بدون علم
وقدرة وكلام زائد عن ذاته او غير ذاته ، على اعتبار ان الذهاب الى كون صفات
الله القديمة بقدمه غير ذاته هو تعدد الله القديم الذي يستحيل عايه التعدد ،
واهل السنة قالوا ان لصفات الله معنى زائد عن ذاته فهو عالم بعلم وقادر
بقدرة ومتكلم بكلام ، واحتزوا بهذا لمنع تعدد الله القديم بتعدد صفاته
لانهم مثل اولئك معتقدون باستحالة التعدد في حق الله ، ثم تكشف
الخلاف في هذا الباب حول صفة كلام الله وماهية القرآن باعتبار كلام
الله ، فقال الاشاعرة ان الله متكلم بكلام ازلي قديم زائد عن ذاته وغير
منفك عنها ، وان القرآن معنى قائم بذات الله ، وقيدوا انهم لا يعنون
بذلك الحروف والاصوات المقروءة المسووعة المكتوبة ، ومثلوا على ذلك
بالفرق بين ما يدور في خلد الانسان من كلام دون ان ينطق به ، فهو
شامل في آن واحد لجميع الكلام الذي يدور في الخلد ، اما الحروف

والاصوات المفرومة المسموعة المكتوبة من القرآن فانها ليست من تلك الصفة القديمة وانما هي من الحوادث ، لانها تابعة لترتيب يتقدم فيه حرف عن حرف نطقاً وكتابةً ومعها وهذا من سمات الامور الحادثة ، واغترق الحابطة وهم من اهل السنة عن الاشاعة في تقريرهم ان حروف القرآن المكتوبة المفرومة واصواتها المسموعة غير منفكة عن صفة كلام الله الازلي القديم وانها مثلها قديمة ازلية ايضاً اي ليست حادثة ولا مخلوقة . اما المعتزلة - والشيعية الامامية مثلهم في اكثر المذاهب الكلامية - فقد قالوا ان الله متكلم بذاته بدون كلام زائد عنها ، وانه يخلق الحروف والاصوات في الاعراض فتقرأ وتسمع ، وان القرآن باعتبار انه متصف بما هو صفات الخلق وسمات الحدوث من تأليف وتنظيم واتزال وتنزيل وكتابة وسماع وعروبة وحفظ وناسخ ومنسوخ الخ هو مخلوق ولا يصح ان يكون قديماً ازلياً ، ويقولون ان القرآن اسم لما نقل اليه عن دفتي المصحف تواتراً وهذا يستلزم كونه مكتوباً في المصاحف مقروءاً باللسن مسموعاً بالآذان وكل ذلك من سمات الحدوث بالضرورة ، فيجيبهم الاشاعة بانه كلام الله مكتوب في مصاحفنا محفوظ في قلوبنا مقروء باللسن مسموع بأذاننا غير حال فيها بل هو معنى قديم قائم بذات الله يلفظ ويسمع بالنظم الدال عليه ويحفظ بالنظم الخيل ، ويكتب بنقوش وصور وأشكال موضوعة للحروف ويكتب بالقلم ، وان المراد بأن القرآن غير مخلوق هو حقيقة الموجودة في الخارج الخ .

رواضح ان الجماعات المختلفة معترفون بكمال صفات الله ، وان اختلافهم هو حول آثار هذه الصفات الكاملة وتخيّلها وتفهمها ومدادها ، وان شأنهم في هذا شأنهم في الخلافات الكلامية الاخرى منهم المعظم الله

ومنهم المنزه له ؛ وانهم متفقون على ان القرآن منزل من الله على نبيه .
ولا يعنيان التبسط في هذه المسألة الخلافية وتاريخها ، ونعتقد ان ذات
صلة بالاحداث السياسية والنحلية والطائفية والعنصرية التي حدثت في
القرون الاسلامية الاولى ، وكان لتسرب الاماليب الكلامية والكتب
الفلسفية الاجنبية اثر قوي فيها ، وانها لا تتصل بانار نبوية وراشدية
موثقة ثابتة في ذاتها ، فضلا عن ما هناك من آثار نبوية وراشدية تنهى
عن التورط في بحوث قد تنتهي الى الخوض في ماهية الله والقرآن ومحتوياته
وانه يكفي للمسلم ان يظل فيها في حدودالتقريرات القرآنية من ان القرآن
كلام الله ومن عند الله ، ومن ان الله ليس كمثل شيء ، وان ما عدا ذلك
متصل بسر الوجود وواجب الوجود ومر الوحي والنبوة بما لا يستطيع ادراكه
بالعقل البشري ، وانه لا طائل من الجدول والخلاف فيه ولا ضرورة له ، وانما
الذي يعنيان هنا هو تقرير ان هذه المسألة الخلافية قد تكون ادت بين
حين وآخر بقصد وبغير قصد الى اغفال صلة الفصول والآيات القرآنية
بأحداث السيرة النبوية وظروف البيئة النبوية ، واعتبار هذه الاحداث
والظروف شأنا عابرا . وان هذا قد ادى الى ما قيل من اقوال وضمن
من تخمينات حول اسرار القرآن وحروفه ورموزه ومغيباته وماهيات
ما جاء فيه من مشاهد الكون ونواميس الخلق وقصص التاريخ والامثال
ومطوياتها بما لا يتسق مع حقائق الامور وأهداف القرآن الواضحة في الهداية
والارشاد والدعوة الى الخير والحق واسباب السعادة ، وبما فيه تشويش
على الاهداف وعلى الناظر في القرآن والراغب في تفهمه وتفهم السيرة
النبوية والبيئة النبوية والاسس والمبادئ القرآنية ، وما كان من سير
التشريع القرآني وتطوره .

النهي عن التفسير بالرأي واثوره :

رابعاً: ومن ذلك ما ورد في النهي عن تفسير القرآن بالرأي . وما قبل
من وجوب الوقوف في تفسيره عند حدود الروايات المروية عن النبي
والصحابه والتابعين او علمائهم .

فقد قال بعض العلماء انه لا يجوز لاحد ان يتعاطى تفسير شيء من
القرآن الا ان ينتهي الى ما روي عن النبي في ذلك ، وقال بعضهم ان
التفسير قسمان قسم ورد تفسيره بالقل وقم لم يرد ، والاول اما ان
يكون عن النبي او الصحابة او رؤوس التابعين ، وإما لم يرد فيه نقل
فهو قابل ، وقال بعضهم ان ما ورد فيه حديث نبوي لا يعدل عنه فيه
الى غيره ، وما لم يرد فيه حديث نبوي وورد فيه قول صحابي فلا يعدل
فيه الى غيره ، وما لم يرد فيه قول صحابي وورد فيه قول عالم تابعي او
قول تابعي - على اختلاف في التخصيص والاطلاق - فلا يعدل فيه الى
غيره ، وانه اذا كان هناك أقوال عديدة من مصدر من هذه المصادر
الثلاثة فيجتهد في التوفيق والجمع بينها . وقد روي عن الشافعي أنه قال
انه لا يحل تفسير المتشابه الابسة او خبر او اجماع (١) ، ولم يحدد
المتشابه في هذا القول مع ان مداه واسع جدا وموضوع خلاف كبير .

(١) الاقوال ملخصة عن الاتفاق للسيوطي .

ولما كان قد ورد روايات منسوبة الى المصادر الثلاثة المذكورة كثيرة جداً وصف ما ورد عن ابن عباس منها بوصف لا يحصى ، وقبل ان ما روي منها منسوبا الى النبي والصحابة نحو خمسة عشر الفا ، وتكاد تشمل كل آية في القرآن ، بل وان كثيراً ما ورد في آية واحدة اكثر من رواية وحديث ، وقد روي تفسير كامل عن ابن عباس وحده ، ونسب الى تابعين وتابعي تابعين تفاسير عديدة كاملة ارفاقصة فان من شأن الاقوال الواردة في ايجاب الوقوف في التفسير عند الروايات والاقوال المنسوبة الى المصادر الثلاثة المشار اليها أن يؤدي الى ان هذا الموقف يجب ان يشمل جميع آيات القرآن .

هذا من جهة ومن جهة اخرى فقد روي حديثان نبويان اخرج احدهما أبو داود والترمذي والنسائي جاء فيه « من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » واخرج ثانيهما أبو داود جاء فيه « من قال في القرآن بغير علم فليتبوا مقعده من النار » وفسر بعضهم تعبيري « برأيه » و « بغير علم » في الحديثين بغير سند من حديث او رواية او خبر . .

وقد التزم امام المفسرين بعد عصر تابعي التابعين أي الطبري هذا المبدأ فألف تفسيره الكبير في نطاقه ، ويكاد يكون قاصر أعلى الروايات المروية عن المصادر الثلاثة المذكورة . وفعل قبله مثله البخاري في الكتاب الذي عقده في صحيحه على التفسير وبوبه على ترتيب السور في المصحف مع التزامه شروطه في رواية الاحاديث والاقوال المنسوبة الى هذه المصادر . ومع ان من العلماء المتقدمين من خرج الحديثين النبويين تخريجاً من شأنه التوسيع فقال انهما في صدد النهي عن التفسير بالهوى ، وعن القول بقول يعلم قائله ان الحق غيره ، وعن الكلام في القرآن بغير علم يساعد

صاحبه على الاستنباط وحسن الادراك من معرفة باللغة والفقه والناسخ
 والمنسوخ الخ ، وان منهم من اورد بعض الاحاديث التي تسوغ النظر
 في القرآن والاجتهاد في الاستنباط منه مثل الحديث الذي اخرج ابو نعيم
 وجاء فيه « القرآن ذو وجه فاحملوه على احسن وجوهه » ، وان منهم
 من قال ان المسلمين مأمورون بنص القرآن بالنظر فيه وتدبره وتفهم
 احكامه وهذا هو متناول التفسير والتأويل ، وان نصوص القرآن تحتم
 صرف الاحاديث النبوية في حالة صحتها الى مثل ما صرفت اليه ، وانه
 ما من آية الا ويجب الله ان يعلم الناس فيما أنزل وما اريد منها ، ومع
 ان هذا التوجيه منسق مع طبائع الاشياء ، بحيث يكون النهي في الاحاديث
 اذا صحت قد استهدف الذم على الذين يحاولون صرف نصوص القرآن
 ودلالته الى تأييد بدعة في القول أو رأي فيه انحراف عن جادة الحق
 وتلقيبات القرآن الواضحة ومفهوماته المتواترة ، وعلى الذين يلغون الكلام
 في القرآن على عوامه ويحملون عباراته غير ما تتعمله ويجوضون في
 الماهيات الغيبية التي وردت الاشارات اليها بغير سند ، ولم يستهدف خطر
 التدبر في آيات القرآن واهدافه وتفهم معانيه بالعقل والتفكير والدراسة
 والاستنباط والمقايسة ، وخاصة في سبيل تجلئة الاهداف السامية والمثل
 العليا والاحكام الشرعية التي تنطوي فيه ، لان هذا هو الذي اوجبه
 القرآن على سامعيه وأنزل على النبي من أجله وجري السلف الصالح عليه ،
 وهو الذي تدل عليه الروايات الكثيرة جداً المعزوة الى علماء الصحابة
 والتابعين وتابعيهم والوارد كثير منها في كتب الاحاديث الصحيحة ايضا
 اذ ان كثيرا من هذه الروايات ان لم يكن اكثرها تأويلات وتفسيرات
 اجتهادية شخصية ، وبدل عليه كذلك سير المفسرين الذين جازوا بعد

هذه الطبقة على هذا النمط متجاوزين احيانا كثيرة حدود الروايات المنزوعة الى المصادر الثلاثة ، ومدونين هم الآخرون تأويلات وتفسيرات اجتهدية شخصية ، نقول انه مع ذلك كله فان الروايات ظلت عماد التفسير الاقوى وركنه الاعظم .

وبما لا ريب فيه ان الفكرة من حيث اصلها وجيبة كل الوجاهة ، لان الصحابة والتابعين وخاصة علماءهم هم اعلم بمفومات القرآن ودلالاته ومناسبات نزوله ومدى مقاصده على اعتبار أنهم اشد الطبقات اتصالا بظروف نزوله وجو نزوله ، وبما لا ريب فيه ان القول اقوى صحة ووجاهة وصوابا وأولوية بالنسبة الاحاديث النبوية ، كما ان للنهي والتشديد ما يبرهما لان خطورة شأن القرآن من جميع الاعتبارات توجب حتما الاحتياط والتروى والتدبر وعدم القاء الكلام فيه جزافا ، وتجعل الانحراف عن هذه الحطة والخطأ الناجي عن غير علم وروية انما كبيرا ، لما يتوجب عليه من آثار نفس بأمر الايمان والعقيدة ومصالح الانسانية عامة والمسلمين خاصة .

وبما لا ريب فيه ايضا ان هناك احاديث نبوية وصحابية قوية الاسناد وردت في كتب الصحاح ومنسقة مع روح الآيات القرآنية ومضامينها كما ان هناك اقوالا منسوبة الى الصحابة والتابعين وخاصة علماءهم وردت في كتب الحديث المعتبرة سائغة ومعقولة المتون كذلك في شرح العبارات القرآنية وتفسيرها وايضاح مداها ، فيجب الاخذ بتلك الاحاديث وهذه الاقوال والوقوف عندها وادارة الكلام في نطاقها تبانا وشرحا ونجلية ونطبيقاً .

غير انه بما لا ريب فيه ان الروايات والاقوال لا يصح ان تؤخذ قضايا مسلمة في هذا الصدد كما في غيره الا بعد التمهيط متنا وسندا

وطبقا ومقايسة على العبارات والدلالات القرآنية ، وإنه قد تسوّل في هذا الباب تساهلا عظيما ، وإن كثيرا بما ورد أن لم نقل أكثره ما يحمل على التوقف فيه من حيث أسناده ومتونه ، لغلبة احتمال الخطأ والتعريف والتلفيق والدس والانتحال والغرض السياسي والطائفي والنحلي فيه وخاصة ما لا يتسق في مداه ومعناه مع روح الآيات والوقائع التي يلهمها القرآن ، وإنه يصدق فيه قول ابن حنبل الذي أشرنا إليه في مناسبة سابقة : ثلاثة لا أصل لها التفسير والمغازي والملاحم ، بل ولعله إنما قيل بسبب هذه العلات .

ومع أن العلماء والمفسرين قالوا بوجوب التمهيص والنقد ، وتوقفوا في روايات وأقوال كثيرة وناقشوها وجرحوها ، وفي طليعتهم امام مفسري المأثور الطبري فإن النهي في أصله والقول بالآخذ بالروايات أولا ، وكثرة الروايات كثرة عجيبة ثانيا جعل هذه الروايات تستفيض في مختلف كتب التفسير على علانها ، وتكون عماداً قويا بل العماد الأقوى فيها ، ولم يحظ إلا القليل منها بالنقد والتمهيص والجرح ، بل وإن هذا المنقود المجرّح لم يبعد من كتب التفسير ، ومنها ما لم يشر إلى جرحه ، وكان هذا من أسباب وعلل ما وقع في هذه الكتب من تشويش واضطراب واغراب ومفارقة ، وما أدى إليه من تشويش على الناظر في القرآن والراغب في فهمه ، ومن اتخاذه من قبل المخرضين وسيلة إلى الغمز والظعن وسوء التفسير والاستنباط ، سواء أكان ذلك في أحداث السيرة النبوية المختلفة أم في ظروف البيئة النبوية ، أم في ما احتواه القرآن من قصص ومشاهد كونية وأخرية وأخبار لجانبة غيبية ، أم في انسجام الفصول والمجموعات القرآنية وتوجيهاتها وتلقيناتها ومدادها الخاص والعام والزمني المستمر .